الباب الثاني

الزهد

تمهيد

١- التحذير من فتنة الدنيا .

٢- المراد بالدنيا المذمومة في القرآن والسنة .

٣- ما ينكره الإسلام من الدنيا .

٤- تعريف الزهد عند علماء السلوك .

٥- حقيقة الزهد في الدنيا ومكوِّناته .

٦- مشاهد الزاهدين في الدنيا .

٧- عقبات في طريق الزهد .

٨- بواعث الزهد .

٩- ليس من متطلّبات الزهد .

١٠- حدود الزهد في ضروريات الحياة الدنيا في نظر الإمام الغزالي .

١١- وقفات نقديَّة أمام الغلاة في الزهد .

obeikandl.com

obeikandl.com

تمهيد

كلمة الزهد في القرآن والسنة :

لم تجئ في القرآن الكريم كلمة (الزهد) ولا مشتقَّاتها إلا مرَّة واحدة في قِصَّة يوسف الصِّدِّيق عليه السلام ، حين باعه السيَّارة الذين التقطوه من الجبِّ[1]، ﴿ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ﴾ (يوسف:١٩) ، فقال تعالى واصفًا حالهم : ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾ (يوسف:٢٠)، أي : باعوه .

وجاءت هذه الكلمة في السنة النبويَّة في أكثر من حديث ، بعضها من طرق صحيحة ، وبعضها من طرق ضعيفة ، ومنها الحديث المشهور في الزهد ، الذي اجتهد بعض العلماء أن يرقى به إلى درجة الحديث الحسن لغيره ، وذلك هو الذي رواه ابن ماجه ، والحاكم ، والطبراني ، والبيهقي ، وأبو نُعيم ، عن النبي ﷺ ، أن رجلا سأله : يارسول الله، دلَّني على عمل إذا عملتُه أحبَّني الله، وأحبَّني الناس؟ قال : « ازهد في الدنيا يحبُّك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبُّك الناس »[2]، وهو من أحاديث (الأربعين النووية) الشهيرة .

وأضعف منه حديث أبي ذر ، عن النبي ﷺ قال : « الزهادة في الدنيا ليست بتحريم الحلال ، ولا إضاعة المال ، ولكن الزهادة في الدنيا : أن لا تكون بما في يديك أوثق ما في يدي الله ، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أنت أصبتَ بها أرغب فيها لو أنها أبقيت لك »[3]. والأصوب أن يكون من كلام بعض التابعين .

---

(١) هذا هو الصحيح ، وليس إخوة يوسف كما قال عدد من المفسرين ، بدليل قوله تعالى بعدها : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ ﴾ (يوسف:٢١)، إذ لا يمكن لإخوة يوسف أن يذهبوا إلى مصر ويبيعوه هناك .

(٢) رواه ابن ماجه في الزهد (٤١٠٢) ، والحاكم في الرقاق (٣٤٨/٤) ، وصحح إسناده ، وقال الذهبي : خالد بن عمرو القرشي وضَّاع ، والطبراني (١٩٣/٦) ، والبيهقي في الشعب باب الزهد (١٠٥٢٣) ، وقال : خالد بن عمرو ضعيف ، وأبو نعيم في الحلية (٢٥٣/٣) ، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٣١٠) ، عن سهل بن سعد الساعدي .

(٣) رواه الترمذي (٢٣٤٠) ، وقال : هذا حديث غريب ، وعمرو بن واقد منكر الحديث ، وابن ماجه (٤١٠٠) ، كلاهما في الزهد ، عن أبي ذر ، وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي (٤٠٥) .

ومن الأحاديث الصحيحة : حديث ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « لما أصيب إخوانكم بأُحد ، جعل الله أرواحهم في جوف طير خضر ، ترد أنهار الجنة ، تأكل من ثمارها ، وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظلِّ العرش ، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم ، قالوا : مَن يبلِّغ إخواننا عنا أنا أحياء في الجنة نرزق ؛ لئلا يزهدوا في الجهاد ، ولا ينكلوا عند الحرب؟ فقال الله سبحانه : أنا أُبلِّغهم عنكم ، قال فأنزل الله : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ (آل عمران:١٦٩)[١].

وعن أبي هريرة قال : قلنا : يا رسول الله ، ما لنا إذا كنا عندك رقَّت قلوبنا ، وزهدنا في الدنيا ، وكنا من أهل الآخرة ، فإذا خرجنا من عندك ، فآنسنا أهالينا ، وشممنا أولادنا ، أنكرنا أنفسنا . فقال رسول الله ﷺ : « لو أنكم تكونون إذا خرجتم من عندي كنتم على حالكم ذلك ، لزارتكم الملائكة في بيوتكم ، ولو لم تذنبوا لجاء الله بخلق جديد ، كي يذنبوا فيغفر لهم . . . »[٢].

وكذلك حديث ابن مسعود رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ، فإنها تُزهِّد في الدنيا وتُذكِّر الآخرة »[٣].

---

(١) رواه أحمد (٢٣٨٨) ، وقال مخرِّجوه : حسن ، وأبو داود في الجهاد (٢٥٢٠) ، وأبو يعلى (٢١٩/٤) ، والحاكم (٩٧/٢) ، وصححه على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي ، والبيهقي في الشعب باب الجهاد (٤٢٤٠) ، كلاهما في الجهاد ، وفي الكبرى جماع أبواب السير (١٦٣/٩) ، عن ابن عباس ، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (٢١٩٩) .

(٢) رواه الترمذي في صفة الجنة (٢٥٢٦)، وقال : ليس إسناده بذاك القوي ، وليس هو عندي بمتصل ، وابن المبارك في الزهد (١٠٧٥) ، والطبراني في الأوسط (٧١١١) ، عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في ضعيف الترمذي دون قوله : قال : قلت : يا رسول الله ، مم خلق الخلق؟ قال :« من الماء» . . . (٤٥٤) .

(٣) رواه ابن ماجه في الجنائز (١٥٧١) ، وعبد الرزاق في الجنائز (٦٧١٤) ، وابن حبان في الرقائق (٩٨١) ، وقال الأرناؤوط : إسناده ضعيف ، والحاكم في الجنائز (٥٣١/١) ، والبيهقي في الكبرى كتاب الجنائز (٧٧/٤) ، عن ابن مسعود ، وصحَّح إسناده المنذري في الترغيب (١٨٩/٤) ، وضعفه الألباني في ضعيف ابن ماجه (٣٤٣).

عن أبي تميمة ، عن رجل من قومه ، أتى رجل رسول الله ﷺ ، فقال : أوصني . قال : « لاَ تَسُبنَّ أحداً ، ولا تزهد في معروف »[1].

عن أبي خلاد ـ وكانت له صحبة ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا رأيتم الرجل قد أعطي زهداً في الدنيا ، وقلَّة منطق ، فاقتربوا منه ، فإنه يُلقي الحكمة »[2].

عن الربيع قال : قال رسول الله ﷺ : « كفى بالموت مُزهِّدا في الدنيا ، ومُرغِّبا في الآخرة »[3].

شيوع مصطلح الزهد والكتب المؤلفة فيه :

اشتهرت كلمة الزهد فيما بعد ، حتى أصبحت (مصطلحًا) على اتجاه في السلوك، يقوم على الإعراض عن ملذَّات الدنيا ، وأُلِّفت فيها كتب تحمل هذا العنوان (الزهد) ، مثل : (الزهد والرقائق) للإمام ابن المبارك (ت١٨٠هـ) ، و(الزهد) للمعافى بن عمران الموصلي (ت١٨٥هـ) ، ولوكيع (ت١٩٧هـ)، ولأسد بن موسى (ت٢١٢هـ) ، ولأحمد بن حنبل (ت٢٤١هـ) ، ولأبي داود السجستاني (ت٢٧٥هـ) ، ولأبي حاتم الرازي (ت٢٧٧ هـ) ، ولابن أبي الدنيا (ت٢٨١هـ) ، ولابن أبي عاصم (ت٢٨٧هـ) ، ولهنَّاد بن السَّري (ت٢٤٣هـ) ، و(الزهد وصفة الزاهدين) لأحمد بن بشر المعروف بـ(ابن الأعرابي) (ت٣٤٠هـ) ، و(الفوائد والزهد والرقائق والمراثي) لجعفر الخلدي (ت٣٤٠هـ)، و(الزهد الكبير والصغير) للحافظ البيهقي (ت٤٥٨هـ) .

---

(١) رواه أحمد (٢٠٦٣٦)، وقال مُخرِّجوه : حديث صحيح ، النسائي في الكبرى كتاب الزينة (٩٦١١).

(٢) رواه ابن ماجه في الزهد (٤١٠١) ، والطبراني (٣٩٢/٢٢) ، والبيهقي في الشعب باب الزهد (١٠٥٢٩) ، وضعفه الألباني في ضعيف ابن ماجه (٨٩٤).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في الزهد (٣٥٤٧٠) ، وقال عوامة : الإسناد في دائرة الحسن ، والبيهقي في الشعب باب الزهد (١٠٥٥٥) ، وقال : هذا مرسل ، عن الربيع .

إطلاق وصف الزهَّاد على جماعة من السلف :

واشتهر بهذا الوصف (الزهد) أناس من السلف أطلق عليهم (الزهَّاد) ، قبل أن يعرف الناس مصطلح (الصوفية)، وقد بدأ ذلك من عصر الصحابة ﷺ ، حيث اشتهر بالزهد منهم جماعة مثل : عمر بن الخطاب ، وعلي بن أبي طالب ، وأبي ذر الغفاري ، وسلمان الفارسي ، وأبي الدرداء . واشتهر بعدهم مثل : أويس القرني ، والحسن البصري ، وعمر بن عبد العزيز ، ومالك بن دينار ، وإبراهيم بن أدهم ، والفضيل بن عياض ، وعبد الله بن المبارك ، وغيرهم[1] .

هل يجوز استخدام مصطلح (الزهد) ؟

وإذا كانت كلمة (الزهد) لم ترد في القرآن الكريم ، بمعناها المعروف في علم السلوك ، ولم ترد في السنة إلا في ذلك الحديث الواحد ـ على ما فيه ـ فليس معنى ذلك أن مضمونها غير وارد في القرآن أو الحديث ، كلا ، فإنَّ القرآن والسنة حافلان بالتزهيد في الدنيا ، والترغيب في الآخرة ، كما سنُبيِّن ذلك .

التحذير من التجاوزات والتطرُّفات :

ولهذا لا مانع من استخدام المصطلح (الزهد) ، على أن يفسَّر معناه ، ويُحدَّد مضمونه ، فلا نقع في التجاوزات والتطرُّفات التي وقع فيها الغلاة من الأمم والأفراد ، قبل الإسلام وبعده ، من الذين ناصبوا الحياة ، وناصبوا البدن الإنساني العداء ، واعتبروا أنَّ العناية بالجسم سببٌ لتعاسة الرُّوح ، وأنه إذا ارتقي الجسم انتكست الرُّوح ، والعكس بالعكس ، وأن الاهتمام بالدنيا نقص في الدين ، وعدوان على الآخرة .

لقد رأينا ذلك جليًّا في الفلسفة البرهمية في الهند ، والبوذية في الصين ، والمانوية في فارس ، والرواقية في اليونان ، والرهبانية في الديانة النصرانية .

كانت فلسفة هؤلاء جميعًا تقوم على مقاومة الجسد أو تعذيبه ، فكلما حوصر الجسد بالحرمان والإيذاء صفت الرُّوح ، وترقَّت في مدارج الكمال .

---

(١) انظر : كتاب (الزهاد الأوائل) للدكتور مصطفى حلمي ، دار الدعوة ، الأسكندرية ، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ ١٩٧٩م .

حكم الزهد :

قال الإمام أبو الوليد بن رُشْد القرطبي المالكي (ت٥٢٠هـ) : (الزهد نافلة مستحبة لا فريضة ، يستوجب الزاهد بها ، رِضا الله عزَّ وجلَّ عنه ، ورفيع الدرجات في جنة المأوى ، وإن كانت الواجبات كلها لا تكون إلا بالزهد ، فلا يسمَّى بشيء منها زاهداً ، إذ قد اختصَّت من الأسماء بما هو أليق بها من الزهد ألا ترى الإيمان لا يكون إلا بالزهد في كل معبود سواه ، والصلاة لا تكون إلا بالزهد في الاشتغال بما يصدّ عنها ، ويمنع منها؟ وكذلك سائر الفرائض والطاعات)[١].

مُكوِّنات حقيقة الزهد :[٢]

الزهد مقام من مقامات الدين ، ومنزلٌ من منازل السائرين إلى مقامات (إياك نعبد وإياك نستعين) ، كما سمَّاها العلامة الهروي ، وكلُّ مقام من مقامات الدين ، يتكوَّن عند الإمام الغزالي من معجون مُركَّب من ثلاثة عناصر، يسمِّيها : العلم والحال والعمل .

وإذا أردنا أن نتحدَّث عن هذا التعريف أو نُعبِّر عنه بعبارة معاصرة قلنا : إنه يتكون من عنصر عقليٍّ معرفيٍّ إدراكيٍّ ، وعنصر وجدانيٍّ انفعاليٍّ شعوريٍّ ، وعنصر حركيٍّ عمليٍّ سلوكيٍّ .

والزهد في الحقيقة هو الحال أو الوجدان أو الشعور الذي يخُطُّ أغواره في النفس الإنسانية ، بحيث تشعر معه أنَّ الدنيا متاعٌ قليل ، ومتاع الغرور ، ومتاع زائل ، وأنها دار ممر إلى دار مقرٍّ ، وأن الآخرة هي الحياة الحقيقية ، وأن إليها المنتهى ، وأنها خيرٌ وأبقى ، وأن الفوز فيها هو الفوز العظيم ، والخسران فيها هو الخسران المبين ، وأن الخير كلَّ الخير في إيثار الآخرة على الدنيا ، وأن يزرع المرء هنا ليحصد هناك ، وتعيش النفس في هذا الوجدان المعرض عن الدنيا الراغب في الآخرة .

---

(١) الجامع من المقدمات لأبي الوليد بن رشد القرطبي ، تحقيق المختار بن الطاهر التليلي ص١٨٤ .
(٢) سيأتي الحديث عن حقيقة الزهد ومقوِّماته في الفصل الخامس من هذا الباب .

ارتباط العنصر الوجداني بالعنصر العقلي المعرفي :

وهذا الحال ، أو هذا العنصر الوجداني أو الشعوري ، مبدؤه ومنشؤه معرفة عميقة ، وعلم راسخ بحقيقة الدنيا ، وصغر منزلتها، وهوانها على الله ، وأنَّ الله جعلها دار ابتلاء لأنبيائه ورسله وعباده الصالحين ، وأنَّ أشدَّ الناس بلاء فيها هم الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل[1]، وأنَّ المفلح في الدنيا هو المتزوِّد منها للآخرة ، وخير الزاد التقوى ، وأنَّ الخاسر في الدنيا هو مَنْ عاش لدنياه وحدها ، وأنَّ الآخرة هي الحياة الحقيقية عند ذوي البصيرة ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾

(العنكبوت:٦٤).

أثر العنصر الوجداني الشعوري في العنصر العملي السلوكي :

وإذا كانت الحال الوجدانية أثراً للعنصر المعرفي ، فإنها تؤثِّر في العنصر العملي والسلوكي ، الذي يتجلَّى في الإعراض عن الدنيا ، والإقبال على الآخرة ، والاجتهاد في عمل الصَّالحات ، واجتناب السيئات ، والحذر من المُحرَّمات والشُّبهات والمكروهات ، بل من التوسُّع في المباحات ، خشيةَ أن تُغْري بغيرها ، وتفضي إلى ما به بأس .

* * *

(١) إشارة إلى الحديث الذي رواه أحمد (١٤٨١) ، وقال مخرِّجوه : إسناده حسن رجاله ثقات رجال الشيخين غير عاصم بن بهدلة وهو صدوق ، والترمذي في الزهد (٢٣٩٨) ، وقال : حسن صحيح ، وابن ماجه في الفتن (٤٠٢٣) ، عن سعد بن أبي وقاص بلفظ : قلت : يا رسول الله ، أي الناس أشد بلاء؟ قال : « الأنبياء ، ثم الصَّالحون ، ثم الأمثل فالأمثل » .

الفصل الأول

التحذير من فتنة الدنيا

أولاً : تحذير القرآن من الدنيا :

مَن قرأ القرآن من أوله إلى آخره ، مكيِّه ومدنيِّه : أيقن أنَّ من مقاصده الأصلية : أن يُزهِّد الناس في الدنيا ، ويُعرِّفهم بخسَّتها ، وقلَّتها ، وانقطاعها ، وسرعة فنائها ، وحقارة متاعها ، وأن يُرغِّبهم في الآخرة ، ويخبرهم بشرفها ، ودوامها ، وأنها عند الله خير وأبقى ، فإذا أراد بعبد خيرًا ، أقام في قلبه شاهداً ، يعاين به حقيقة الدنيا والآخرة ، ويُؤْثر منهما ما هو أحقُّ بالإيثار .

وحسبنا هذه الآيات : ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ (الحديد: ٢٠).

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (يونس: ٢٤).

﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾ (النحل: ٩٦) .

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ (الكهف: ٤٥، ٤٦).

﴿ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ (النساء:٧٧،٧٨) .

وقال : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ (الأعلى:١٦،١٧).

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ (طه:١٣١).

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ (الكهف:٧،٨) .

﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ (الكهف:٢٨) .

﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْأَخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

(الزخرف:٣٣-٣٥) .

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾

(آل عمران:١٨٥) .

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (هود:١٥،١٦).

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ (الإسراء:١٨،١٩).

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ (الشورى: ٢٠) .

وذكر القرآن في آيات كثيرة عن الذين كفروا بآيات الله ، وكذبوا رسله : أنهم غرَّتهم الحياة الدنيا ، كالذين ذمهم الله بقوله : ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ (الأعراف: ٥١).

وقال سبحانه : ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴾ (الأنعام: ١٣٠).

وقال تعالى : ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (الأنعام: ٣٢).

﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ (العنكبوت: ٦٤).

إيثار الدنيا على الآخرة من أسباب الانحراف عن الحق :

والقرآن يرى أنَّ من أسباب الانحراف عن الحقِّ إلى الباطل ، وعن الدين إلى الهوى ، إنما هو إيثار الدنيا على الآخرة ، وقد ذمَّ القرآن بني إسرائيل على تحريفهم دينهم ، وتلاعبهم بأحكامه بسبب انهماكهم في حُبِّ الدنيا ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (البقرة: ٨٤، ٨٥).

الدنيا ثمن قليل :

والقرآن يسمِّي الدنيا كلَّها ﴿ ثَمَنًا قَلِيلاً ﴾ (البقرة:٤١) ، ويذمُّ أولئك الذين باعوا بهذا الثمن القليل آيات الله ودينه وعهده وإيمانه ، وكل القيم الدينية والأخلاقية ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلاً ۙ أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (البقرة:١٧٤) ، كما مدح القرآن قوماً من أهل الكتاب رفضوا مثل هذا السلوك ، قال سبحانه : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ (آل عمران:١٩٩) .

موعظة مؤمن آل فرعون :

وبيَّن القرآن أن التحذير من الدنيا هو طريق الأنبياء والمؤمنين ، كما عرض موعظة مؤمن آل فرعون ، الذي وقف يعظ قومه ويحذِّرهم قائلا : ﴿ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْـَٔاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴾ (غافر:٣٨،٣٩) .

التحذير من الانخداع بغرور الدنيا والشيطان :

ولهذا كرَّر القرآن تحذيره من غرور الدنيا ، فقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ (فاطر:٥).

وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ (لقمان:٣٣) .

ونلاحظ في الآيتين السابقتين : أن الخطاب نهى الناس كافَّة ، مؤمنَهم وكافرَهم ، أن تغُرَّهم الحياة الدنيا ، وتَخْدَعهم ببريقها وفتنتها وزينتها ، فَتَحُول بين الكافرين والإيمان ، وتَحُول بين المسلمين وطاعة الرحمن .

كما نلاحظ أنهما تنهيان عن الغرور والانخداع بالحياة الدنيا ، وبالغَرور الذي هو الشيطان ، عدو الإنسان ، فكلاهما يقوم بدور الإضلال للإنسان .

عَرَض الدنيا :

كما ذمَّ القرآن بعض ما يُفعل أو يُترك ، كما لام المسلمين في عهد النبوة على موقفهم من قبول فداء أسرى المشركين في غزوة بدر ، فقال تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ﴾ (الأنفال:٦٧).

كما لام الذين يرفضون التلفُّظ بالشهادة دليلاً على الإسلام في بعض الغزوات ، من أجل الدنيا ، فقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ﴾ (النساء:٩٤).

ثانيًا : التحذير من الدنيا في السنة النبوية :

والسنة النبوية حافلة بالأحاديث الوفيرة في التحذير من الغرور بالدنيا وزينتها ، والفتنة بمتاعها الأدنى ، والترغيب في الدار الآخرة ، وهي خير وأبقى ، وسأكتفي هنا بما ذكره الحافظ المنذري في كتابه : (الترغيب والترهيب) ، مقتصراً على الصِّحاح والحسان ، مما انتقيْتُه في كتابي : (المنتقى من الترغيب والترهيب) وعلَّقت عليه ، وزدتُ في تخريجه ، وهو كمٌّ كبير :

١- عن أم الدرداء ، عن أبي الدرداء رضي الله عنهما قالت : قلتُ له : ما لك لا تطلب ما يطلب فلان وفلان ؟ قال : إني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « إنَّ وراءكم عقبة كَؤودًا لا يجوزها المُثقِلون ، فأنا أحبُّ أن أتخفَّف لتلك العقبة». رواه الطبراني ، بإسناد صحيح[1].

---

(١) رواه ابن الأعرابي في الزهد (١١٠) ، والحاكم في الأهوال (٥٧٤/٤) ، وصحَّح إسناده ، ووافقه الذهبي ، وأبو نعيم في الحلية (٢٢٦/١) ، والبيهقي في الشعب باب الزهد (١٠٤٠٨) ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد : رواه الطبراني في الكبير ورجاله ثقات (٢٥٩/٣) . «الكؤود» بفتح الكاف ، وبعدها همزة مضمومة : هي العقبة الصعبة . والمثقلون : ذوو الحمل الثقيل .

٢- وعن أبي أسماء ، أنه دخل على أبي ذر وهو بالرَّبَذَة وعنده امرأة سوداء مُشَنَّعة ليس عليها أثر المحاسن ، ولا الخَلُوق فقال : ألا تنظرون إلى ما تأمرني هذه السويداء؟ تأمرني أن آتي العراق ، فإذا أتيتُ العراق مالوا عليَّ بدنياهم ، وإن خليلي ﷺ ، عهد إليَّ أن « دون جسر جهنم طريقا ذا دَحْض ومَزَلَّة ، وإنا أن نأتي عليه وفي أحمالنا اقتِدَار واضْطِمَار أحرى أن ننجو ، من أن نأتي عليه ونحن مَوَاقِير[١] » . رواه أحمد ، ورواته رواة الصحيح[٢] .

(الدَّحْض) ـ بفتح الدال وسكون الحاء المهملتين وبفتح الحاء أيضا وآخره ضاد معجمة ـ هو الزلق .

٣- وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : « إنَّ الله عزَّ وجلَّ ليحمي عبده المؤمن الدنيا وهو يحبُّه ، كما تحمون مريضكم الطعام والشراب » . رواه الحاكم ، وقال : صحيح الإسناد[٣] .

٤- وعن رافع بن خديج رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أحبَّ الله عزَّ وجلَّ عبدًا حماه الدنيا ، كما يظلُّ أحدكم يحمي سقيمه الماء ». رواه الطبراني ، بإسناد حسن ، ورواه ابن حبان في صحيحه ، والحاكم بلفظه من حديث قتادة[٤] ، وقال الحاكم : صحيح الإسناد[٥] .

٥- وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « هل تدرون أول مَن يدخل الجنة من خلق الله عزَّ وجلَّ؟ ». قالوا : الله ورسوله أعلم .

---

(١) مشنعة : أي متفرقة الشعر ، ويروى « مسفعة » بالسين مهملة بعدها فاء ـ أي مسودة اللون قليلاً . والخلوق : الطيب . والمزلة : الزلل . والاقتدار : القدرة على احتمالنا . والاضطمار : أصله الضمور والهزال ، وأراد الخفة . وأحرى : أي أولى . ومواقير : أي مثقلون .

(٢) رواه أحمد (٢١٤١٦) ، وقال مخرجوه : إسناده صحيح على شرط مسلم ، رجاله ثقات رجال الشيخين ، غير أبي أسماء فمن رجال مسلم ، وأبو نعيم في الحلية (١/١٦١) ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح (١٠/٤٥٣) .

(٣) رواه الحاكم في الطب (٤/٢٠٨) ، وصحح إسناده ، ووافقه الذهبي .

(٤) في الترغيب : أبي قتادة ، والتصويب من (الموارد) (والمستدرك) ، وهو قتادة بن النعمان .

(٥) رواه الترمذي في الطب (٢٠٣٦) ، وقال : حسن غريب ، وابن حبان في الرقائق (٦٦٩) ، وقال الأرناؤوط : إسناده صحيح ، والطبراني (٤/٢٥٢) ، والحاكم في الرقاق (٤/٣٠٩) ، وصحح إسناده ، ووافقه الذهبي .

قال : «الفقراء المهاجرون ، الذين تُسدُّ بهم الثغور ، وتُتَّقى بهم المكاره ، ويموتُ أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء ، فيقول الله عزَّ وجلَّ لمن يشاء من ملائكته : ائتوهم فَحَيُّوهم . فتقول الملائكة : ربنا نحن سكان سمائك ، وخيرتك من خلقك ، أفتأمرنا أن نأتي هؤلاء فنُسلِّم عليهم؟ قال : إنهم كانوا عبادًا يعبدوني ، ولا يشركون بي شيئًا ، وتُسدُّ بهم الثغور ، وتُتَّقى بهم المَكَاره ، ويموتُ أحدهم وحاجتُه في صدره لا يستطيع لها قضاء» . قال : «فتأتيهم الملائكة عند ذلك ، فيدخلون عليهم من كلِّ باب : ﴿ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾(الرعد:٢٤)». رواه أحمد ، والبزار ، ورواتهما ثقات ، وابن حبان في صحيحه[١] .

٦- وعن ثوبان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :« إنَّ حوضي ما بين عدن إلى عمان ، أكوابه عدد النجوم ، ماؤه أشدُّ بياضا من الثلج ، وأحلى من العسل ، وأكثر الناس ورودا عليه فقراء المهاجرين» . قلنا : يا رسول الله ، صفهم لنا ؟ قال : «شُعثُ الرؤوس ، دُنْس الثياب ، الذين لا ينكحون المتنعِّمات ، ولا تفتح لهم السُّدَد ، الذين يُعطَون ما عليهم ، ولا يُعطَون ما لهم» . رواه الطبراني ، ورواته رواة الصحيح ، وهو في الترمذي ، وابن ماجه بنحوه[٢] .

«السُّدَد» هنا : هي الأبواب . [جمع سُدَّة ، والمراد : أبواب الأمراء والكبراء] .

٧- وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : «يدخل فقراء أمتي الجنة قبل أغنيائهم بأربعين خريفا» . فقيل : صِفهم لنا؟ قال : «الدنسة ثيابهم ، الشعثة رؤوسهم ، الذين لا يُؤذن لهم على السُّدات ، ولا ينكحون المُنعَّمات ، تُوكَّل بهم مشارق الأرض ومغاربها ، يُعطون كلَّ الذي عليهم

---

(١) رواه أحمد (٦٥٧٠) ، وقال مخرِّجوه : إسناده جيد ، والبزار (٢٤٥٧) ، وابن حبان في مناقب الصحابة (٧٤٢١) ، قال الأرناؤوط : إسناده صحيح ، وصحَّحه شاكر (٦٥٧٠) ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد : رواه أحمد والبزار والطبراني ورجالهما ثقات (١٠/٤٥٥) .

(٢) رواه الترمذي في صفة القيامة (٢٤٤٤) ، وقال : حديث غريب ، وابن ماجه في الزهد (٤٣٠٣) ، والطبراني (٢/٩٩) ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد : رجاله رجال الصحيح (١٠/٤٥٧) .

ولا يُعطَون كلَّ الذي لهم[1]». رواه الطبراني في الكبير والأوسط ، ورواته ثقات[2].

ورواه مسلم مختصراً : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « إنَّ فقراء أمتي المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة بأربعين خريفا» . ورواه ابن حبان في صحيحه مختصرا أيضا ، وقال : « بأربعين عاما»[3].

٨- وعن أسامة رضي الله عنه ، عن النبيِّ ﷺ قال : « قمتُ على باب الجنة ، فكان عامة مَن دخلها المساكين ، وأصحاب الجَدِّ محبوسون[4] ، غير أن أصحاب النار ، قد أمر بهم إلى النار . وقمتُ على باب النار ، فإذا عامة مَن دخلها النساء» . رواه البخاري ومسلم[5] .

« الجَدُّ» بفتح الجيم هو : الحظُّ والغنى .

٩- وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « اللهم أحيني مسكيناً ، وتوفَّني مسكيناً ، واحشرني في زمرة المساكين[6]». رواه ابن ماجه[7].

---

(١) الحديث وما قبله يصوِّر أناسا مشغولين ، بغيرهم عن أنفسهم ، وبمخبرهم عن مظهرهم ، وبواجباتهم عن حقوقهم . ولهذا وصفوا بأنهم «يعطون كل الذي عليهم ، ولا يعطون كل الذي لهم» كما جاء في حديث البخاري : «طوبى لعبد أخذ بعنان فرسه في سبيل الله ، أشعث رأسه مغبرة قدماه» . فقد شغله الجهاد عن ترجيل الشعر ونظافة القدمين ، ولا يفهم من هذه الأحاديث بحال أن السنة ضد النظافة والتجميل .

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٣١٥/١٢) ، والأوسط (٣٤٧٧) ، وقال الهيثمي في المجمع : رواه الطبراني في الكبير والأوسط ورجاله ثقات (٤٥٨/١٠) .

(٣) رواه مسلم في الزهد (٢٩٧٩) ، وأحمد (٦٥٧٨) ، وابن حبان في الرقائق (٦٧٧) .

(٤) محبوسون : أي لم يؤذن لهم بعد في دخول الجنة .

(٥) متفق عليه : رواه البخاري في النكاح (٥١٩٦) ، ومسلم في الرقاق (٢٧٣٦) ، وأحمد (٦٥٧٨) .

(٦) المسكنة هنا لا تعني الفقر فقد استعاذ بالله من شره في أكثر من حديث . وإنما تعني التواضع والبعد عن بريق المظاهر المادية .

(٧) رواه ابن ماجه في الزهد (٤١٢٦) ، والحاكم في الرقاق (٣٥٨/٤) ، وصحح إسناده ، ووافقه الذهبي ، والبيهقي في الشعب باب قبض اليد على الأموال (٥٤٩٩) ، وفي الكبرى كتاب قسم الصدقات (١٣/٧) ، وأسرف ابن الجوزي فذكره في الموضوعات (١٤٠/٣) ، قال ابن حجر : وليس كذلك ، فقد صححه الضياء في (المختارة) . وقال مرة أخرى : وكأنه أقدم عليه لما رآه مبايناً للحال التي مات عليها المصطفي ﷺ ، لأنه كان مكفيًّا . كذا في (الفيض) (١٠٢/٢) ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (١٢٦١) ، ولعل مَنْ صحَّحه لشواهده عن أنس وعائشة وعبادة بن الصامت .

١٠- وعن عائذ بن عمرو ، أن أبا سفيان أتى على سلمان وصهيب وبلال في نفر فقالوا : ما أخذت سيوف الله من عنق عدوِّ الله مأْخَذَها . فقال أبو بكر رضي الله عنه : أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم ؟ فأتى النبي ﷺ فأجاره ، فقال : « يا أبا بكر ، لعلك أغضبتهم ، لئن كنتَ أغضبتَهم لقد أغضبتَ ربك » . فأتاهم أبو بكر فقال : يا إخوتاه ، أغضبتكم ؟ قالوا : لا ، يغفر الله لك يا أخي . رواه مسلم وغيره[١] .

١١- وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : أوصاني رسول الله ﷺ بخصال من الخير : أوصاني أن لا أنظر إلى مَن هو فوقي ، وأنظر إلى مَن هو دوني ، وأوصاني بحبِّ المساكين ، والدنوِّ منهم ، وأوصاني أن أصل رحمي وإن أدبرت . الحديث . رواه الطبراني ، وابن حبان في صحيحه[٢] .

١٢- وعن حارثة بن وهب رضي الله عنه قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كلُّ ضعيف مُسْتضعَف ، لو يقسم على الله لأبرَّه . ألا أخبركم بأهل النار؟ كلُّ عتلٍّ جوَّاظ مستكبر » . رواه البخاري ، ومسلم ، وابن ماجه[٣] .

(العُتُلُّ) بضم العين والتاء وتشديد اللام هو : الجافي الغليظ . و(الجوَّاظُ) بفتح الجيم وتشديد الواو وآخره ظاء معجمة هو : الضخم المختال في مشيته . وقيل : القصير البطين . وقيل : الجَموع المَنُوع .

١٣- وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « احتجَّت الجنة والنار ، فقالت النار : فيَّ الجبَّارون والمتكبِّرون . وقالت الجنة : فيَّ ضعفاء المسلمين ومساكينهم . فقضى الله بينهما : إنك الجنة رحمتي ، أرحم بك مَن أشاء ،

---

(١) رواه مسلم في الفضائل (٢٥٠٤) ، والنسائي في الكبرى كتاب المناقب (٨٢١٩) .

(٢) رواه أحمد (٢١٤١٥) ، وقال مخرجوه : حديث صحيح وهذا إسناد حسن ، والطبراني في الكبير (١٥٦/٢)، والأوسط (٧٧٣٩)، والصغير (٧٥٨)، وابن حبان في البر والإحسان (٤٤٩)، وقال : الأرناؤوط : حديث صحيح ، وقال الهيثمي في المجمع : رواه الطبراني في الصغير والكبير ورجاله رجال الصحيح غير سلام أبي المنذر وهو ثقة (٥٢٣/٧) .

(٣) متفق عليه : رواه البخاري في التفسير (٤٩١٨) ، ومسلم في الجنة وصفتها (٢٨٥٣) ، وابن ماجه في الزهد (٤١١٦) ، وكذا الترمذي في صفة جهنم (٢٦٠٥) .

وإنك النار عذابي ، أُعذِّب بك مَن أشاء ، ولكليكما عليَّ ملؤها » . رواه مسلم[1] .

١٤- وعن أبي هريرة ﷺ ، عن رسول الله ﷺ قال : « إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة ، لا يزن عند الله جناح بعوضة » . رواه البخاري ، ومسلم[2] .

١٥- وعن سهل بن سعد ﷺ قال : مرَّ رجل على النبي ﷺ ، فقال لرجل عنده جالس : « ما رأيك في هذا؟ » . قال : رجل من أشراف الناس ، هذا والله ، حريٌّ إن خطب أن يُنكح ، وإن شفع أن يشفَّع . فسكت رسول الله ﷺ ، ثم مرَّ رجل فقال رسول الله ﷺ : « ما رأيك في هذا؟ » . فقال : يا رسول الله ، هذا رجل من فقراء المسلمين ، هذا أحْرَى[3] إن خطب أن لا يُنكح ، وإن شفع أن لا يشفَّع ، وإن قال أن لا يسمع لقوله . فقال رسول الله ﷺ : « هذا خير من ملء الأرض مثل هذا »[4] . رواه البخاري ، وابن ماجه[5] .

١٦- وعن أبي ذر ﷺ قال : قال لي رسول الله ﷺ : « انظر أرفع رجل في المسجد » . قال : فنظرتُ فإذا رجل عليه حُلَّة ، قلتُ : هذا . قال : قال لي : « انظر أوضع رجل في المسجد » . قال : فنظرتُ فإذا رجل عليه أخلاق[6] ،

---

(١) لم يذكر مسلم لفظه ، بل روى حديث أبي هريرة قبله ، ثم ذكر عن أبي سعيد بسنده إلى أبي صالح ، وفي أوله : احتجت الجنة والنار . . قال : فذكر نحو حديث أبي هريرة . إلى قوله : « ولكليكما عليَّ ملؤها » الحديث (٢٨٤٧) . ومقتضى القواعد : « ولكلتيكما » ولعل التأويل أنهما مكانان النعيم والعذاب ، وتأنيثهما مجازي .

(٢) متفق عليه : رواه البخاري في التفسير (٤٧٢٩) ، ومسلم في صفة القيامة (٢٧٨٥) .

(٣) أحرى : أجدر وأحق ، يعني أنه ليس أهلا لأن يزوج ويشفع . . . إلخ

(٤) الإسلام لا يقيس الناس بأموالهم أو بجاههم فإن الله لا ينظر إلى الصور ، ولكن ينظر إلى القلوب والأعمال ، ولهذا حرص النبي ﷺ ، أن يؤكد هذه الحقيقة ، في أكثر من حديث بهذا الأسلوب التربوي العملي ، تثبيتا له في الأذهان والضمائر .

(٥) رواه البخاري في النكاح (٥٠٩١) ، وابن ماجه في الزهد (٤١٢٠) .

(٦) أخلاق : ثياب رثة خَلِقة .

قال : قلتُ : هذا . قال : فقال رسول الله ﷺ : « لَهَذا عند الله خيرٌ يوم القيامة مِنْ ملء الأرض مثل هذا » . رواه أحمد ، بأسانيد رواتها مُحتجٌّ بهم في الصحيح ، وابن حبان في صحيحه[1] .

١٧- وعن مصعب بن سعد قال : رأى سعد رضي الله عنه ، أنَّ له فضلاً على مَنْ دونه ، فقال رسول الله ﷺ : « هل تُنصرون وتُرزقون إلا بضعفائكم »[2] رواه البخاري[3] ، والنسائي وعنده : فقال النبي ﷺ : « إنما تُنصر هذه الأمة بضعيفها : بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم »[4] .

١٨- وعن محمود بن لَبِيد رضي الله عنه ، أن النبيَّ ﷺ قال : « اثنتان يكرههما ابن آدم : الموت ، والموت خير من الفتنة ، ويكره قلَّة المال ، وقلَّة المال أقلُّ للحساب » . رواه أحمد ، بإسنادين رواة أحدهما محتجٌّ بهم في الصحيح ، ومحمود له رؤية ، ولم يصحَّ له سماع فيما أرى[5] .

---

(١) رواه أحمد (٢١٣٩٥) ، وابن حبان في الرقاق (٦٨١) ، وقال الأرناؤوط : إسناده صحيح . وقال الهيثمي في المجمع : رواه أحمد بأسانيد ورجالها رجال الصحيح (٤٥٨/١٠) ، وقال أيضاً : رواه أحمد والبزار والطبراني في الأوسط بأسانيد ورجال أحمد وأحد إسنادَي البزار والطبراني رجال الصحيح (٤٦٨/١٠) .

(٢) يشير الحديث إلى قضية اجتماعية مهمة ، وهي أن الفئات الضعيفة من العمال والفلاحين والحرفيين ونحوهم ، هم عدة النصر في الحرب ، وعدة الإنتاج في السلم . وهذا بعض ما يُفهم من : « تنصرون وترزقون » . وانظر كتابنا (فقه الجهاد) (٦٢٦/١) الطبعة الأولى .

(٣) قال النووي في الرياض : رواه البخاري هكذا مرسلاً ، فإن مصعب بن سعد تابعي ، ورواه الحافظ أبو بكر البرقاني في صحيحه متصلاً عن مصعب عن أبيه اهـ . وكذلك رواه النسائي موصولاً وسنده صحيح . قال ابن حجر في الفتح : قال الدارقطني : وهذا مرسل ، قلتُ : صورته صورة المرسل ، إلا أنه موصول في الأصل معروف من رواية مصعب بن سعد عن أبيه ، وقد اعتمد البخاري كثيراً من أمثال هذا السياق ، فأخرجه على أنه موصول إذا كان الراوي معروفاً بالرواية عمَّن ذكره (٣٦٢/١) .

(٤) رواه البخاري (٢٨٩٦) ، والنسائي (٣١٧٨) ، كلاهما في الجهاد .

(٥) رواه أحمد (٢٣٦٢٥)، وقال الهيثمي في المجمع : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح (٦٢/٣).

١٩- وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « رُبَّ أشعث أغبر مدفوع بالأبواب ، لو أقسم على الله لأبرَّه » . رواه مسلم[١] .

٢٠- وعن ثوبان ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ من أمتي مَنْ لو جاء أحدكم يسأله ديناراً لم يُعطه ، ولو سأله درهماً لم يُعطه ، ولو سأله فَلْساً لم يعطه ، فلو سأل الله الجنة أعطاها إيَّاه . ذي طمرين ، لا يُؤْبه له ، لو أقسم على الله لأبرَّه » . رواه الطبراني ، ورواته محتجٌ بهم في الصحيح[٢] .

٢١- وعن أبي سعيد الخدري ﷺ ، أن رسول الله ﷺ قال : « إنَّ الدنيا حلوة خَضِرَة ، وإنَّ الله تعالى مستخلفكم فيها ، فينظر كيف تعملون ، اتقوا الدنيا واتقوا النساء »[٣] . رواه مسلم ، والنسائي وزاد : « فما تركتُ بعدي فتنةً أضرَّ على الرجال من النساء »[٤] .

٢٢- وعن عَمْرة بنت الحارث ﷺ قالت : قال رسول الله ﷺ : « الدنيا حلوة خَضِرَة ، فمَن أخذها بحقِّها بارك الله له فيها ، ورُبَّ مُتخوِّض في مال الله ورسوله له النار يوم القيامة » . رواه الطبراني ، بإسناد حسن[٥] .

٢٣- وعن عبد الله بن عمرو ﷺ قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « الدنيا حلوة خَضِرة ، فمَن أخذها بحقِّها بارك الله له فيها ، ورُبَّ متخوِّض فيما اشتهت نفسه ليس له يوم القيامة إلا النار » . رواه الطبراني في الكبير ، ورواته ثقات[٦] .

---

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٦٢٢) .

(٢) رواه الطبراني في الأوسط (٧٥٤٨) ، وقال الهيثمي في المجمع : رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح (٤٦٦/١٠) .

(٣) والتحذير من الدنيا ومن النساء لا يعنى ترك الدنيا أو النساء . فالدنيا مزرعة الآخرة ، والنساء شقائق الرجال . وإنما يعنى اجتناب الافتتان بهما ، والاشتغال بهما عن طاعة الله ونصرة دينه . والوقوف عند حدوده .

(٤) رواه مسلم في الرقاق (٢٧٤٢) ، والنسائي في الكبرى كتاب عشرة النساء (٩٢٢٤) .

(٥) رواه الطبراني (٣٤٠/٢٤)، وقال الهيثمي في المجمع : رواه الطبراني وإسناده حسن (٤٣١/١٠).

(٦) وكذا قال الهيثمي في المجمع (٢٦٤/٣) .

٢٤- وعن أبي عبد الرحمن الحُبُلِّي قال : سمعتُ عبد الله بن عمرو بن العاصي وسأله رجل فقال : ألست من فقراء المهاجرين ؟ فقال له عبد الله : ألك امرأة تأوي إليها ؟ قال : نعم . قال : ألك مسكن تسكنه ؟ قال : نعم . قال : فأنت من الأغنياء . قال : فإنَّ لي خادماً . قال : فأنت من الملوك . رواه مسلم موقوفًا[١].

٢٥- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة أن يقال له : ألم أصحَّ لك جسمك ، وأَروِك من الماء البارد؟» . رواه ابن حبان في صحيحه ، والحاكم ، وقال : صحيح الإسناد[٢].

٢٦- وعن أنس رضي الله عنه قال : اشتكى سلمان : فعاده سعد ، فرآه يبكي ، فقال له سعد : ما يبكيك يا أخي ؟ أليس قد صحبتَ رسول الله ﷺ ، أليس . . . أليس . . . ؟ قال سلمان : ما أبكي واحدة من اثنتين ، ما أبكي ضنًّا على الدنيا ، ولا كراهية الآخرة ، ولكن رسول الله ﷺ عهِد إلينا عهداً ما أراني إلا قد تعدَّيتُ . قال : وما عهِد إليك؟ قال : عهِد إلينا أنه « يكفي أحدكم مثل زاد الراكب» . ولا أراني إلا قد تعدَّيْتُ ، وأما أنت يا سعد ، فاتَّقِ الله عند حكمك إذا حكمت ، وعند قسمك إذا قَسَمت ، وعند همِّك إذا هَمَمتَ . قال ثابت : فبلغني أنه ما ترك إلا بضعة وعشرين درهماً مع نُفَيقة كانت عنده . رواه ابن ماجه ، ورواته ثقات احتجَّ بهم الشيخان ، إلا جعفر بن سليمان فاحتجَّ به مسلم وحده[٣] .

---

(١) رواه مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٧٩) .

(٢) رواه ابن حبان في مناقب الصحابة (٧٣٦٤) ، وقال الأرناؤوط : حديث صحيح ، والحاكم في الأشربة (١٣٨/٤) ، وصحح إسناده ووافقه الذهبي ، ورواه الترمذي في التفسير (٣٣٥٨) ، وقال : غريب .

(٣) رواه ابن ماجه في الزهد (٤١٠٤) ، وذكر في (الزوائد) : أن جعفر بن سليمان الضبعي مختلف فيه . وفي (التقريب) ، قال عنه الحافظ : صدوق زاهد لكنه يتشيع .

قال الحافظ المنذري : وقد جاء في صحيح ابن حبان ، أن مال سلمان رضي الله عنه جُمع ، فبلغ خمسة عشر درهما[1] ، وفي الطبراني : أن متاع سلمان بِيع فبلغ أربعة عشر درهما[2] .

٢٧- وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ قال : « قد أفلح مَن أسلم ، ورُزق كفافاً ، وقنَّعه الله بما آتاه » . رواه مسلم ، والترمذي ، وغيرهما[3] .

(الكفاف) : الذي ليس فيه فضل عن الكفاية .

٢٨- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً » . وفي رواية : « كفافاً » . رواه البخاري ، ومسلم ، والترمذي ، وابن ماجه[4] .

٢٩- وعن أنس بن مالك رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال :« يتبع الميت ثلاث : أهله ، وماله ، وعمله ، فيرجع اثنان ويبقى واحد ، يرجع أهله وماله ، ويبقى عمله ». رواه البخاري ، ومسلم[5] .

٣٠- وعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ قال : « ما من عبد ولا أَمَة إلا وله ثلاثة[6] أخلاء : فخليل يقول : أنا معك ، فخذ ما شئتَ ، ودع ما شئتَ ، فذلك ماله . وخليل يقول : أنا معك ، فإذا أتيتَ باب المَلِك تركتُك ، فذلك

---

(١) رواه ابن حبان (٧٠٦) ، والحاكم ، كلاهما في الرقاق (٣١٧/٤) ، ووافقه الذهبي ، عن عامر ابن عبد الله .

(٢) رواه الطبراني (٢١٤/٦) ، عن علي بن نديمة ، وقال الهيثمي في المجمع : رواه الطبراني وإسناده جيد إلا أن علي بن نديمة لم يدرك سلمان فإن كانت تركته تأخرت فهو متصل (٤٤٦/١٠) .

(٣) رواه مسلم في الزكاة (١٠٥٤) ، والترمذي (٢٣٤٩) ، وابن ماجه (٤١٣٨) ، كلاهما في الزهد .

(٤) متفق عليه : رواه البخاري في الرقاق (٦٤٦٠)، ومسلم (١٠٥٥)، والترمذي (٢٣٦١)، وابن ماجه (٤١٣٩) ، ثلاثتهم في الزهد .

(٥) متفق عليه : رواه البخاري في الرقاق (٦٥١٤) ، ومسلم في الزهد (٢٩٦٠) . وقد أفرد الحافظ ابن رجب الحنبلي شرح هذا الحديث فأجاد وأفاد .

(٦) في مطبوعة الترغيب والترهيب (ثلاث) ، والمثبت الصواب ، وهو الموافق لقواعد اللغة ، إذ المعدود مذكَّر ، وكما جاء في مجمع الزوائد (٤٤١/١٠) .

خَدَمه وأهله . وخليل يقول : أنا معك ، حيث دخلتَ وحيث خرجت ، فذلك عمله» . رواه الطبراني في الكبير ، بأسانيد أحدها صحيح[١].

٣١- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «يقول العبد مالي مالي ، وإنما له من ماله ثلاث : ما أكل فأفنى ، أو لبس فأبلى ، أو أعطى فأقنى ، ما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس» . رواه مسلم[٢].

٣٢- وعن عبد الله بن الشِّخِّير رضي الله عنه قال : أتيتُ النبي ﷺ وهو يقرأ : ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴾ (التكاثر:١)[٣] قال : «يقول ابن آدم : مالي مالي ، وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلتَ فأفنيتَ ، أو لبستَ فأبليتَ ، أو تصدقتَ فأمضيتَ». رواه مسلم ، والترمذي ، والنسائي[٤].

٣٣- وعن جابر رضي الله عنه ، أنَّ رسول الله ﷺ مرَّ بالسوق ، والناس كَنَفَتَيه ، فمرَّ بجدْي أَسَكَّ ميت ، فتناوله بأذنه ، ثم قال :«أيُّكم يحبُّ أن هذا له بدرهم؟». فقالوا : ما نحبُّ أنه لنا بشيء ، وما نصنع به؟ قال : «أتحبُّون أنه لكم ؟» . قالوا : والله ، لو كان حيًّا لكان عيباً فيه ؛ لأنه أسك فكيف وهو ميِّت؟ فقال : «والله ، للدنيا أهون على الله عزَّ وجلَّ من هذا عليكم» . رواه مسلم[٥].

قوله : «كَنَفَتَيه» أي عن جانبيه . و(الأَسَكّ) بفتح الهمزة والسين المهملة أيضاً وتشديد الكاف هو : الصغير الأُذن .

٣٤- وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :«لو كانت الدنيا تعدل عند الله جَنَاح بعوضة ما سَقَى كافرًا منها شربة ماء». رواه ابن ماجه ، والترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح[٦].

---

(١) وهكذا قال في مجمع الزوائد (١٠/٤٤١) .

(٢) رواه مسلم في الزهد (٢٩٥٩) .

(٣) ومعنى التكاثر : التفاخر بكثرة المال والمتاع ، وألهاكم : أي : شغلكم .

(٤) رواه مسلم (٢٩٥٨) ، والترمذي (٢٣٤٢) ، كلاهما في الزهد ، والنسائي في الوصايا (٣٦١٣) .

(٥) رواه مسلم في الزهد (٢٩٥٧) ، والحديث يجسِّد جانباً من الطريقة النبوية في التربية . وانظر كتابي : «الرسول والعلم» .

(٦) رواه الترمذي في الزهد (٢٣٢٠) ، وابن ماجه في الزهد (٤١١٠) ، والحاكم في الرقائق (٤/٣٠٦) وصححه ، وقال الذهبي : زكريا بن منظور ضعفوه ، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٩٤٣).

٣٥- وعن أُبيٍّ بن كعب رضي الله عنه ، أنَّ النبيَّ ﷺ قال : « إنَّ مطعم ابن آدم جُعل مثلاً للدنيا ، وإن قَزَّحَه ومَلَحَه ، فانظر إلى ما يصير؟ ». رواه عبد الله بن أحمد ، وابن حبان في صحيحه[١].

قوله : « قَزَّحَه » بتشديد الزاي هو : من القِزْح ، وهو التابل ، يقال : قَزَّحتُ القدر ؛ إذا طرحتَ فيها الأبزار . و« مَلَحَه » بتخفيف اللام معروف .

٣٦- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « إنَّ الدنيا ملعونة[٢] ، ملعون ما فيها ، إلا ذِكْر الله ، وما والاه ، وعالم أو متعلِّم » . رواه ابن ماجه ، والبيهقي ، والترمذي ، وقال : حديث حسن[٣].

٣٧- وعن المُسْتورِد أخي بني فِهر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه هذه في اليمِّ ـ وأشار يحيى بن يحيى بالسبَّابة ـ فلْينظر بمَ يرجع » . رواه مسلم[٤].

٣٨- وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه ، أنه لما حضرته الوفاة قال : يا معشر الأشعريين ليبلِّغ الشاهد الغائب ، إني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « حُلْوَة الدنيا مُرَّة الآخرة ، ومُرَّة الدنيا حُلْوة الآخرة » رواه الحاكم ، وقال : صحيح الإسناد[٥].

---

(١) رواه عبد الله في زوائد المسند (٢١٢٣٩) ، وابن حبان في الرقاق (٧٠٢) ، وقال الأرناؤوط : حديث صحيح ، والطبراني (١٩٨/١) ، وقال الهيثمي في المجمع : رواه عبد الله والطبراني ورجالهما رجال الصحيح غير عتي وهو ثقة (٥١٤/١٠) .

(٢) المراد باللعن هنا : الذم ، فالدنيا مذمومة مبغوضة ، لا من حيث ذاتها ، بل من حيث أنها تلهي عن ذكر الله والدار الآخرة ، بدليل الاستثناء في الحديث .

(٣) رواه الترمذي (٢٣٢٢) ، وابن ماجه (٤١١٢) ، والبيهقي في الشعب في طلب العلم (١٧٠٨) .

(٤) رواه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٥٨) ، والترمذي (٢٣٢٣) ، وابن ماجه (٤١٠٨) ، كلاهما في الزهد .

(٥) في الرقاق (٣١٠/٤) ، ووافقه الذهبي ، وقد رواه أحمد (٢٢٨٩٩) ، والطبراني (٢٩١/٣) ، وقال الهيثمي في المجمع : رواه أحمد والطبراني ورجاله ثقات (٤٣٥/١٠) .

٣٩- وعن كعب بن مالك ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « ما ذئبان جائعان أُرسلا في غنم ، بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه[١] » رواه الترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح . وابن حبان في صحيحه[٢].

٤٠- وعن كعب بن عِيَاض ﷺ قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « إنَّ لكلِّ أمة فتنة ، وفتنة أمتي المال » . رواه الترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح . وابن حبان في صحيحه والحاكم ، وقال : صحيح الإسناد[٣].

٤١- وعن عائشة ﷺ قالت : قال رسول الله ﷺ : « الدنيا دار مَن لا دار له ، ولها يجمع من لا عقل له » . رواه أحمد ، والبيهقي وزاد : « ومال مَن لا مال له » وإسنادهما جيد[٤].

٤٢- وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « ما أخشى عليكم الفقر ، ولكن أخشى عليكم التكاثر ، وما أخشى عليكم الخطأ ، ولكن أخشى عليكم التعمُّد » رواه أحمد ، ورواته مُحتجٌّ بهم في الصحيح ، وابن حبان في صحيحه ، والحاكم ، وقال : صحيح على شرط مسلم[٥].

٤٣- وعن عبد الرحمن بن عوف ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « قال الشيطان لعنه الله : لن يسلم مني صاحب المال من إحدى ثلاث أغدو عليه بهن وأروح :

---

(١) يقصد بالشرف : الجاه والعلو والظهور . ولهذا قيل : حب الظهور كم قصم الظهور! فإذا اجتمع إلى حب الجاه حب المال والحرص عليه كان الفساد العريض لدين المرء المسلم كما قال الحديث الشريف ، وقد أفرده الحافظ ابن رجب الحنبلي بالشرح فأجاد .

(٢) رواه الترمذي في الزهد (٢٣٧٦) ، وابن حبان في الزكاة (٣٢٢٨) ، وقال الأرناؤوط : إسناده صحيح ، وكذا رواه أحمد (١٥٨٢٢) ، والطبراني (٩٦/١٩) .

(٣) رواه الترمذي في الزهد (٢٣٣٦)، وابن حبان في الزكاة (٣٢٢٣)، وقال الأرناؤوط : إسناده قوي ، والحاكم في الرقاق (٣١٨/٤) ، ووافق الذهبي على تصحيحه ، وكذا رواه أحمد (١٧٤٧١) ، وقال مخرجوه : حديث صحيح وإسناده قوي .

(٤) رواه أحمد (٢٤٤١٩) ، والبيهقي في الشعب في الزهد (١٠٦٣٨) ، وقال الهيثمي في المجمع : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير دويد وهو ثقة (٥١٥/١٠) .

(٥) رواه أحمد (٨٠٧٤) ، وابن حبان في الزكاة (٣٢٢٢) ، وقال الأرناؤوط : إسناده حسن ، والحاكم في التفسير (٥٣٤/٢) ، ووافقه الذهبي في تصحيحه ، وقال الهيثمي في المجمع : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح (٣٠٤/٣).

أخذه من غير حِلِّه ، وإنْفاقُه في غير حقِّه ، وأحبِّبه إليه فيمنعه من حقِّه» . رواه الطبراني ، بإسناد حسن[1].

٤٤- وعن ابن مسعود رضي الله عنه : أنه كان يعطي الناس عطاءهم ، فجاءه رجل فأعطاه ألف درهم ثم قال : فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « إنما أهلك مَن كان قبلكم الدينار والدرهم ، وهما مهلكاكم» رواه البزار ، بإسناد جيد[2].

٤٥- وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : جلس رسول الله ﷺ على المنبر وجلسنا حوله فقال : « إنَّ مما أخاف عليكم ما يفتح الله عليكم من زهرة الدنيا وزينتها » . رواه البخاري ، ومسلم في حديث[3].

٤٦- وعن أبي سنان الدؤلي ، أنه دخل على عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وعنده نفر من المهاجرين الأولين ، فأرسل عمر إلى سَفَط أُتي به من قلعة العراق ، فكان فيه خاتم ، فأخذه بعض بنيه فأدخله في فِيه ، فانتزعه عمر منه ، ثم بكى عمر رضي الله عنه ، فقال له مَن عنده : لِمَ تبكي ، وقد فتح الله عليك ، وأظهرك على عدوك ، وأقرَّ عينك؟ فقال عمر : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول :« لا تفتح الدنيا على أحد إلا ألقى الله عزَّ وجلَّ بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة » . وأنا أشفق من ذلك . رواه أحمد ، بإسناد حسن ، والبزار ، وأبو يعلى[4].

(السَّفط) بسين مهملة وفاء مفتوحتين هو : شيء كالقُفَّة أو كالجُوالِق .

٤٧- وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : بينما النبيُّ ﷺ جالس إذ قام أعرابيٌّ فيه جَفَاء ، فقال : يا رسول الله ، أكلتنا الضَبُع ! فقال النبيُّ ﷺ :« غير ذلك أخوف عليكم ، حين تُصَبُّ عليكم الدنيا صَبًّا ، فيا لَيْتَ أمتي لا تلبس الذهب» . رواه أحمد ، والبزار ، ورواة أحمد رواة الصحيح[5] .

(الضَّبُع) بضاد معجمة مفتوحة وباء موحدة مضمومة هي : السنة المُجْدبة .

---

(١) رواه الطبراني (١/١٣٦) ، وقال الهيثمي في المجمع : رواه الطبراني وإسناده حسن (١٠/٤٢٧) .

(٢) رواه البزار (١٦١٢) ، وقال الهيثمي في المجمع : رواه البزار وإسناده جيد (١٠/٤١١) .

(٣) متفق عليه : رواه البخاري (١٤٦٥) ، ومسلم (١٠٥٢) ، كلاهما في الزكاة .

(٤) رواه أحمد (٩٣) ، وقال الهيثمي في المجمع : رواه أحمد وأبو يعلى في الكبير وفيه ابن لهيعة وفيه كلام (٣/٣٠٥) .

(٥) رواه أحمد (٢١٣٥٣) ، وقال الهيثمي في المجمع : رواه أحمد والبزار والطبراني في الأوسط ورجال أحمد رجال الصحيح (٥/٢٦١) ، ورواه الطبراني في الأوسط (٣٩٦٤) .

٤٨- وعن أبي ذر ﷺ قال : كنتُ أمشي مع النبي ﷺ ، في حرة بالمدينة ، فاستقبلنا أُحُد فقال : «يا أبا ذر» . قلت : لبيك ، يا رسول الله . قال : «ما يسرُّني أن عندي مثل أُحُد هذا ذهباً تمضي عليه ثالثة وعندي منه دينار ، إلا شيء أرصده لدَيْن ، إلا أن أقول في عباد الله هكذا وهكذا وهكذا» . عن يمينه ، وعن شماله ، وعن خلفه . ثم سار فقال : «إنَّ الأكثرين هم الأقلُّون يوم القيامة ، إلا مَن قال هكذا وهكذا وهكذا ـ عن يمينه ، وعن شماله ، ومن خلفه ـ وقليل ما هم». ثم قال لي : «مكانك لا تبرح حتى آتيك». الحديث رواه البخاري واللفظ له ، ومسلم[١] .

وفي لفظ لمسلم قال : انتهيتُ إلى النبي ﷺ وهو جالس في ظلِّ الكعبة ، فلما رآني قال : «هم الأخسرون ، وربِّ الكعبة» . قال : فجئت حتى جلست ، فلم أتَقَارَّ أن قمت ، فقلت : يا رسول الله ، فداك أبي وأمي ، مَن هم ؟ قال : «هم الأكثرون أموالاً ، إلا مَن قال هكذا وهكذا وهكذا ـ من بين يديه ، ومن خلفه ، وعن يمينه ، وعن شماله ـ وقليل ما هم» الحديث .

ورواه ابن ماجه مختصرًا : «الأكثرون هم الأسفلون يوم القيامة ، إلا مَن قال هكذا وهكذا ، وكسبه من طيب»[٢] .

٤٩- وعن عبد الله بن الشِّخِّير ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : «أقلُّوا الدخول على الأغنياء ، فإنه أحرى أن لاَ تُزدروا نِعَم الله عزَّ وجلَّ» . رواه الحاكم ، وقال : صحيح الإسناد[٣] انتهى .

٥٠- عن عَمْرو بن عوف ، وكان شهد بدرًا مع النبيِّ ﷺ ، أنَّ رسول الله ﷺ ، بعث أبا عبيدة بن الجراح إلى البحرين يأتي بجزيتها ، وكان الرسول الله ﷺ ، قد صالح أهل البحرين وأمَّر عليهم العلاء بن الحضرمي ، فقدم أبو عبيدة بمال من البحرين ، فسمعتْ الأنصار بقدوم أبي عبيدة فوافوا صلاة الفجر مع النبي ﷺ ، فلما انصرف تَعرَّضوا له ، فتبسَّم رسول الله ﷺ حين رآهم ، ثم قال :

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري في الاستقراض (٢٣٨٨) ، ومسلم في الزكاة (٩٤)

(٢) رواه ابن ماجه الزهد (٤١٣٠) ، وفي الزوائد : إسناده حسن ، وسويد مختلف فيه . يعني سويد ابن سعيد الهروي .

(٣) رواه الحاكم في الرقاق (٣١٢/٤) ، ووافقه الذهبي على تصحيحه .

« أظنُّكم سمعتُم أن أبا عبيدة قدم بشيء » . قالوا : أجل ، يا رسول الله . قال : « فأبشروا وأمِّلوا ما يُسرُّكم ، فوالله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكني أخشى أن تُبْسَطَ عليكم الدنيا كما بُسِطَت على مَنْ كان من قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها ، وتهلككم كما أهلكتهم »[1].

٥١- وقال عمر : دخلتُ على رسول الله ﷺ ، وهو مُضْطَجع على حصير ، فجلستُ فأدنى عليه إزاره وليس عليه غيره ، وإذا الحصير قد أثَّر في جَنْبه ، فنظرتُ ببصري في خزانة رسول الله ﷺ ، فإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع ، ومثلها قرظاً في ناحية الغرفة ، وإذا أَفِيقٌ ـ جلد لم يُدبغ ـ معلَّق . قال : فابتدرت عيناي . قال : « ما يبكيك ، يا ابن الخطاب ؟ » . قلت : يا نبي الله ، وما لي لا أبكي ، وهذا الحصير قد أثر في جنبك ، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى؟ وذاك قيصر وكسرى في الثمار والأنهار ، وأنت رسول الله ﷺ ، وصفوته ، وهذه خزانتك » . فقال : « يا ابن الخطاب ، ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا؟ »[2].

٥٢- وعن ثوبان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يوشك الأمم أن تَدَاعى عليكم كما تداعى الأَكَلَة إلى قَصْعتها » . فقال قائل : ومن قِلَّة نحن يومئذ؟ قال : « بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعنَّ الله من صدور عدوِّكم المهابة منكم ، وليقذفنَّ الله في قلوبكم الوَهْن »[3].

فقال قائل : يا رسول الله ، وما الوَهْن؟ قال : « حب الدنيا وكراهية الموت »[4].

والأحاديث في ذمِّ الدُّنيا وحقارتها عند الله كثيرة جدًّا .

* * *

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري في الجزية (٣١٥٨) ، ومسلم في الزهد (٢٩٦١) ، كما رواه أحمد (١٧٢٣٤) ، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٦٢) ، وابن ماجه في الفتن (٣٩٩٧) .

(٢) رواه مسلم في الطلاق (١٤٧٩) ، وابن ماجه في الزهد (٤١٥٣) .

(٣) الوَهْن بسكون الهاء ـ وتحرَّك : الضعف في العمل أو في الأمر أو في العظم .

(٤) رواه أحمد (٢٢٣٩٧) ، وقال مخرجوه : إسناده حسن ، وقال الهيثمي في المجمع : رواه أحمد والطبراني في الأوسط بنحوه وإسناد أحمد جيد (٥٦٣/٧) ، وأبو داود في الملاحم (٤٢٩٧) ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٩٥٨) ، عن ثوبان .

الفصل الثاني

المراد بالدنيا المذمومة في القرآن والسنة

قبل أن نبيِّن حقيقة الزهد الذي يريده الإسلام ، يلزمنا أن نُحرِّر المراد بـ(الدنيا المذمومة) في القرآن والسنة .

ليس المذموم زمان الدنيا :

فقد قرَّر علماء السلوك : أنَّ ذلك لا يرجع إلى (زمان الدنيا) ، سواء كان زمانها العام من يوم خلقها الله إلى أن تقوم الساعة ، أم زمانها الخاص لكلِّ فرد ، وهو الليل والنهار المتعاقبان إلى يوم القيامة ، وتعاقبهما واختلافهما آية من آيات الله في الكون ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (آل عمران: ١٩٠).

تعاقب الليل والنهار من نعم الله تعالى على الإنسان :

وهما كذلك من نِعَم الله الكبرى على الإنسان ، كما قال تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ (إبراهيم:٣٣).

كما جعلهما الله خِلْفةً لمَن أراد أن يَذَّكَّر أو أراد شكورًا ، كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ (الفرقان:٦٢)، أي : يخلف الليل النهار ، ويخلف النهار الليل ، فمَن فاته عمل بالليل تداركه بالنهار ، ومَن فاته عملٌ بالنهار تداركه بالليل .

وقال عمر بن عبد العزيز : إنَّ الليل والنهار يعملان فيك ، فاعمل فيهما .

وقال بعض السلف : ما من يوم ينشقُّ فجره ، إلا وينادي : يا ابن آدم ، أنا خَلْق جديد ، وعلى عملك شهيد ، فتزوَّد مني ، فإني لا أعود إلى يوم القيامة .

ويُروى عن عيسى عليه السلام ، أنَّه قال : إنَّ هذا الليل والنهار خزانتان ، فانظُروا ما تضعُون فيهما . وكان يقول : اعملوا بالليل لما خلق له ، والنهار لما خلق له[1].

وقال مجاهد : ما من يوم إلا يقول : ابنَ آدم ، قد دخلتُ عليك اليوم ، ولن أرجعَ إليك بعدَ اليوم ، فانظر ماذا تعمل فيَّ . فإذا انقضى ، طُوي ، ثم يُختَمُ عليه ، فلا يُفَكُّ ، حتى يكون الله هو الذي يفضُّه يومَ القيامة ، ولا ليلة إلا تقول كذلك[2] ، وقد أنشد بعضُ السلف :

إنَّمـــا الـــدُّنيا إلى الجنَّـــةِ والنَّـــــار طريـــــق
واللَّيـــالي متجـــر الإنســـان والأيَّـــــام سُـــــوق[3]

ليس المذموم مكان الدنيا ولا ما فيها :

وليس الذمُّ راجعًا إلى مكان الدنيا ، الذي هو الأرض التي جعلها الله لبني آدم مِهادًا وسكنًا ، وبساطًا وفراشًا ، ومُستقرًّا ومتاعًا إلى حين ، كما قال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۝١٩ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾ (نوح:١٩،٢٠) ، ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ (النبأ:٦،٧) ، ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (البقرة:٣٦) ، ولا إلى ما أودعه الله فيها من الجبال والبحار والأنهار والمعادن ، ولا إلى ما أنبته فيها من الشَّجر والزرع ، ولا إلى ما بثَّ فيها من كلِّ دابة في البر ، أو طائر يطير بجناحيه في الجو ، أو أحياء وحلية في البحر ، أو غير ذلك ، فإنَّ ذلك كلَّه من نعمة الله على عباده ، بما لهم فيه من المنافع ، ولهم به من الاعتبار والاستدلال على وحدانيَّة صانعه وقُدرته وعَظَمَتِه ، كما قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ۝٣٢ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۝٣٣

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في الليالي والأيام (٢٣) ، والبيهقي في الزهد الكبير صـ٢٩٥ .
(٢) المصدر السابق (١٠) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (١٠٢)، والبيهقي في الزهد الكبير صـ(٢٩٨)، عن عامر بن عباس الهمداني .

وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ (إبراهيم:٣٢-٣٤) . فهذه كلُّها عناصر من الدنيا ، ونِعَمٌ منَّ الله بها على خلقه ، وسَخَّرها لمنفعتهم ، فكيف يذمُّها وهو يَمُنُّ بها عليهم؟!

وفي سورة النحل كثير من هذه الأشياء ـ وهي جزء من الدنيا ـ أحسن الله بها إلى عباده ، ولذلك سمَّاها بعض الصحابة : سورة النِعَم ، مثل الأنعام ، والنباتات ، والشمس والقمر والنجوم ، والبحر ، واللبن والعسل ، والأزواج والبنين والحَفَدة ، وغيرها من نعم الله .

وإنما الذمُّ راجع إلى أفعال بني آدم الواقعة في الدنيا ؛ لأن غالبها واقع على غير الوجه الذي تُحمد عاقبته ، بل يقع على ما تضرُّ عاقبته ، أو لا تنفع ، كما قال عزَّ وجلَّ : ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ﴾ (الحديد:٢٠).

ليس من الدنيا المذمومة :

ومن المهم أن يعلم المسلم : (أن الدنيا) وإن اعتُبرت متاعًا قليلاً وزائلاً ، ومتاعَ الغرور ، فإنها دار لها أهمية عظمى باعتبارها (مزرعة الآخرة) ، فهي الفرصة الوحيدة للإنسان ، ليصنع فيها مصيره ، ويُحقِّق فيها أمله الكبير في الخلود والسعادة الأبدية . لهذا كان عمر الإنسان في الدنيا في غاية النفاسة والغلاء ، لأنه ليس له إلا عمر واحد ، هو هذه الأيام التي يقضيها من المهد إلى اللحد .

تمييز أهل البصيرة بين ما يذمُّ من الدنيا وما يُمدح فيها :

وهذه ناحية مهمَّة قد يغفل عنها الكثيرون ، ولا يُقدِّرونها حقَّ قدرها . ولكن أهل المعرفة والبصيرة لا تخفى عليهم هذه الحقيقة النيِّرة . ولهذا ميَّزوا بوضوح بين ما يُذَمُّ من الدنيا وما يُمدح فيها ، وبين ما يُحبُّ فيها وما يُكره .

قال الحسن : ليس من حُبِّك للدنيا طلبك ما يُصلحك فيها ، ومن زهدك فيها : ترك الحاجة يسدُّها عنك تركها ، ومن أحبَّ الدنيا وسَرَّته ، ذهبَ خوفُ الآخرة من قلبه[1].

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (١٦٢) .

وقال سعيد بن جُبير : متاع الغرور ما يُلهيك عن طلب الآخرة ، وما لم يُلهِك فليس بمتاع الغرور ، ولكنه متاع بلاغ إلى ما هو خير منه[1].

وقال يحيى بن معاذ الرازي : كيف لا أحِبُّ دنيا قُدِّر لي فيها قوت ، أكتسب بها حياة ، أُدركُ بها طاعة ، أنال بها الآخرة .

وسُئل أبو صفوان الرّعيني ، وكان من العارفين : ما هي الدنيا التي ذمَّها الله في القرآن ، التي ينبغي للعاقل أنْ يجتنبها ؟ فقال : كلُّ ما أصبتَ في الدنيا تريد به الدنيا ، فهو مذموم ، وكلُّ ما أَصبتَ فيها تريد به الآخرة ، فليس منها[2].

وقال الحسن : نِعْمت الدار كانت الدنيا للمؤمن ، وذلك أنه عمل فيها قليلاً ، وأخذ زاده منها إلى الجنَّة ، وبئست الدار كانت للكافر والمنافق ، وذلك أنه ضيَّع لياليه ، وكان زاده منها إلى النار[3].

وقال أَيْفَع بن عبد الكَلاعي : قال رسول الله ﷺ : « إذا دخل أهل الجنَّة الجنَّة وأهل النار النار ، قال الله : يا أهلَ الجنَّة ، كم لبثتم في الأرض عَدَد سنين ؟ قالوا : لبثنا يومًا أو بعض يوم . قال : نعم ما اتَّجرتم في يوم أو بعض يوم ، رحمتي ورضواني وجنَّتي ، امكثوا فيها خالدين مخلَّدين . ثم يقول لأهل النار : كم لبثتم في الأرض عدد سنين؟ قالوا : لبثنا يومًا أو بعض يوم . فيقول : بئس ما اتَّجرتم في يوم أو بعض يومٍ ، سخطي ومعصيتي وناري ، امكثوا فيها خالدين مُخلَّدينَ »[4].

---

(١) رواه نُعيم بن حماد في زوائده على الزهد لابن المبارك (١٤٠) .

(٢) رواه ابن الأعرابي في الزهد (٣٥) ، وأبو نُعيم في الحلية (٥/١٠) ، والبيهقي في الزهد الكبير صـ١٨٧ .

(٣) رواه الإمام أحمد في الزهد صـ٢٨٤ .

(٤) رواه ابن أبي حاتم في التفسير (١٤٠٦٠) ، وأبو نعيم في الحلية (١٣٢/٥) ، وقال الحافظ في الإصابة (٢٦٢/١) : رجال إسناده ثقات إلا أنه مرسل أو معضل لا يصح لأيفع سماع من صحابي .

وروي عن النبيِّ ﷺ قال : «نعمت الدار الدنيا لمَن تزوَّد منها لآخرته حتَّى يرضي ربَّه ، وبئست الدار لمَن صدَّته عن آخرته ، وقصَّرت به عن رضا ربِّه . وإذا قال العبد : قبَّح الله الدنيا ، قالت الدنيا : قبَّح الله أعصانا لربِّه»[1].

من كلام علي رضي الله عنه في وصف الدنيا :

وقول عليٍّ ، خرَّجه ابن أبي الدنيا عنه ، بإسناد فيه نظر : أنَّ عليًّا سمع رجلاً يسبُّ الدنيا ، فقال : إنها لدارُ صدق لمَن صدقها ، ودار عافية لمَن فَهم عنها ، ودار غنًى لمَن تزوَّد منها ، مسجد أحبَّاءِ الله ، ومهبِط وحيه ، ومُصلّى ملائكته ، ومَتْجرُ أوليائه ، اكتسبوا فيها الرَّحمةَ وربحُوا فيها الجنَّة ، فمَن ذا يذمُّ الدنيا وقد آذنت بفراقها ، ونادت بعيبها ، ونعت نفسها وأهلها ، فمثَّلت ببلائها البلاء ، وشوَّقت بسرورها إلى السرور ، فذمَّها قوم عند الندامة ، وحمِدها آخرون ، حدَّثتهم فصدَّقوا ، وذكَّرتهم فذكروا ؟ فيا أيُّها المُغْترُّ بالدنيا ، المُغْترُّ بغرورها ، متى استلامت إليك الدنيا ؟ بل متى غرَّتك ؟ أبمضاجعِ آبائك من الثَّرى ؟ أم بمصارع أمَّهاتك من البلى ؟ كم قد قلَّبتَ بكفَّيك ، ومرَّضت بيديك تطلب له الشِّفاءَ ، وتسأل له الأطباء ، فلم تظفر بحاجتك ، ولم تُسعَفْ بطلبتك ، قد مثَّلت لك الدُّنيا بمصرعه مصرعك غدًا ، ولا يُغني عنك بكاؤك ، ولا ينفعك أحبَّاؤك[2].

فبيَّن أمير المؤمنين رضي الله عنه : أنَّ الدنيا لا تُذَمُّ مطلقا ، وأنها تُحمد بالنسبة إلى مَن تزوَّد منها الأعمال الصالحة ، وأن فيها مساجد الأنبياءِ ، ومهبط الوحي ، وهي دار التجارة للمؤمنين ، اكتسبوا فيها الرحمة ، وربحوا بها الجنَّة ، فهي نِعْم الدار لمَن كانت هذه صفته . وأمَّا ما ذكر من أنها تَغُرُّ وتخدع ، فإنها تنادي بمواعظها ، وتنصح بعِبَرها ، وتُبدي عيوبها بما تُري أهلها من مَصَارع الهلكى ، وتقلُّب الأحوال

---

(١) رواه الحاكم في الرقائق (٣١٢/٤) ، وصحَّحه ، وقال الذهبي : منكر ، وابن عدي في الكامل (٢٤٨/٣) ، والعقيلي في الضعفاء (٨٩/٣) ، وقال : عبد الجبار بن وهب مجهول وحديثه غير محفوظ ، وهذا الكلام يُروى عن عليٍّ من قوله ، عن طارق بن أشيم .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (١٤٧) ، والدينوري في المجالسة (١٢١١) .

من الصحَّة إلى السَّقَم ، ومن الشبيبة إلى الهَرَم ، ومن الغنى إلى الفقر ، ومن العزِّ إلى الذلِّ ، لكن محبَّها قد أصمَّه وأعماه حبُّها ، فهو لا يسمع نداءها ، كما قيل :

قد نادت الدنيا على نفسها ... لو كان في العالم مَن يسمعُ

كم واثق بالعمر أفْنَيتُه ... وجامع بدَّدتُ ما يجمعُ[1]

* * *

(١) انظر : جامع العلوم والحكم (٢/١٨٧– ١٩٥) .

obeikandl.com

الفصل الثالث

ما ينكره الإسلام من الدنيا

حبُّ الدنيا والحرص عليها :

ينكر الإسلام على المسلم أن يحبَّ الإنسانُ الدنيا حبًّا جمًّا ، بحيث يجعلها أكبر همِّه ، ومَبْلَغ علمه ، ومَنَاط آماله ، ومحور أحلامه ، عليها وحدها يحرص ، ولها وحدها يسعى ، وفيها وحدها يرغب ، ومن أجلها يصادق ويخاصم ، ويسالم ويحارب .

روى الحاكم ، عن حذيفة رضي الله عنه ، عن النبيِّ ﷺ قال : « مَن أصبح والدنيا أكبر همِّه ، فليس من الله في شيء »[1] .

وهذا فضلاً عمَّا فيه من ضياع الآخرة ، فهو كارثة على صاحبه في الدنيا ، فيه قلق لنفسه ، وتعب لقلبه ، وبَلْبلة لخاطره ، وتقليلٌ لأحبابه ، وتكثير لأعدائه ، وفقدان لسكينة نفسه .

تقديم الدين على الدنيا عند تعارضهما :

ينكر الإسلام على المسلم أن يتشبَّث بالحياة تشبُّثًا يهون بإزائه واجب الدين والتضحية في سبيله بكلُّ شيء حتى الحياة ، وهنا يبدو الزهد الحقُّ ، وتبدو القوَّة الحقيقيَّة ، حين تتعارض الدنيا والدين ، وحياة الفرد وحياة الرسالة والأمة .

فأما أبناء الدنيا فيتعلَّقون بأهداب الحياة ، ويعضُّون عليها بالنواجذ : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ

---

١١) رواه الحاكم في الرقاق (٣١٧) ، وسكت عنه ، وقال الذهبي : إسحاق ـ وهو ابن بشر أحد رواة الحديث ـ عدم ، وأحسب الخبر موضوعا .

كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾ (النساء:٧٧) ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْآخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ (التوبة:٣٨) .

كما ذمَّ القرآن أقواما باعوا دينهم بدنياهم ، وآثروا الحياة الدنيا على الآخرة ، فما أغنت عنهم من الله شيئًا ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلاً ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (البقرة:١٧٤) .

الزهد الحقيقي والقوة الحقيقية حين يستهين المرء بحياته في سبيل ما يؤمن به ، وهذا ما كان يتَّصف به الصحابة ، حتى كان أحدهم يلاقي الأعداء ، وهم أكثر عددًا ، وأقوى عدَّة ، ولا يبالي أوقع على الموت ، أم وقع الموتُ عليه .

حقيقة الضعف في الأمة ومنابعه :

وقد كشف لنا رسول الله ﷺ ، عن حقيقة الضعف في الأمة ومنابعه البعيدة ، فلم يكن من قلَّة العَدد ، ولا ضآلة العُدَّة ، إنما هو شيءٌ آخر ذكره عليه السلام : « حب الدنيا وكراهية الموت »[1].

تقويم الناس على أساس الدنيا :

ينكر الإسلام أن تكون الدنيا هي أساس تقويم الناس ، ومعيار التفاضل بينهم ، فبمقدار ما يملكون من متاعها ، تثقل في الميزان كفَّتهم ، وترفع في الأسواق قيمتهم ، وتنحني الناس رَغْبةً ورهبةً لهم .

إنما يريد الإسلام أن يكون تقدير الناس بالعلم النافع ، والإيمان الصادق ، والخُلق الفاضل ، والعمل الصالح : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الزمر:٩)، ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ

---

(١) سبق تخريجه صـ ٧٨ .

﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (المجادلة:١١) ، ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ (الحجرات:١٣) ، « لا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوى »[١].

قلب الموازين واختلال القيم :

ولكن الناس إذا تعلَّقوا بالدنيا قلبوا هذه الموازين ، كما نرى في قصَّة قارون : ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ (القصص:٧٩).

وكما نرى في قوله تعالى : ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ (التوبة:٥٥).

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ (طه:١٣١).

﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ (آل عمران:١٩٦،١٩٧).

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴾ (الكهف:٣٢).

وكما نرى في الحديث الصحيح : « هذا خيرٌ من ملء الأرض مثل هذا »[٢].

هذا هو ميزان الرجال عند محمد رسول الله ﷺ ، ميزان مَن يقيس الناس بما في قلوبهم من معاني الحياة العُليا ، لا بما على أبدانهم من مظاهر الحياة الدنيا ، « رُبَّ أشعث أغبر ذي طمرين لا يُؤْبه له ، لو أقسم على الله لأبرَّه »[٣].

بين عبادة الدنيا وعبادة الله :

ويكشف لنا الرسول الكريم عن صنفين من الناس ، أولهما : عبد الدنيا ، وعبد المظهر . والثاني : عبد الله وحده ، يعمل حيث وضع جنديًّا مجهولاً أو معلومًا .

---

(١) رواه أحمد (٢٣٤٨٩) ، وقال مخرجوه : إسناده صحيح ، وقال الهيثمي في المجمع : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح (٥٨٦/٣) ، عمَّن سمع خطبة النبي ﷺ .

(٢) سبق تخريجه صـ ٦٩ .

(٣) سبق تخريجه صـ ٧٠ .

« تعس عبد الدينار ، وعبد الدرهم ، وعبد الخميصة ، تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش ، طوبى لعبد آخذ بعِنان فرسه في سبيل الله ، أشعث رأسه ، مُغبَّرة قدماه ، إن كان في الحراسة كان في الحراسة ، وإن كان في الساقة كان في الساقة ، إن استأذن لم يؤذن له ، وإن شفع لم يشفع »[1].

اتِّخاذ أعمال الآخرة وسيلة لكسب الدنيا :

وينكر الإسلام على المسلم أن يتَّخذ أعمال الآخرة ، من علم ديني ، أو هجرة دينية ، أو جهاد ديني : وسيلة لكسب الدنيا من مال أو منصب أو منزلة في قلوب الناس ، وذلك لما فيه من قلب الحقائق ، وعكس الأوضاع ، فإن الله جعل الدنيا وسيلة للآخرة ، فكيف نجعل الغاية وسيلة ، والوسيلة غاية؟!

« إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكلِّ امرئ ما نوى »[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « إنَّ أول الناس يُقضى عليه يوم القيامة رجل استشهد ، فأُتي به ، فعرَّفه نعمته فعرَفها . قال : فما عملتَ فيها؟ قال : قاتلتُ فيك حتى استشهدتُ . قال : كذبتَ ، ولكن قاتلتَ لأن يقال : هو جريء ؛ فقد قيل . ثم أُمر به فَسُحب على وجهه ، حتى أُلقي في النار ... »[3].

عن كعب بن مالك قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « مَن طلب العلم ليجاريَ به العلماء ، أو ليماريَ به السفهاء ، أو يصرف به وجوه الناس إليه ، أدخله الله النار »[4].

* * *

---

(١) سيأتي تخريجه صـ ١٠٠ .

(٢) سيأتي تخريجه صـ ١٠٦ .

(٣) رواه مسلم في الإمارة (١٩٠٥) ، وأحمد (٨٢٧٧) ، والنسائي في الجهاد (٣١٣٧) ، عن أبي هريرة .

(٤) رواه الترمذي في العلم (٢٦٥٤) ، وقال : حديث غريب ، إسحاق بن يحيى بن طلحة ليس بذاك القوي عندهم تكلَّم فيه من قبل حفظه ، والطبراني في المعجم (١٩/١٠٠) ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (٦٣٨٣) ، عن كعب بن مالك .

الفصل الرابع

تعريف الزهد عند علماء السلوك

عناية علماء السلوك بالزهد :

عُني علماء السلوك والتربية الإيمانية (بالزهد) وحقيقته وآثاره ، أكثر مما عنوا بغيره ، وذلك باعتباره منزلة من منازل السائرين ، ومحطَّة مهمَّة في الطريق إلى الله . كما نظروا إليه من وجْهة نظر أخرى ، وهو أنَّهم يعتبرونه أحيانًا عنوانًا على طريقهم الذي ارتضَوه ، واتخذوه سبيلاً للوصول إلى مرضاة الله ، وكأنهم حين يتحدَّثون عن الزهد ، يتحدَّثون عن (التقوى) ، أو (الصلاح) ، أو (الاستقامة) ، ونحو ذلك .

ومن أجل هذا أُلِّفت فيه الكتب من السلف رضوان الله عليهم ، بهذا الاسم (الزهد) ، مثل الزهد للإمام ابن المبارك ، والإمام أحمد ، وغيرهما مما سبق ذكره .

الاختلاف في تعريف الزهد وتحديد مفهومه :

وقد اختلفوا كثيرًا في تعريف (الزهد) وتحديد مفهومه تحديدًا دقيقًا ، أو كما يقول علماء المنطق : جامعًا مانعًا . ومعظم هذا الاختلاف مما يُسمِّيه العلماء : اختلاف تنوُّع ، وليس اختلافَ تضادّ أو تناقض .

فكلُّ واحد منهم يلتفت إلى معنى مهم في الزهد ، فيركز عليه ما لا يركز عليه غيره من المُربِّين والمُرشدين ، وهذا طبيعي بين البشر .

وأحيانًا يعبِّر أحدهم عن حالته في وقته ، وما يشعر هو به أو يعيشه ، أي يُعبِّر عن تجربته الروحية الخاصة .

وقد تعدَّدت عبارات علماء السلوك في تعريف (الزهد) واختلفت اختلافًا كثيرًا ، قد يقف أمامه بعض الباحثين مُتحيِّرًا ، والحقيقة أنهم لم يكونوا يقصدون أن يُعرِّفوه تعريفًا منطقيًّا جامعًا مانعًا ، بل كلٌّ منهم يعبِّر عن تجربته الخاصَّة كما قلنا ، فقد يُعبِّر عن حقيقته ، وقد يُعبِّر عن باعثه ، وقد يُعبِّر عن أثره ، وقد يُعبِّر عن علاقته .

وسنذكر هنا بعض هذه التعريفات ، التي يُؤخذ من مجموعها : ما الزهد الذي يريده القوم ويتحدَّثون عنه ، ويدعون إليه . وكثيرًا ما يعبِّر كلٌّ منهم عن عنصر من عناصر الزهد ، تتكوَّن من مجموعها الحقيقة الإيمانية المنشودة .

الزهد في الدنيا بثلاثة أشياء من أعمال القلوب :

من هذه التعريفات : ما قاله يونس بن ميسرة ، أو أبو مسلم الخولاني : (ليس الزهادة في الدنيا بتحريم الحلال ، ولا بإضاعة المال ، ولكن الزهادة في الدنيا : أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك ، وأن يكون حالك في المصيبة وحالك إذا لم تصب بها سواء ، وأن يكون ذامُّك ومادحك في الحقِّ سواء)[1] . (وقد روي هذا المعنى مرفوعًا ولا يصح).

وهذا تعريف مهم ؛ لأنه ينفي الوهم الذي يتصوَّر أنَّ الزهد هو التَّجرُّد من الدنيا تمامًا ، أو ترك المال الذي جعله الله للناس قيامًا ، والذي قال فيه الرسول الكريم : «نِعم المال الصالح للمرء الصالح»[2] . كما ينفي توهُّم أنه ترك الطيبات من الرزق ، كما في الرهبانية التي تُحرِّم الزواج وأكل الطيبات والتجمُّل بالثياب ، وغيرها .

شرح الحافظ ابن رجب لمعنى الأثر :

وقد قال العلاَّمة ابن رجب في شرح هذا الأثر : (ففسَّر الزهد في الدُّنيا بثلاثة أشياء كلُّها من أعمال القلوب ، لا من أعمال الجوارح ، ولهذا كان أبو سليمان يقول : لا تَشْهَدْ لأحدٍ بالزُّهد ، فإنَّ الزُّهد في القلب .

الثقة بما عند الله :

أحدها : أنْ يكونَ العبدُ بما في يد الله أوثقَ منه بما في يد نفسه ، وهذا ينشأ مِنْ صحَّة اليقين وقوَّته ، فإنَّ الله ضَمِن أرزاقَ عباده ، وتكفَّل بها ، كما قال :

---

(١) رواه ابن الأعرابي في الزهد (٦) ، والبيهقي في الشعب باب الزهد (١٠٧٧٤) ، عن يونس ابن ميسرة ، وأحمد في الزهد صـ١٨ ، عن أبي مسلم الخولاني .

(٢) رواه أحمد (١٧٧٦٣) ، وقال مخرِّجوه : إسناده صحيح على شرط مسلم ، وابن حبان في الزكاة (٣٢١٠) ، وقال الأرناؤوط : إسناده قوي على شرط مسلم ، والبخاري في الأدب المفرد كتاب حسن الخلق (٢٩٩) ، والبيهقي في الشعب باب التوكل بالله (١٢٤٨) ، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٣٧٥٦) ، عن عمرو بن العاص .

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ (هود:٦) ، وقال : ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾(الذاريات:٢٢)، وقال :﴿ فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ ﴾ (العنكبوت:١٧).

قال الحسن : إنَّ مِنْ ضعف يقينك أن تكونَ بما في يدك أوثقَ منك بما في يد الله عزَّ وجلّ[١].

ورُوي عن ابن مسعود قال : إنَّ أرجى ما أكون للرزق إذا قالوا : ليس في البيت دقيق .

وقال مسروقٌ : إنَّ أحسن ما أكون ظنًّا حين يقول الخادم : ليس في البيت قفيزٌ من قمحٍ ، ولا درهمٌ[٢].

وقال الإمامُ أحمد : أسرُّ أيامي إليَّ يوم أُصْبِحُ وليس عندي شيء[٣].

وقيل لأبي حازم الزاهد : ما مالُك؟ قال : لي مالان لا أخشى معهما الفقر : الثِّقةُ بالله ، واليأسُ ممَّا في أيدي الناس[٤].

وقيل له : أما تخافُ الفقر؟ فقال : أنا أخاف الفقر ، ومولاي له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى[٥]؟!

وقال الفُضَيْلُ بن عياض : أصلُ الزُّهد الرِّضا عَنِ الله عزَّ وجلَّ[٦]. وقال : القنوع هو الزهد ، وهو الغنى[٧].

فمَن حقَّق اليقين ، وثق بالله في أموره كلِّها ، ورضي بتدبيره له ، وانقطع عن التعلُّق بالمخلوقين رجاءً وخوفًا ، ومنعه ذلك مِنْ طلب الدُّنيا بالأسباب المكروهة ،

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في اليقين (٣٤) .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في الزهد (٣٦٠١٨) ، والزهد لهناد (٥٩٢) ، وحلية الأولياء (١٦٢/١) .

(٣) انظر صفة الصفوة (٣٤٥/٢) .

(٤) رواه الدينوري في المجالسة (٩٦٣) ، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٥٦/٢٢) .

(٥) رواه الدينوري في المجالسة (٢٧٤٣) ، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٩/٢٢) ، بنحوه .

(٦) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٩٩/٤٨) .

(٧) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (٢٩١) .

ومَن كان كذلك ، كان زاهدًا في الدُّنيا حقيقة ، وكان من أغنى الناس ، وإنْ لم يكن له شيء من الدُّنيا كما قال عمَّار : كفى بالموت واعظًا ، وكفى باليقين غنى ، وكفى بالعبادة شغلاً[1].

وقال ابن مسعود : اليقينُ : أنْ لا تُرضي النَّاسَ بسَخَطِ اللهِ ، ولا تحمد أحدًا على رزق الله ، ولا تَلُمْ أحدًا على ما لم يُؤْتِكَ الله ، فإنَّ الرِّزقَ لا يسوقُه حرصُ حريصٍ ، ولا يردُّه كراهة كارهٍ ، فإنَّ الله تبارك وتعالى ، بقسطه وعلمه وحكمه ، جعل الرَّوحَ والفرحَ في اليقين والرضا ، وجعل الهمَّ والحزن في الشكِّ والسخط[2].

الرغبة في ثواب الله :

والثاني : أنْ يكونَ العبدُ إذا أُصيبَ بمصيبةٍ في دُنياه مِنْ ذهابِ مال ، أو ولدٍ ، أو غير ذلك ، أرغبَ في ثواب ذلك ممَّا ذهبَ منه مِنَ الدُّنيا أنْ يبقيَ له ، وهذا أيضًا ينشأُ مِنْ كمالِ اليقين .

وقد روي عن ابن عمر : أنَّ النَّبيَّ ﷺ ، كان يقول في دعائه : «اللهُمَّ اقسم لنا مِنْ خشيتك ما تحولُ به بيننا وبين معاصِيكَ ، ومِنْ طاعتك ما تبلِّغُنا به جنَّتك ، ومِنَ اليقين ما تهوِّنُ به علينا مصائبَ الدُّنيا»[3]. وهو من علامات الزُّهد في الدُّنيا ، وقلَّةِ الرَّغبة فيها ، كما قال عليٌّ رضي الله عنه : مَن زهد في الدُّنيا ، هانت عليه المصيباتُ[4].

استواء الحمد والذمِّ في الحق :

والثالث : أنْ يستوي عندَ العبد حامدُه وذامُّه في الحقِّ ، وهذا من علامات الزُّهد في الدُّنيا ، واحتقارها ، وقلَّةِ الرَّغبة فيها ، فإنَّ مَن عظُمتِ الدُّنيا عنده أحبَّ

---

(١) رواه الإمام أحمد في الزهد صـ١٧٦ ، وابن أبي الدنيا في اليقين (٣١) ، وصحح إسناده الألباني في الضعيفة (٥٠٢) .

(٢) رواه هناد في الزهد (٥٣٥) ، وابن أبي الدنيا في اليقين (٣٢) ، وابن عساكر في تاريخ دمشق (١٧٥/٣٣).

(٣) جزء من حديث رواه الترمذي في الدعوات (٣٥٠٢) ، وقال : حسن غريب ، والنسائي في الكبري كتاب عمل اليوم الليلة (١٠١٦٢) ، والحاكم في الدعاء (٥٢٨/١) ، وصححه ، ووافقه الذهبي ، وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح (٢٤٩٢) ، في التحقيق الثاني .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (٢٠٤) ، والبيهقي في الشعب باب الزهد (١٠٦٢٣) .

المدحَ وكرِهَ الذَّمَّ ، فربما حمله ذلك على تركِ كثيرٍ مِنَ الحقِّ خشيةَ الذمِّ ، وعلى فعلِ كثيرٍ مِنَ الباطلِ رجاءَ المدح ، فمَن استوى عنده حامدُه وذامُّه في الحقِّ ، دلَّ على سُقوط منزلة المخلوقين من قلبه ، وامتلائه مِنْ محبَّة الحقِّ ، وما فيه رضا مولاه ، كما قال ابن مسعود : اليقين أنْ لا تُرضي النَّاسَ بسخط الله . وقد مدح الله الذين يُجاهدون في سبيل الله ، ولا يخافون لومة لائم)[1].

لا فرح بالموجود ولا أسى على المفقود :

قال الإمام ابن المبارك في تعريف الزاهد : هو الذي إن أصاب الدنيا لم يفرح ، وإن فاتته لم يحزن[2].

وقال وهيب المكِّي : الزهد في الدنيا ألاَّ تأسى على ما فاتك منها ، ولا تفرح بما أتاك منها[3]. وإليه يشير قوله تعالى : ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ (الحديد:٢٣).

قِصَرُ الأمل في الحياة :

وقال سفيان الثوري : الزهد في الدنيا : قصر الأمل ، ليس بأكل الغليظ ، ولا بلبس العباء[4]. (يعني الخشن).

وقال : كان من دعائهم : اللهم زهِّدنا في الدنيا ، ووسِّع علينا منها ، ولا تَزْوِها عنا ، فترغِّبنا فيها[5].

---

(١) يشير إلى قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (المائدة:٥٤) . انظر : جامع العلوم الحكم لابن رجب بتحقيق شعيب الأرناؤوط (١٨٠/٢ – ١٨٣) ، طبعة الرسالة ، بيروت .

(٢) كما في ترجمته في ترتيب المدارك للقاضي عياض (٤٠/٣)

(٣) رواه ابن الأعرابي في (٧)، وأبو نعيم في الحلية (١٤٠/٨) .

(٤) رواه وكيع في الزهد (٤)، وابن أبي الدنيا في قصر الأمل (٣٢)، وابن الأعرابي في الزهد (٨).

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (١٧٢) .

وجاء ذلك عن أحمد بن حنبل : الزهد في الدنيا قصر الأمل[١].

وقال مرَّة : قصر الأمل ، واليأس مما في أيدي الناس[٢] [٣].

التواضع للخَلْق :

وذُكر عند الحسن البصري الزهد ، فقال بعضهم : اللباس . (أي الزهد في الناعم والنفيس منه) . وقال بعضهم : المطعم ، وقال بعضهم : كذا . فقال الحسن : لستم في شيء ، الزاهد الذي إذا رأى أحدًا ، قال : هذا أفضل مني[٤].

قال أبو سعيد بن الأعرابي : هذا داخل في باب التواضع ، وإسقاط الجاه . وقال ابن رجب : هذا يرجع إلى أن الزاهد حقيقة هو الزاهد في مدح نفسه وتعظيمها . ولهذا يقال : الزهد في الرياسة أشدُّ منه في الذهب والفضة ، فمَن أخرج من قلبه حبَّ الدنيا ، والترفُّع منها على الناس ، فهو الزاهد حقا[٥].

الصبر على الحرام والشكر على الحلال :

وعن سفيان بن عيينة قال : قالوا للزهري : ما الزهد؟ (لعلها : ما الزاهد؟) قال : مَن لم يغلب الحرام صبره ، ولم يغلب الحلال شكره[٦].

قال ابن الأعرابي : معناه : الصبر على الحرام ، والشكر على الحلال .

الشكر في الرَّخاء والصبر في البلاء :

وعن علي بن المديني قال : قيل لسفيان بن عيينة : ما هو الزهد؟ قال : أن تكون شاكرًا في الرخاء ، صابرًا في البلاء ، فإذا كان كذلك فهو زاهد . قيل لسفيان : ما الشكر؟ قال : أن تجتنب ما نهى الله عنه[٧]. (وكأنه يقول : استخدام النعمة في طاعة لا في معصية ، وثمرة ذلك : اجتناب ما نهى الله عنه).

---

(١) ذكره ابن القيم في مدارج السالكين (٢/١١) .

(٢) طبقات الحنابلة (١/٣٩) .

(٣) جامع العلوم والحكم (٢/١٨٤) .

(٤) ابن الأعرابي في الزهد (٢) ، والبيهقي في الشعب باب حسن الخلق (٨٢٤٩) .

(٥) انظر : جامع العلوم والحكم (٢/١٨٣) ، طبعة الرسالة .

(٦) رواه ابن الأعرابي في الزهد (٤ ، ٥) ، والبيهقي في الشعب باب تعديد نعم الله (٤٥٥٣) .

(٧) رواه ابن الأعرابي في الزهد (١٣) ، والبيهقي في الشعب باب تعديد نعم الله (٤٤٣٨) .

وروى ابن الأعرابي بسنده ، عن أحمد بن أبي الحواري قال : قلتُ لسفيان ابن عيينة : ما الزهد في الدنيا ؟ قال : مَن إذا أُنعم عليه شكر ، وإذا ابتُلي صبر . قلتُ : يا أبا محمد ، قد أُنعم عليه فشكر ، وابتُلي وصبر ، وهو جليس النعمة ، كيف يكون هذا ؟ فضربني بيده وقال : مَن لم تمنعه النعماء من الشكر ، ولا البلوى من الصبر ، فذلك الزاهد[1]!

زهد الفرض والفضل والسلامة :

وقال إبراهيم بن أدهم : الزهد ثلاثة أصناف ، فزهد فرض ، وزهد فضل ، وزهد سلامة . فزهد الفرض : الزهد في الحرام ، وزهد الفضل : الزهد في الحلال ، وزهد السلامة : الزهد في الشبهات[2].

الزهد في الناس وفي النفس :

وعن فضيل بن عياض قال : علامة الزهد في الدنيا : الزهد في الناس .

وقال بشر بن الحارث (الحافي) : حبُّ الدنيا : حب لقاء الناس ، والزهد في الدنيا : الزهد في لقاء الناس .

ومعنى هذا : الزهد في الجاه والشهرة عند الناس ، والعمل في صَمْت .

وقال أبو سليمان الداراني : اختلفوا علينا في الزهد ، فمنهم مَن قال : لقاء الناس . ومنهم مَن قال : ترك الشهوات . قال أبو سليمان : وقولهم قريب ، بعضه من بعض . وعلَّق ابن الأعرابي قائلا : مَن ترك لقاء الناس ، فهو للشهوات أترك .

وقريب منه قول أبي عمار القسملي : الدنيا هي النفس[3]. وعلَّق ابن الأعرابي بقوله : فكأنه يقول : الزهد في الدنيا : الزهد في النفس ، ومعناه : في شهواتها ومحبوبها ، كأنه إذا كان يشغل عن الله .

---

(١) رواه ابن الأعرابي في الزهد (٤) ، وأبو نعيم في الحلية (٢٧٣/٧) .

(٢) رواه ابن الأعرابي في الزهد (١٢) ، وأبو نعيم في الحلية (١٣٧/١٠) .

(٣) أورد هذه الآثار ابن الأعرابي في الزهد (٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣).

الإسلام دينٌ اجتماعيٌّ :

وأحبُّ هنا أن أوضِّح أمرًا قد يلتبس على الكثيرين ، وهو : أن الزهد في الناس ، وفي لقاء الناس ، لا يعني العزله عنهم ، والعيش وحده ، كما يفعل الرهبان في النصرانية . فالإسلام دين اجتماعي ، يربِّي المسلم على أن يحيا في جماعة ، ويعمل في جماعة ، ولهذا شرع صلاة الجماعة ، واعتبرها أفضل من صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة ، وعلَّم المسلم أن يقول في صلاته وإن كان وحده : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (الفاتحة:٥،٦) ، هكذا بصيغة الجمع ، لأنه يستحضر الجماعة دائمًا في ضميره .

ويخاطب القرآن بالأحكام والتكاليف دائماً الجماعة ، فيقول : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (البقرة:١٠٤) ، ولم يقُل : (يأيها المؤمن) ؛ لأن تنفيذ التكاليف مسئولية الجماعة أو الأمة المسلمة كلِّها .

وإنما بعث الله رسله وأنبياءه ليخاطبوا الناس، ويدعوهم إلى صراط الله المستقيم، ويعلِّموهم ما لم يكونوا يعلمون . وكذلك وَرَثة الأنبياء وأتباعهم حتَّم أن يقتدوا بهم ، ويخالطوا الناس ، ليعلِّموا جاهلهم ، وينبِّهوا غافلهم ، ويردُّوا شاردهم ، وسيصيبهم ـ لا محالة ـ ما يصيبهم من الأذى ، ولكن هذه طبيعة مهمَّتهم . ولهم في ذلك أجرهم عند الله . وفي الحديث الصحيح : «المؤمن الذي يخالط الناس ، ويصبر على أذاهم ، خير من الذي لا يخالط الناس ، ولا يصبر على أذاهم»[1].

العمل لنُصْرة الإسلام :

ومن المعلوم الآن : أنَّ العمل لنصرة الإسلام ، ونشر دعوته ، وإعلاء كلمته ، وتحكيم شريعته ، وإحياء أمَّته ، ومقاومة أعدائه ، والذود عن كيانه ، وتصحيح الفَهم له ، وتجديد الإيمان به ، والوقوف في وجه التيارات الهدَّامة ، التي تريد أن

---

(١) رواه أحمد (٥٠٢٢) ، وقال مخرجوه : إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين ، والترمذي في صفة القيامة (٢٥٠٧) ، وابن ماجه في الفتن (٤٠٣٢) ، والبيهقي في آداب القاضي (١٩٩٦١) ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٩٣٩) ، عن ابن عمر .

تقتلع جذوره ، أو على الأقل تهدِّد وجوده ، وتشوِّه وجهه . هذا العمل لا يمكن أن يؤتي أُكله ، ويحقِّق أهدافه إلا إذا كان عملاً جماعيًّا ، يقوم على أساس من قوله تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾ (المائدة:٢)، وقوله : ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾(آل عمران:١٠٣)، وقوله: ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ (العصر:٣)، وقوله ﷺ : « يد الله مع الجماعة »[١]، « المؤمن للمؤمن كالبنيان ، يشدُّ بعضه بعضا »[٢]، وقوله : « الشيطان مع الواحد ، وهو من الاثنين أبعد »[٣]، « فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية »[٤]، « المؤمن مرآة أخيه »[٥]، بالإضافة إلى أحاديث الحُبِّ في الله ، والتزاور في الله ، والتجالس في الله ، وبعضها في الصحيح ومن المتَّفق عليه .

المقصود بالزهد في الناس :

فالمقصود إذن بالزهد في الناس : الزهد في الجاه ، والشهرة والثناء والمدح منهم . وهذه منزلة أهم من الزهد في المال ، وأشدُّ على النفس منها . ولهذا قال السِّرِّي السَّقطي وهو مَن هو : مارست كلَّ شيء من أمر الزهد فنلت منه ما أريد ، إلا الزهد في الناس ، فإني لم أبلغه ، ولم أُطِقه[٦].

---

(١) رواه الترمذي في الفتن (٢١٦٦) ، وقال : غريب ، وصحَّحه الألباني ، عن ابن عباس .

(٢) متفق عليه : رواه البخاري في المظالم (٢٤٤٦) ، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٥) ، كما رواه أحمد (١٩٦٢٥) ، والترمذي في البر والصلة (١٩٢٨) ، والنسائي في الزكاة (٢٥٦٠) ، عن أبي موسى الأشعري .

(٣) رواه أحمد (١١٤) ، وقال مخرجوه : إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين ، والترمذي في الفتن (٢١٦٥)، وقال : حسن صحيح غريب ، والنسائي في الكبرى كتاب عشرة النساء (٩١٨١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٣١١)، وصحح إسناده البوصيري في الإتحاف (٦٩٩٠)، عن عمر بن الخطاب .

(٤) رواه أحمد (٢٧٥١٣) ، وقال مخرجوه : حسن ، أبو داود في الصلاة (٥٤٧) ، والنسائي في الإمامة (٨٤٧)، وابن حبان في الصلاة (٢١٠١)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٥١١)، عن أبي الدرداء .

(٥) رواه أبو داود في الأدب (٤٩١٨) ، والبخاري في الأدب المفرد (٢٣٨) ، وحسنه الألباني ، والبيهقي في قتال أهل البغي (١٦٧/٨) ، وحسن إسناده الحافظ في بلوغ المرام (٣٠٩/١) ، عن أبي هريرة .

(٦) انظر : الإحياء (٢٤٢/٤) .

الورع أول الزهد :

ومن أقوال أبي سليمان : القناعة من الرضا ، بمنزلة الورع من الزهد . قال : فهذا أول الرضا . يعني : القناعة . وهو أول الزهد : يعني : الورع[1]!

ولا ريب أنَّ الورع تَحرِّي الحلال في كسب العيش ، وهو ما أجاب به ربيعة الرأي حين سُئل : يا أبا عثمان ، ما رأس الزهادة؟ قال : جمع الأشياء من حلِّها ، ووضعها في حقِّها[2].

أهمية الحرص على الحلال الطيِّب :

وعن يوسف بن أسباط قال : مَن صبر على الأذى ، وتَرَك الشهوات ، وأكل الخبز الحلال ، فقد أخذ بأصل الزهد[3].

وأكل الخبز الحلال : إنما هو من الورع ، وهو أول الزهد .

يؤكِّد هذا ما جاء عن أبي أمية قال : أزهد الناس في الدنيا ـ وإن كان مُكبًّا عليها حريصًا ـ مَن لم يرضَ فيها إلا بكسب الحلال الطيب ، وأرغب الناس فيها ـ وإن كان معرضًا عنها ـ مَن لم يبالِ بما كسب منها ، حلال أم حرام[4] .

وقال بعضهم في الزهد : هو الذي لم يَنَل في الدنيا حرامًا[5] .

وهذا كلُّه يؤكِّد أهمية الحرص على الحلال الطيِّب،وهو داخل في حقيقة الورع، وهو بهذا مقدِّمة ضرورية للزهد ، فلا زهد بلا ورع .

الزهد إنما هو في الحلال :

على أنَّ من علماء السلوك مَن لم يرَ ترك الحرام ، وتحرِّي الحلال ، كافيًا في اكتساب منزلة الزهد ، بل لا بدَّ من الزهد في الحلال .

---

(١) سبق تخريجه صـ ١٦ .

(٢) رواه ابن الأعرابي (٢٩) ، وحلية الأولياء (٣/٢٨٩) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (٤١٧) ، وابن الأعرابي في الزهد (٣٠) .

(٤) رواه ابن الأعرابي في الزهد (٣٩) ، والبيهقي في الشعب باب الزهد (١٠٧٨١) .

(٥) رواه ابن الأعرابي في الزهد (٤٠) .

وقد سُئل يوسف بن أسباط نفسُه ـ الذي رُوي عنه ما ذكرناه ـ أنه سُئل عن الزهد : ما هو؟ فقال : أن تزهد فيما أحلَّ الله ، فأما ما حرَّم الله ، فإن ارتكبته عذَّبك الله[1] . يعني : أن تركه فرض .

ترك فضول الدنيا :

وبعضهم يعبِّر عن ذلك بقوله : ترك (فضول الدنيا) ويعنون به : ما لا ضرورة للإنسان ، ولا حاجة شديدة إليه ، أو ما يمكن الاستغناء عنه ، فالشغل به ينافي الزهد عند هؤلاء .

روى ابن الأعرابي عن سفيان الثوري قال : فضول الدنيا رجْس عند الله يوم القيامة . قال أبو منصور : فأخبرني سعدان بن خميس : أن رجلاً سأله ، فقال : يا أبا عبد الله ، ما فضول الدنيا؟ قال : أن يكون عندك رداء وأخوك عارٍ ، ويكون عندك فضل حذاء وأخوك حافٍ[2].

ففسَّر الفضول بما زاد عن حاجة الإنسان وفي المجتمع مَنْ هو في حاجة إليه ، ليكتسيَ من عُرْي ، أو ينتعل من حفاء .

ولعلَّ ذلك يدخل في دائرة الحديث الذي يقول :« مَن كان معه فضل ظهر فليعد به على مَن لا ظهر له ، ومَن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له » ، وقال راوي الحديث : فما زال يُعدِّد من أصناف المال ، حتى ظننا أن لا حقَّ لأحد منا في فضل[3].

يؤكِّد ذلك : أنَّ مَن قلَّ ماله ، قلَّ حسابه ، ومَن كَثُر ماله طال حسابه يوم القيامة .

تقلُّل زُهَّاد الصحابة من الدنيا :

ولهذا كان زُهَّاد الصحابة يُحبُّون التقلُّل في الدنيا ، لِيَخفَّ عنهم الحساب يوم القيامة . قالت أم الدرداء لزوجها أبي الدرداء : ألا تبتغي لأضيافك ما يبتغيه الرجال

---

(١) رواه ابن الأعرابي في الزهد (٤٢) .

(٢) المصدر السابق (١١٣) .

(٣) رواه مسلم في اللقطة (١٧٢٨)، وأبو داود في الزكاة (١٦٦٣)، وابن حبان في اللباس (٥٤١٩)، عن أبي سعيد الخدري .

لأضيافهم ؟ فقال : إني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « إنَّ أمامكم عقبة كؤودًا لا يجوزها المُثْقلون » . فأحبُّ أن أتخفَّف لتلك العقبة[1] . يعني هذه العقبة لا يجوزها ويتخطَّاها بيُسر وسهولة : إلا مَن كان حمله خفيفاً من الدنيا ، أو كان لا حمْل له منها أصلاً ، أما مَن ثقُل حَمْله من متاعها ، فما أشقَّ وما أصعب اجتيازها عليه !

وروى أحمد وغيره بسنده إلى سعد بن أبي وقاص : أنه دخل على سلمان ، فقال : أبشر أبا عبد الله ! مات رسول الله وهو عنك راضٍ ! قال : كيف يا سعد ، وقد سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « وليكن بُلْغة أحدكم من الدنيا كزاد الراكب ، حتى يلقاني »[2] . وكأنه يقول : ومَن منا اكتفى بزاد الراكب يا سعد !

الإعراض عن حُبِّ الدرهم والدينار :

ومن علامات الزهد : الإعراض عن حُبِّ الدينار والدرهم ، اللذين استعبدا الكثيرين ، حتى أصبحا صنمَيْن يعبدهما مَنْ يعبدهما ، وإن لم يُسمِّ ذلك عبادة ، ولكن حبَّهما وتعظيمهما أشبه بعبادة العابدين لآلهتهم . وفي الحديث الصحيح : « تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ، تعس عبد القطيفة ، تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش »[3] . فجعله الرسول الكريم عبداً .

علَّق الإمام الغزالي على دعاء خليل الله إبراهيم الذي ذكره القرآن : ﴿ وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ (إبراهيم:٣٥) ، فقال : (عَنَى بها هذين الحجرين : الذهب والفضة ؛ إذ مرتبة النبوة أجلُّ من أن يُخْشى عليها أن تعتقد الإلهية في شيء من هذه الحجارة ؛ إذ قد كفي ذلك قبل النبوة مع الصغر . وإنما معنى عبادتهما :

---

(١) رواه الحاكم في الأهوال (٤/٥٧٤) ، وصححه ووافقه الذهبي ، وابن الأعرابي في الزهد (١١٠) ، والبيهقي في الشعب باب الزهد (١٠٤٠٩) ، عن أبي الدرداء ، وعزاه المنذري في الترغيب والترهيب للطبراني في الكبير ، وصحح إسناده (٤/٦٠).

(٢) رواه ابن الأعرابي في الزهد (٨٧) ، والبيهقي في الشعب باب الزهد (١٠٣٩٦) ، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٢١/٤٥٣).

(٣) رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٨٧) ، وابن ماجه في الزهد (٤١٣٦) ، عن أبي هريرة .

حبُّهما والاغترار بهما والركون إليهما . قال رسول الله ﷺ : « تعس عبد الدينار ... » الحديث . فبيَّن أن محبَّهما عابدهما ، ومَن عبد حجرًا فهو عابد صنم ، بل كلُّ من كان عبدًا لغير الله فهو عابد صنم ، أي : قطعه ذلك عن الله تعالى ، وعن أداء حقِّه ، فهو كعابد صنم!)[1].

وقال سميط بن عجلان : إنَّ الدراهم والدنانير أَزِمَّة المنافقين (جمع زمام) يقادون بها إلى النار[2]!

وقال يحيى بن معاذ : الدرهم عقرب ، فإن لم تُحسن رُقيته فلا تأخذه ، فإنه إنْ لدغك قتلك بسُمِّه! قيل : وما رُقيته؟ قال : أخذه من حِلِّه ، وَوَضْعُه في حقِّه[3].

وقال العلاء بن زياد : تمثَّلت لي الدنيا ، وعليها من كلِّ زينة . فقلتُ : أعوذ بالله من شرِّك ! فقالت : إنْ سرَّك أن يعيذك الله منِّي ، فأبغض الدرهم والدينار .

قال الغزالي معلِّقًا : وذلك لأن الدرهم والدينار هما الدنيا كلُّها ، إذ يُتوصَّل بهما إلى جميع أصنافها ، فمَن صبر عنهما صبر عن الدنيا . وفي ذلك قال الشاعر :

إني وجـــدتُ فـــلا تظنُّـــوا غـــيره ... أنَّ التورُّع عند هـــذا الـــدرهم !

فـــإذا قـــدرتَ عليـــه ثم تركتَـــه ... فاعلم بأن تُقاك تقـــوى المســـلم !

وقال آخر :

لاَ يُغرَّنـــك من المرء قمـــيص رقَّعَـــه

أو إزار فوق عظم الساق مـــن رفعـــه

أو جبين لاح منـــه أثـــر قـــد خلعـــه

أره الدرهم تعرفْ حرصه أو ورعـــه[4]

---

(١) انظر : إحياء علوم الدين (٣/٢٣٥) ، طبعة دار المعرفة ، بيروت .

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٣/١٢٨) .

(٣) رواه أبو نعيم في الحلية (١٠/٦٠) .

(٤) انظر الإحياء (٣/٢٣٤) .

تَحَرِّي رضا الله في كلِّ ما يعمل :

سُئل بعض العلماء عن الزهد ، فقال : من أدنى الزهد أن يقعد أحدكم في منزله ، فإن كان قعوده لله رضي ، وإلا خرج ، ويخرج فإن كان خروجه لله رضي ، وإلا رجع ، فإذا كان رجوعه لله ، وإلا ساح ، ويخرج درهمه ، فإن أخرجه لله رضي ، وإلا حبسه ، ويحبسه ، فما كان حبسه لله رضي ، وإلا رمى به ، ويتكلَّم ، فإن كان كلامه لله رضي ، وإلا سكت ، فإن كان سكوته لله رضي ، وإلا تكلَّم .

فقيل : هذا صعب .

فقال : هذا الطريق إلى الله فلا تتعبوا[1] انتهى .

يؤيِّد هذا حديث : « ألا إنَّ سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله هي الجنة »[2] .

ترك ما لا يعني :

وقال عالم آخر : الزهد ترك ما لا يعني من الأشياء كلِّها ، واستعمال ما يعني . والذي أمره (أي شأنه) ما أمر الله أو نهى عنه ، أو رغَّب أو زهَّد فيه ، أو ذمَّه فإن لم يكن لخدمة ، فكلَّما كان من غير ذلك ، فهو ممَّا لا يعني ، والزهد تركه .

فإذا عرض له أمران ما كانا ، عمل أولاهما في وقته من كلام أو سكوت ، أو حركة أو سكون ، في الطاعة والمعصية . وجملة ذلك : ترك ما لا يعني ، وإن كان مباحًا قبل الحاجة إليه[3].

ولعل مما يؤيِّد ذلك حديث :« من حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه »[4]، وهو من أحاديث الأربعين النووية .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (٤١٨) ، ابن الأعرابي في الزهد (٣٣) .

(٢) رواه الترمذي في صفة القيامة (٢٤٥٠) ، وقال : حسن غريب ، والحاكم في الرقائق (٧٨٥١) ، وصححه ووافقه الذهبي ، والبيهقي في الشعب باب الزهد (١٠٥٧٦) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١١١٦٧) ، عن أبي هريرة .

(٣) انظر : الزهد لابن الأعرابي صـ٣٠ .

(٤) رواه الترمذي في الزهد (٢٣١٧) ، وقال : غريب ، وابن ماجه في الفتن (٣٩٧٦) ، وحسَّنه النووي في الأربعين ، عن أبي هريرة . وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٠٨٥٤) .

وقال ابن أبي الحواري : قلتُ لأبي صفوان الرُّعيني : ما الدنيا التي ذمَّها الله في القرآن ، التي ينبغي للعاقل أن يتجنَّبها ؟ قال : كلُّ ما عملتَه في الدنيا تريد به الدنيا فهو مذموم ، وكلُّ ما احتسبتَه تريد به الآخرة فليس منها . قال : فحدَّثتُ به مروان ، فقال : الفقه على ما قال أبو صفوان[1]. فجعل المدار على القصد والإرادة .

الزهد استصغار الدنيا :

وممَّا قالوه في الزهد ، ما رواه ابن الأعرابي ، عن أبي سليمان قال : سألتُ أبا صفوان ـ يعني الرُّعَيني ـ أي شيء أول حدود الزهد؟ قال له أبو صفوان : استصغار الدنيا . فقال له أبو سليمان : إذا كان هذا عندك أول الحدود ، وهو عندي آخر حدود الزهد : أن تستصغرها . وقام عنه وتركه[2].

جعل الهموم المتشعِّبة همًّا واحدًا :

ومن رجال السلوك : مَن ارتقى بالزهد إلى منزلة رفيعة ، وهي أن يجمع همومه المتفرِّقة للنفس ـ مادية ومعنوية ـ إلى همٍّ واحد ، هو إرضاء الله سبحانه . وبهذا يستريح القلب ، ويطمئن إلى غايته ، ولا تَتَشعَّب به الهموم بين يمين وشمال ، ومشرق ومغرب .

قال الإمام المُحاسبي في (رسالة المسترشدين) : واعلم أنَّ أرْوَحَ الناس أبدانًا ـ أي : أكثرهم راحة لأبدانهم ـ هم : أهل الزهد في الدنيا ، وأتعب الناس قلوبًا وأكثرهم شُغْلاً : هم أهل الاهتمام بالدنيا[3].

وروَوا عن عامر بن عبد قيس قال : لو استطعت لأجْعَلنَّ الهمَّ همًّا واحدًا ! فقال الحسن : ففعل وربِّ الكعبة[4].

---

(١) رواه ابن الأعرابي في الزهد (٣٥) .

(٢) رواه ابن الأعرابي في الزهد (٤٥) ، وابن عساكر في تاريخه (٣٠٤/٦٦) .

(٣) رسالة المسترشدين للمحاسبي ص١٦١ ، ونقل العلامة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة في تعليقاته النفيسة عن (تاريخ الإسلام) للذهبي (١٥٩/٥) : قال رجل لمحمد بن واسع : أوصني ، قال : أوصيك أن تكون مَلِكاً في الدنيا والآخرة ، قال : كيف هذا؟ قال : ازهد في الدنيا .

(٤) رواه ابن الأعرابي (٥٠) ، والبيهقي في الزهد الكبير صـ٦٣ .

وروى عنه يونس بن عبيد ، أنه ـ أي : عامر بن عبد قيس ـ جزَّأ الدنيا أربعة أجزاء : المال والنساء والنوم والطعام . فقال : أما المال والنساء فلا حاجة لي بهما . وإنما الآخران . (أي النوم والطعام) وايم الله لأحقرنَّ بهما . وقال : لأجعلنَّ الهمَّ همًّا واحدًا[1].

قال ابن الأعرابي : وهذا على ما قيل في الزهد : أن يكون الهمُّ همًّا واحدًا ، لله وحده ، ليس ذكر دنيا ولا آخرة . وهو غاية الزهد . وهو خروج قدر الدنيا (أي من قلبه) وقَلْيها (أي بغضها) أن تزهد فيها . وخروج قدر غيرها . . . إذا كان دون الله . هذا لمَن كان الله همّه وحده خالصًا[2].

وفي هذا الكلام ما هو مُسلَّم ، ومنه ما يحتاج إلى تمحيص .

فأما المسلَّم ، فهو أن يكون همّه لله وحده ، وهذا من أمور القلب ، فلا يعلِّق قلبه إلا بالله تعالى ورضاه ومحبَّته وطاعته ، كما قال تعالى : ﴿ **قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ (الأنعام:١٦٢).

وقوله ﷺ : « من كانت الدنيا ، همّه فرَّق الله عليه أمره ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلا ما كُتب له . ومن كانت الآخرة نيته جمع الله له أمره ، وجعل غناه في قلبه ، وأتته الدنيا وهي راغمة »[3]. فمن جعل رضوان الله تعالى غاية غاياته ، فقد استمسك بالعروة الوثقى ، واستراح من تعدُّد الغايات وتنازعها : أيُشرِّق أم يُغرِّب؟ وقد ذكر لنا القرآن مثلاً حيًّا حين قال : ﴿ **ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ (الزمر:٢٩).

فمثَّل المشرك المقسَّم قلبه ، بعبد له عدَّة مُلاَّك وسادة ، فهم شركاء في ملكيته ، ولكنهم ليسوا متَّفقين في شأنه ، بل هم مختلفون متشاكسون ، فهذا يأمره ، وهذا

---

(١) رواه ابن الأعرابي في الزهد (٤٨) ، وابن عساكر في تاريخه (١٩/٢٦) .

(٢) الزهد لابن الأعرابي صـ٣٧ ، عقب الأثر رقم (٥٠) ، والبيهقي في الزهد صـ٦٣ .

(٣) رواه أحمد (٢١٥٩٠)، وقال مخرِّجوه : إسناده صحيح ، وابن ماجه في الزهد (٤١٠٥)، وصححه الألباني في الصحيحة (٥٩٠) ، عن زيد بن ثابت .

ينهاه ، وهذا يسيِّره إلى اليمين ، وآخر يشدُّه إلى الشمال ، فهمُّه مشاع ، وقلبه أوزاع . أما العبد الآخر فهو ملك خالص لسيد واحد ، عرَف مطالبه ، وما يرضيه وما يسخطه ، فهو يعرف سيده ولا ينازعه أحد فيه . فما أعظم الفرق بين الرجلين!

مناقشة قول عامر بن عبد قيس بعدم الحاجة إلى المال والنساء :

وأما ما يحتاج إلى نقاش وتمحيص ، فقول عامر : إنه لا حاجة له إلى المال والنساء ، وأيُّ بأس في هذا ، فهذا موجب الفطرة البشريَّة . فَنِعم المال الصالح للمرء الصالح ، وقد منَّ الله على رسوله فقال : ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلاً فَأَغْنَىٰ ﴾ (الضحى:٨) ، وقال الرسول ﷺ في حديثه : « حُبِّب إليَّ من دنياكم : النساء والطيب »[١] ، وقال : « الدنيا متاع ، وخير متاع الدنيا ؛ المرأة الصالحة »[٢] .

ترك كل ما يشغل عن الله :

وعبَّر بعضهم عن هذا المعنى فقال : ترك كلِّ ما يشغل عن الله . روى ابن الأعرابي ، عن أبي عبد الله الرازي ، قال : قال لي بعض الحكماء : الزهد ترك ما يشغلك عن الله[٣] . ونقل ابن الأعرابي عن مضاء (ابن عيسى الشامي) قوله : إنما أرادوا بالزهد أن تفرغ قلوبهم للآخرة[٤] .

وعلَّق على ذلك ابن الأعرابي في كتابه (الزهد) ، فقال : وهذا يدلُّ على أن الزهد : في كلِّ ما يشغل عن الله عزَّ وجلَّ[٥] .

---

(١) رواه أحمد (١٢٢٩٣) ، وقال مخرجوه : إسناده حسن ، والنسائي في عشرة النساء (٨٨٣٦) ، وصحح إسناده ابن الملقن في البدر المنير (٥٠١/١) ، والبيهقي في الكبرى كتاب النكاح (١٣٢٣٢) ، عن أنس بن مالك ، وحسنه ابن حجر في التلخيص (١١٦/٣) .

(٢) رواه مسلم في الرضاع (١٤٦٧)، وأحمد (٦٥٦٧)، والنسائي (٣٢٣٢)، وابن ماجه (١٨٥٥)، كلاهما في النكاح ، عن عبد الله بن عمرو .

(٣) رواه ابن الأعرابي في الزهد (٣٧) .

(٤) رواه ابن الأعرابي (١٦) ، وابن عساكر في تاريخه (٢٨٤/٥٨) .

(٥) عقب الأثر رقم (١٦) .

وقال أبو سليمان الداراني : سمعنا في الزهد كلامًا كثيرًا ، والزهد عندنا : ترك كلِّ شيء يشغلك عن الله عزَّ وجلَّ[1]. وقد فصَّل مرَّة ، فقال : مَن تزوَّج أو سافر في طلب المعيشة ، أو كتب الحديث فقد ركن إلى الدنيا[2]!

قال الغزالي : فجعل ذلك ضدًّا للزهد . وقد قرأ أبو سليمان قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ (الشعراء:٨٩) ، قال : هو القلب الذي ليس فيه غير الله تعالى . وقال : إنما زهدوا في الدنيا ، لتفرغ قلوبهم من همومها للآخرة[3].

مناقشة قول الداراني في اعتباره التَّزوُّج والسفر وكتابة الحديث ركوناً إلى الدنيا :

وعندي توقُّف في اعتباره من تزوَّج أو سافر في طلب المعيشة ، أو كتابة الحديث ، قد ركن إلى الدنيا! بل قال ﷺ : « إنما الأعمال بالنيَّات ، وإنما لكلِّ امرئ ما نوى»[4]، فمَن تزوَّج ليغُضَّ بصره ، ويُحصِّن فرجه ، ويُكمِّل دينه ، ويؤسِّس أسرة مسلمة ؛ فليس هذا من الركون إلى الدنيا ، وقد منَّ الله بالزواج وجعله آية من آياته ، يقول تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الروم:٢١) ، وفي سورة النحل التي هي سورة النعم ، اعتبر الزواج من نعم الله ، فقال : ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ (النحل:٧٢)، وخاطب رسوله بقوله : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ﴾(الرعد:٣٨).

ومَن سافر في طلب المعيشة ، ليعفَّ نفسه ، ويُغْني أهله ، ويُعين أهل الحاجة من حوله ، ويُسهم في تنمية أمته ، فهو محسن ومأجور بنيَّته ، قال تعالى :

---

(١) رواه ابن الأعرابي في الزهد (٣٨) ، وانظر قوت القلوب ، لأبي طالب المكي (٤١٩/١) .

(٢) انظر : قوت القلوب لأبي طالب المكي (٤٢٠/١) .

(٣) انظر : الإحياء ، ربع المنجيات (٢٢٩/٤) ، دار المعرفة ، بيروت .

(٤) متفق عليه : رواه البخاري في بدء الوحي (١) ، ومسلم في الإمارة (١٩٠٧) ، كما رواه أحمد (١٦٨) ، وأبو داود في الطلاق (٢٢٠١) ، والترمذي في الجهاد (١٦٤٧) ، والنسائي في الطهارة (٧٥) ، وابن ماجه في الزهد (٤٢٢٧) ، عن عمر .

﴿ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَـٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ (المزمل: ٢٠) ، فَقَرن السفر في طلب المعيشة بالجهاد في سبيل الله .

ومن كتب الحديث ليتفقَّه في الدين ، ثم يفقِّه غيره ، فيتعلم ويعمل ويعلم ، فهو يعمل عملاً صالحًا ، وليس من الركون إلى الدنيا .

الزهد عند ابن الأعرابي :

وممَّن تكلم في (الزهد) فأحسن : الإمام المُحدِّث أبو سعيد بن الأعرابي في كتابه (الزهد وصفة الزاهدين) ، وقد نقل فيه أمثلةً وافرة في تعريف الزهد عن أهل الاختصاص من الرجال الربانيين والزاهدين ، ثم شرح هو الزهد كما يراه ، فقال عن الزهد :

هو ترك المحظور كله ، وترك الحلال والمباح قبل الحاجة والضرورة إليه .

قالوا : فإن أكل قبل أن يجوع ، أو شرب قبل أن يعطش ، أو رقد قبل أن ينعس ، أو جامع قبل حلول الحاجة إليه فقد مال إلى التلذُّذ ، والتلذُّذُ من الدنيا .

ثم الزهد في الراحة لتكون كل أوقاته مستغرقة الشغل بالعبادة والذكر ، فإن لم يكن كذلك فقد بقي عليه بقية من الزهد ، وكذلك في معاشرة الناس ، والحديث والكلام ، وكل ما فعل من ذلك قبل وجوبه عليه ، أو حاجته إليه ، فهو مَيْل إلى الدنيا ، وهو من الفضول ، والدنيا بأسرها من الفضول ، إلا ما استعين به منها على الآخرة .

قالوا : كيف ذلك لو تنفَّل بشيء من أعمال البر وغيرها ، إذ لا بد منها في الوقت ، كرجل عليه دَيْن يمكنه قضاؤه فيؤخِّره إلى وقت يأتي ، أو صلاة قد وجب فرضها بدخول الوقت ، أو حج قد وجب للاستطاعة .

واختلفوا فيه إذا تعالج من علَّة ، فقال قائلون : إنما ذلك رغبة في الصحة والحياة الدنيا .

وقال آخرون : ذلك على قدر نيته ، إن نوى به حب البقاء والصحة وزوال الألم ، فهو من حب الدنيا ، وإن كان فعل ذلك ليتقوى على أمر الله وطاعته فذلك على قدر نيته .

وقالوا : لو أن رجلا طلب الدنيا ليأكل ويشرب ويلبس ويتمتَّع فيها ، وآخر تركها لراحة قلبه وجسمه ، وتلذذ بالفراغ والراحة كانا جميعاً غير زاهدين ، حتى ينوي التارك لها بنية غير هذه ، إما ليفرغ منها لأنها تشغله عن الآخرة ، وإما لأن الله عز وجل ذمَّها وزهد فيها ، فذلك على قدر نيته أيضاً .

وقالوا : لو تركها وجانبها ولها في قلبه قدر وموضع ، كان بذلك فاضلاً معاملاً مجاهداً ، ولم يكن بالترك زاهداً ، وإنما الزهد عندهم خروج قدرها ، إذ هي لا شيء . قالوا : فذلك الزهد .

ومن الزهد أيضاً : الزهد في الرئاسة والمحاسنة والمحادثة والمعاشرة .

أعلى مراتب الزهد :

وأول الزهد : الزهد في الحرام ، ثم الزهد في المباح ، وأعلى مراتب الزهد : أن تزهد في الفضول ، والفضول كل ما لك عنه غنى . فكأنك تزهد في كل شيء ، إلا فيما أمرك الله أو فيما ندبك إليه ممَّا يقرِّبك إليه أو ما لا بد منه . وكل ما كان سوى ذلك ، فهو من الفضول ، وهو ترك ما لا يعني .

وقال قوم : التارك هذه الأشياء ، وإن كان يحبُّها ويريدها ، إذا تركها مجاهدًا لنفسه ، صابرا عنها ، إنه زاهد .

وقال آخرون : لا يُسمَّى زاهدًا حتى يكون مع تركه لها غير مريد لها ، وذلك خروج قدرها من القلب .

واختلفوا إذا خرج قدرها من القلب ولم تحبها النفس ، فتناول منها شيئًا على جهة المباح .

فقال قوم : قد تمَّ زهده بخروج قدرها من قلبه ، وإن تناول منها .

وقال آخرون : إذا خرج قدرها ، فتناول منها شيئًا فهو ناقص ، إلا أن يكون المتناول منها يعين على طاعة أو ما لا بد منه ، مما لو تركه لم يأمن نفسه الخروج إلى غيره ، مثل من يكف به طبعه وبشريته من الغذاء والنوم واللباس والنساء إذ كانت البشرية مطبوعة على ذلك وإنما المذموم أن يتعاطى الإنسان الزيادة على ما يحتاج إليه من ذلك بعد تسكين البشرية متلذذًا متمتعًا وإن كان مباحًا .

وقال آخرون : لا يكون خارجًا من الزهد من يتناول مباحًا ، كما لا يكون زاهدًا من تناول محظورًا .

وقال آخرون : كل ما يتناوله أو يدخل فيه لا بد من أن يكون محرمًا منهيًّا عنه أو محللاً مأمورًا به أو مباحًا مسكوتًا عنه .

فأما الحرام فلا معنى للكلام فيه ، وأما الحلال والمباح فلا يدخل فيه إلا بنية ولا تخلو النية من أن تكون محمودة يراد بها الطاعة ، أو مذمومة تؤول إلى المعصية ، أو مسكوتا عنها .

فمن دخل الأشياء بلا نية لم يطلق عليه اسم حَمْد ولا ذم ، وما دخل فيها بنية رُدَّ إلى نيته . وقد قال قوم : إذا دخل بلا نيَّة فهو ناقص ، لأنه عبد مأمور منهي ، فكل ما دخل فيه ممَّا لا يوافق أمرًا ولا نهيًا فهو فضول لا يعني ، وتركه أفضل . وإن كان تركه أفضل فتناوله أنقص[1] .

الزهد عند الإمام أحمد :

وقال الإمام أحمد بن حنبل : الزهد على ثلاثة أوجه : الأول : ترك الحرام ، وهو زهد العوام ، والثاني : ترك الفضول من الحلال ، وهو زهد الخواص ، والثالث : ترك ما يشغل عن الله ، وهو زهد العارفين .

قال ابن القيم معلِّقًا : وهذا الكلام من الإمام أحمد يأتي على جميع ما تقدم من كلام المشايخ ، مع زيادة تفصيله ، وتبيين درجاته وهو من أجمع الكلام ، وهو يدل على أنه ﷺ من هذا العلم بالمحل الأعلى . وقد شهد الشافعي رحمه الله بإمامته في ثمانية أشياء «أحدها : الزهد».

الزهد سفر القلب من الدنيا إلى الآخرة :

والذي أجمع عليه العارفون : أنَّ الزهد سفر القلب من وطن الدنيا ، وأخذه في منازل الآخرة وعلى هذا صنَّف المتقدمون كتب الزهد، كالزهد لعبد الله بن المبارك، وللإمام أحمد ، ولوكيع ، ولهناد بن السري ، ولغيرهم .

---

(١) انظر : الزهد وصفة الزاهدين لابن الأعرابي صـ٣٨-٤١ ، طبعة دار الصحابة للتراث .

ومتعلقه ستة أشياء : لا يستحق العبد اسم الزهد حتى يزهد فيها وهي : المال والصور والرياسة والناس والنفس وكل ما دون الله

وليس المراد رفضها من المِلْك ، فقد كان سليمان وداود عليهما السلام من أزهد أهل زمانهما ، ولهما من المال والملك والنساء ما لهما . وكان نبّينا من أزهد البشر على الإطلاق ، وله تسع نسوة ، وكان علي بن أبي طالب وعبدالرحمن بن عوف والزبير وعثمان ﷺ من الزهّاد ، مع ما كان لهم من الأموال . وكان الحسن ابن علي ﷺ من الزهّاد ، مع أنه كان من أكثر الأمة محبة للنساء ، ونكاحًا لهنَّ ، وأغناهم ، وكان عبدالله بن المبارك من أئمة الزهاد مع مال كثير ، وكذلك الليث ابن سعد من أئمة الزهاد ، وكان له رأس مال يقول : لولا هو لتمندل بنا هؤلاء[1] . ومعنى (تمندل) : أي جعلونا كالمناديل في أيديهم .

هل الزهد ممكن في هذه الأزمنة ؟

وهنا سؤال طرحه أهل السلوك ، وهو : هل الزهد ممكن في هذه الأزمنة أو لا ؟ أي : أزمنتهم في القرن الرابع أو الخامس الهجري وما بعدها . ومن باب أَوْلى يكون السؤال واردًا في زمننا ، ولا سيما إذا عرفنا سببه .

وقال يوسف بن أسباط : لو بلغني أنَّ رجلاً بلغ في الزهد منزلة أبي ذر وأبي الدرداء وسلمان والمقداد وأشباههم من الصحابة ﷺ ، ما قلت له : زاهد ؛ لأن الزهد لا يكون إلا في الحلال المحض . والحلال المحض لا يوجد في زماننا هذا . وأما الحرام فإن ارتكبته عذَّبك الله عز وجل[2] .

وقال أبو حفص : الزهد لا يكون إلا في الحلال ، ولا حلال في الدنيا اليوم ، فلا زهد إذن[3] .

---

(١) مدارج السالكين (٢/١٣ ، ١٤) .

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٨/٢٣٨) .

(٣) الرسالة القشيرية صـ (٩٥) .

تحقيق ابن القيم في وجود الحلال في الدنيا :

قال ابن القيم : وخالفه الناس في هذا ، وقالوا : بل الحلال موجود فيها ، وفيها الحرام كثير ، معناه : أنَّ الأرض لا تخلو من الحلال .

قالوا : وعلى تقدير أن لا يكون فيها الحلال ، فهذا أدعى إلى الزهد فيها ، ويتناول ما يتناوله منها ، كتناوله الميتة والدم ولحم الخنزير .

قال ابن القيم : ثم اختلف هؤلاء ـ أي الذين قالوا بوجود الحلال في الدنيا ـ فيما يتعلق بالزهد . فقالت طائفة : الزهد إنما هو في الحلال ، لأن ترك الحرام فريضة .

وقالت فرقة : بل الزهد لا يكون إلا في الحرام . وأما الحلال فنعمة من الله تعالى على عبده . والله يحبُّ أن يرى نعمته على عبده ، فشكره على نعمه ، والاستعانة بها على طاعته ، واتخاذها طريقًا إلى جنته : أفضل من الزهد فيها ، والتخلِّي عنها ومجانبة أسبابها .

قال ابن القيم : (والتحقيق : أنها إن لم تشغله عن الله ، فالزهد فيها أفضل ، وإن لم تشغله عن الله ، بل كان شاكرًا لله فيها ، فحاله أفضل . والزهد فيها تجريد القلب عن التعلق بها ، والطمأنينة إليها ، والله أعلم)[1].

ترجيح الحسن البصري لمن رفض الدنيا عمن أدركها بجلالها :

وهذا التحقيق يخالف ما جاء عن الحسن البصري أن أحدهم سأله: يا أبا سعيد، رجلان : طلب أحدهما الدنيا بحلالها (أي فأدركها) فوصل بها رَحِمَه ، وقدَّم فيها لنفسه . . . ورجل رفض الدنيا؟ قال : أحبهما إليَّ الرجل الذي رفض الدنيا ! قال : يا أبا سعيد ، هذا طلبها بحلالها ، فأصابها ، فوصل بها رَحِمَه ، وقدَّم فيها لنفسه ! قال : أحبُّهما إليَّ الذي جانبها[2].

ويبدو أنَّ الإمام الحسن هنا يرى رفضها أحوط وأسلم . مع أنهم يرون أنه كان له مال استغنى به عن أمراء زمنه ، ولهذا لما سأل الحجَّاج عن سرِّ قوة الحسن البصري وصلابته في الحق ؟ قيل له : احتاج الناس إلى دينه ، واستغنى عن دنياهم ! وقد رُويت عنه كلمات تخالف ما هنا .

---

(١) مدارج السالكين (٢/١٤ ، ١٥) ، ببعض تصرف .

(٢) رواه ابن الأعرابي في الزهد (٩٠) .

ومَنْ رجع إلى كتاب الله ، وصحيح سنة رسوله ﷺ : يتبيَّن له أن تحقيق ابن القيم هو الصواب .

ذمُّ قارون لعدم قيامه بحقِّ الله في المال :

فالقرآن لم يذم قارون على غناه وامتلاكه الدنيا وكنوزها ، بل ذمَّه لأنه لم يقُم بحقِّ الله فيها ، ولم ينتصح بنصيحة قومه التي ذكرها القرآن : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ (القصص:٧٦-٧٨).

فنصحه قومه بخمس نصائح[1]، ولكنه لم يستجب لها ، وركبه الغرور الذي يركب أكثر الرأسماليين وأرباب الثروات ، حين قال : ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ ، فعمي عن الحقيقة الكبيرة : أنَّ المال إنما هو مال الله ، وإنما هو مُستَخلف فيه . فكانت عاقبته أن خسف الله به وبداره وكنوزه الأرض .

ثناء الله تعالى على يوسف وداود وسليمان :

على حين آتى الله يوسف وداود وسليمان من الملك ما آتاهم ، ووسَّع عليهم نعمه ، وكانوا من الشاكرين ، وأثنى الله عليهم ، فقال عن سليمان : ﴿ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ (ص:٣٠) ، وقال عن كلٍّ من داود وسليمان : ﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ (ص:٤٠) .

فالمدار يقوم على شكر النعمة أو كفرانها ، فمن شكرها بارك الله له فيها ، وزاده منها ، ومن كفرها سخط الله عليه ، وسلبها منه كما قال تعالى : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾ (إبراهيم:٧).

---

(١) تنظر الوصايا الخمس على لسان المؤمن من قوم موسى لقارون في الفصل التاسع من هذا الباب

قوم سبأ بين الشكر الكفر :

وحدثنا القرآن عن قوم (سبأ) في حال الشكر وفي حال الكفران . فقال : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ (سبأ:١٥) ، فهذا في حالة الشكران .

وفي الحالة الأخرى : ﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ (سبأ:١٦) .

أحاديث لها دلالة :

ومن الأحاديث التي لها دلالة هنا : ما رواه الشيخان : « لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالاً ، فسلَّطه على هَلَكَته في الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة ، فهو يقضي بها ويعلمها »[1].

ومثله ما رواه الترمذي عن أبي كبشة الأنماري :« إنما الدنيا لأربعة نفر : عبد رزقه الله عزَّ وجلَّ مالاً وعلمًا ، فهو يتَّقي فيه ربَّه ، ويصل فيه رَحِمَه ، ويعلم لله عزَّ وجلَّ فيه حقَّه ، قال : فهذا بأفضل المنازل . قال : وعبد رزقه الله عزَّ وجلَّ علمًا ولم يرزقه مالاً . قال : فهو يقول لو كان لي مال عملت بعمل فلان . قال : فأجرهما سواء . قال : وعبد رزقه الله مالاً ولم يرزقه علمًا ، فهو يخبط في ماله بغير علم ، لا يتَّقي فيه ربَّه عزَّ وجلَّ ، ولا يصل فيه رَحِمَه ، ولا يعلم لله فيه حقَّه ، فهذا بأخبث المنازل . قال : وعبد لم يرزقه الله مالاً ولا علماً ، فهو يقول : لو كان لي مال لعملت بعمل فلان . قال : هي نيته ، فوزرهما سواء »[2].

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري في العلم (٧٣) ، ومسلم في صلاة المسافرين (٨١٦) ، كما رواه أحمد (٣٦٥١)، والنسائي في الكبرى كتاب العلم (٥٨٠٩)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٠٨)، عن عبدالله ابن مسعود .

(٢) رواه أحمد (١٨٠٣١) ، وقال مخرجوه : حديث حسن ، والترمذي في الزهد (٢٣٢٥) ، وقال : حسن صحيح ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٣٣٥) .

وقد صحَّ عن النبي ﷺ ، أن كلَّ امرئ سَيُسْأل يوم القيامة عن أربعة أسئلة رئيسة ، منها سؤال عن ماله ، وهو سؤال ذو شقّين : من أين اكتسبه ؟ وفيم أنفقه[1]؟!

فمَن اكتسب ماله من حلال لا شبهة فيه ، وأنفقه في حقٍّ لا باطل فيه ، فقد نجا .

وهذا ما قاله كثير من شيوخ الطريق ، كما نقلناه عن بعضهم أنه فسَّر الزهد بأخذ الدنيا من حِلِّها ، ووضعها في حقِّها .

وقد قال الثوري : كان من دعائهم : اللهم زهِّدنا في الدنيا ، ووسِّع علينا منها[2].

* * *

(١) رواه الترمذي في صفة القيامة (٢٤١٧) ، وقال : حسن صحيح ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٣٢٥٦) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (١٧٢) .

obeikandl.com

الفصل الخامس

حقيقة الزهد في الدنيا ومُكوِّناته

بعد نقل هذه الأقوال عن رجال السلوك من الزاهدين والعارفين الذين يتحدَّثون عن ممارسة وتجربة ، نستطيع أن نلقي في هذا الفصل بعض الضوء على لُبِّ الزهد وحقيقته وجوهره ، فنقول :

حقيقة الزهد في الدنيا ، يجب أن تُؤْخذ من القرآن العظيم ، ثم من سُنَّة الرسول الكريم ، ففيهما الجواب الكافي ، والدواء الشافي ، كما قال تعالى : ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (المائدة:١٥،١٦) ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس:٥٧) .

وقد رأينا القرآن يُقرِّر بوضوحٍ ، حِلَّ الأكل من طيِّبات ما رزق الله ، وينهى عن تحريم ما أحلَّ الله ، ولا يمنع من الكسب وامتلاك المال ، وتزوُّج النساء ، فما المراد بالزهد إذن؟

نستطيع أن نُجْمل هنا حقيقة الزهد في أمرين أساسيين : الأول إرادة الآخرة وإيثارها على الدنيا ، والثاني : الإعراض عن اتِّباع الشهوات .

الأول : إرادة الآخرة وإيثارها على الدنيا :

الزهد المطلوب في القرآن يتعلَّق بالإرادة ، أو بالقلب ، فالناس في نظر القرآن صنفان متقابلان : أحدهما : يريد الدنيا وهو المذموم ، والثاني : يريد الآخرة وهو المحمود ، وهو أيضًا الذي يسمَّى (الزاهد) .

وقد يُسمِّي القرآن الدنيا : العاجلة ، كما قال تعالى : ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ ﴾ (الإسراء:١٨) ، وقوله : ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴾ (القيامة:٢٠،٢١) .

فليس المحظور أن تكون الدنيا في يدك ، ولكن المحظور أن تكون في قلبك .

ولهذا نجد القرآن يركِّز على قضية (إرادة الدنيا) ، و(إرادة الآخرة) فتراه في سورة الإسراء يقسم الناس إلى صنفين متباينين بجلاء : أهل الدنيا ، وأهل الآخرة . فيقول : ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ ـ أي : الدنيا ـ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۝ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ (الإسراء:١٨،١٩) .

فالمدار في جزاء الصنفين الاثنين على الإرادة : ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ ﴾ ، ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ ﴾ .

وهذا المعنى تكرَّر في أكثر من سورة ، يقول تعالى في سورة هود : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (هود:١٥،١٦) ، فهذا الوعيد الهائل كلُّه مؤسَّس على سبب واحد ، عبَّرت عنه الآية بقولها : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ﴾ .

وفي سورة الشورى يقابل القرآن بين صنفين ـ كما في سورة الإسراء ـ فيقول : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ (الشورى:٢٠) .

وفي سورة آل عمران جاء قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْآخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ (آل عمران:١٤٥) .

وفي الحديث عن غزوة أُحد خاطب القرآن الصحابة بقوله : ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ﴾ (آل عمران:١٥٢).

قال ابن مسعود رضي الله عنه : ما كنتُ أحسب أنَّ فينا مَن يريد الدنيا ، حتى نزلت فينا هذه الآية[1].

---

(١) رواه أحمد (٤٤١٤) ، وقال مخرجوه : حسن لغيره ، وابن أبي شيبة في المغازي (٣٧٩٣٨) ، والطبراني في الأوسط (١٣٩٩) ، وقال الهيثمي في المجمع (٥١/٧) : رواه أحمد والطبراني في الأوسط ، ورجال الطبراني ثقات .

ولكن إرادة الدنيا هنا إرادة جزئيَّة مؤقَّتة ، أي : حين اشتهوا الغنائم ، فتركوا مواقعهم في الجبل ، ونزلوا ليأخذوا حظَّهم منها ، ولم يكن هذا خطًا أو اتجاهًا أصيلاً في حياتهم ، ولهذا قال بعدها : ﴿ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران:١٥٢) .

قد تريد الدنيا ، وتتعلَّق بها ، وتصبح أسير أطماعها وزخارفها ، وأنت لا تملك شيئًا . وقد تملك الدنيا ، وتحوزُ دراهمها ودنانيرها ، وحرثها وأنعامها ، ولكنها لا تملك قلبك ، ولا تُوجِّه إرادتك ، وبعبارة أخرى : ليست أكبر همِّك ، ولا مبلغ علمك . ولذلك رُوي في بعض الأدعية المأثورة : « و لا تجعل مصيبتنا في ديننا ، ولا تجعل الدنيا أكبر همِّنا ، ولا مبلغ علمنا »[1].

وعبارة : « مبلغ علمنا » ، مقتبسة من القرآن ، حيث يقول الله تعالى : ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ (النجم:٢٩) .

وهذا التعبير القرآني في هذه الآية : ﴿ وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ ، مهمٌّ في تحديد المراد من إرادة الحياة الدنيا في الآيات الأخرى ، وهو حصر إرادته فيها ، بحيث لا يريد غيرها ، وإن أراد شيئًا غيرها فهو تابعٌ لها ، وعلى هامشها ، ولذا قال : ﴿ وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ ، بأسلوب القصر .

إيثار الدنيا :

وأحيانًا يعبِّر القرآن عن إرادة الدنيا بكلمة (الإيثار)، التي تعني التقديم والتفضيل والترجيح عند المفاضلة والموازنة ، فإذا عرض له أمران ، أحدهما للآخرة ، والآخر للدنيا : آثر الزاهد الآخرة على الدنيا ، وآثر مُحبُّ الدنيا دنياه . وفي هذا جاء قوله تعالى في بيان مواقف الناس في القيامة : ﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ (النازعات:٣٥-٤١).

---

(١) رواه الترمذي في الدعوات (٣٥٠٢) ، وقال : حسن غريب ، والنسائي في الكبرى كتاب عمل اليوم والليلة (١٠٢٣٤) ، عن ابن عمر ، وحسنه الألباني في الكلم الطيب (٢٢٦) .

فهنا عبَّر عن إرادة الحياة الدنيا بإيثارها ، أي : إيثارها على الآخرة ، وهذا هو الضلال والخسران ، وقد قال تعالى : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ (الأعلى:١٦،١٧).

قال الفُضيل بن عِياض : لو كانت الدنيا ذهبًا يفنى ، والآخرة خزفًا يبقى ، لاخترتُ الخزف الباقي ، على الذهب الفاني[1]!

فكيف والعكس هو الصحيح ، بل الواقع أنَّ الآخرة أكثر وأغلى من ذهب ، والدنيا أقلُّ وأرخص من خزف ؟!

استحباب الحياة الدنيا :

وقد يعبِّر القرآن عن معنى الإيثار بلفظ الاستحباب ، كقوله تعالى : ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝٢ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ (إبراهيم:٢،٣).

وفي مقام آخر ، قال تعالى في شأن قوم استحقُّوا غضب الله وعذابه العظيم : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ (النحل:١٠٧).

وهو نفس المعنى الذي جاء في الآية الأخرى : ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝٢٠ وَتَذَرُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴾(القيامة:٢٠،٢١) ، فالمراد : حبُّ الدنيا الذي يغلِّبها على الآخرة ، ويقدِّمها عليها .

وهو ما عاب به القرآن أهل الجاهلية حين قال : ﴿ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ۝١٩ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ (الفجر:١٩،٢٠)، وهو : الحبُّ الذي جعلهم يهينون اليتيم ، ولا يتحاضُّون على طعام المسكين .

ولهذا جاء التحذير من حبِّ الدنيا ، كما في حديث ثوبان ، في تداعي الأمم على أمة الإسلام ، كما تتداعى الأَكَلَة على قصعتها ، رغم كثرة عددها ، ولكنها أصابها الوَهْن ، فلما سئل عن الوهن قال : « حبُّ الدنيا ، وكراهية الموت »[2].

---

(١) انظر : المستطرف في كل فن مستظرف للأبشيهي (٢/٥٩٧) .

(٢) سبق تخريجه صـ ٧٨ .

قال جُندب بن عبد الله الصحابي ﷺ : حُبُّ الدنيا رأس كلِّ خطيئة . ورُوى مرفوعًا[1]، وعن الحسن مرسلا[2].

وقال الحسن : مَن أحبَّ الدنيا ومَسَرَّتها ، خرَج حُبُّ الآخرة من قلبه[3].

وقال عون بن عبد الله : الدنيا والآخرة في القلب ككفَّتي الميزان ، بقدر ما ترجح إحداهما تخفُّ الأخرى[4].

وقال وهب : إنما الدنيا والآخرة كرجل له امرأتان : إن أرضى إحداهما أسخط الأخرى[5].

وبهذا يتَّضح لنا معنى (إرادة الآخرة) و(إيثارها) على الأولى ، ومعنى (حبِّ الدنيا) ، الذي به يرجِّح كفَّتها على الآخرة ، ويرضيها ويسير في هواها ، وإن أسخط ضَرَّتها وجار عليها.

الآثار الخطيرة لحُبِّ الدنيا وإيثارها على الآخرة :

ولحُبِّ الدنيا آثار خطيرة على الفرد وعلى المجتمع ، نذكر منها أمرين :

اضْطراب المعايير :

إنَّ من آثار إرادة الحياة الدنيا ، والتهافت عليها : أنها تطمس نور البصيرة ،

---

(١) قال ابن تيمية في مجموع الفتاوي (١٢٣/١٨) : هذا معروف عن جندب بن عبد الله البجلي ، وأما عن النبي ﷺ فليس له إسناد معروف .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (٩) ، والبيهقي في الشعب باب الزهد (١٠٥٠١) ، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٢٦٨٢) ، وقال المناوي في فيض القدير (٤٨٧/٣) : ثم قال (أعني البيهقي) : ولا أصل له من حديث النبي ﷺ ، قال الحافظ الزين العراقي : ومراسيل الحسن عندهم شبه الريح ، ومثل به في شرح الألفية للموضوع من كلام الحكماء ، وقال : هو من كلام مالك ابن دينار ، كما رواه ابن أبي الدنيا ، أو من كلام عيسى عليه السلام ، كما رواه البيهقي في الزهد وأبو نعيم في الحلية ، وعد ابن الجوزي الحديث في الموضوعات ، وتعقبه الحافظ ابن حجر بأن ابن المديني أثنى على مراسيل الحسن ، والإسناد إليه حسن ، وأورده الديلمي من حديث علي وبيَّض لسنده .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (١٦٢) .

(٤) المصدر السابق (٢٩٢) ، وأبو نعيم في الحلية (٢٥١/٤) .

(٥) رواه ابن أبى الدنيا في ذم الدنيا (١١٩) ، والعقيلي في الضعفاء (١١/٣) .

وتقلب موازين الحقِّ في تقويم الناس ، فيصبح مقياس الرفعة والضَّعة الدينار والدرهم ، ومعيار الكرامة والهوان هو الغنى والفقر .

فقيمة ربِّ الألف ألف وزد تزد وقيمة ربِّ الدرهم الفرد درهم

أما الدين واليقين ، والخُلق المتين ، والعلم النافع ، والعمل الصالح ، فما أكثر ما يُغطِّي عليها غبار الفقر ، ويخفيها عن عيون عُشَّاق الدنيا ، ومن هنا شكا الشاعر :

فصاحة حسَّان ، وخط ابن مُقْلَة وحكمة لقمان ، وزهد ابن أدهم

إذا اجتمعت في المرء والمرءُ مفلسٌ ونُودي عليه لا يُباع بدرهم

أرأيتَ إلى قارون ، وقد خرج في موكبه الفخم ، وحوله الخدم والحَشَم ، وعليه الفضة والذهب ، ماذا كان موقف أصحاب الدنيا؟ ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ (القصص:٧٩) .

أما أرباب البصائر النيِّرة والفطر السليمة ، فماذا قالوا : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾ (القصص: ٨٠) .

مدح رجل عبد الملك بن مروان فقال :

يأتلق التاج فوق مفرَقه على جبين كأنه الذهب

فقال : وأيُّ فضل في هذا ؟ هلا قلت ما قال الآخر :

إنما مصعب شهاب من الله تجلَّت بنوره الظلماء

حكمه حكم قوَّة ليس فيه جبروت منه ولا كبرياء

وهجا الحُطَيئة الزبرقان بن بدر ، فلم يزد على أن قال له :

دع المكارم لا ترحل لبُغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي!

فلما سمعه غضب لذلك غضبًا شديدًا ، وشكاه إلى عمر ، فحبسه من أجل ذلك ، ولو سمع شعر عبد الملك أمير عصري أو شعر الحُطَيئة متمدِّن عصري ، لسُرَّ لذلك ، فضلاً عن أن يثور .

وقال شاعر آخر :

لَحَى الله صعلوكا مُناه وهمُّه من العيش أن يلقى لبوسًا ومطعمًا!

حُبُّ الدنيا وأثره في ضعف الأمة وإدخال الوهن عليها :

على أنَّ حبَّ الدنيا ليس خطرًا على سالك طريق الآخرة ، وصرفه عن الله ، وعن طاعته وتقواه ، بامتثال ما أمر ، واجتناب ما نهى ، فحسب . وهو ليس بالأمر الهيِّن .

ولكنَّ حُبَّ الدنيا إذا شاع بين الناس ، وأصبح ظاهرةً في المجتمع ، له آثاره الخطيرة في إضعاف مقاومة الأمة ، وإدخال الوَهْن على نفوس أبنائها ، فتتراخى عزائمهم ، وتتهاوى إراداتهم أمام مغريات الحياة وشهواتها ، من الجنس والكأس لدى بعض الناس ، ومن المنصب والشهرة لدى آخرين ، ومن المال والثروة لدى صنف آخر ، وهكذا يسيطر عليهم حبُّ الدنيا وباعث الدنيا ، وينهزم أمام حبِّ الدنيا حبُّ الله تعالى ، وحبُّ الآخرة ، ويضعف باعث الدين في مواجهة باعث الهوى ، وهذه مقدِّمات لضعف حزب الله أمام حزب الشيطان .

وهذا هو الذي حذَّر منه النبي ﷺ ، أمته في آخر الزمان ، من تآمر الأمم عليها ، وضعفها عن التصدِّي لهم ، على رغم كثرة عددها ، ولكنهم كمٌّ بلا كيف ، أو كثرة كغثاء السيل .

وهذا هو الحديث الذي رواه ثوبان رضي الله عنه ، عن النبيِّ ﷺ ، وهو يُنْبئ بغيب يصف واقع أمتنا كأنما يراه رأي عين . يقول : « يوشك أن تتداعى عليكم الأمم من كلِّ أفق ، كما تتداعى الأَكَلَة على قصعتها ». قالوا : أمن قلَّة نحن يومئذ ، يا رسول الله؟ قال : « بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غُثاء كغثاء السيل ، ولينزعنَّ الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفنَّ في قلوبكم الوَهْن » . قالوا : وما الوَهْن ، يارسول الله ؟ قال : « حبُّ الدنيا وكراهية الموت »[1].

---

(١) سبق تخريجه صـ ٧٨ .

هذا هو حال أمتنا في هذا الزمان الكئيب : كثرة بلغت أكثر من المليار ونصف المليار من البشر[1]، ولكنها كثرة لا يهابها عدو ، ولا ينتصر بها صديق ، كما رأينا في مأساة إخوتنا في فلسطين ، لأن الأمة الآن في (المرحلة الغثائية) أمة واهنة خائرة . ووهنها من داخلها لا من خارجها . كما بيَّن الحديث الشريف . وَهْن دبَّ في قلوبها قبل أن يدبَّ إليها أعداؤها .

ولقد سأل الصحابة عن الوَهْن الذي يقذف في القلوب ما هو؟ إنهم لا يسألون عن معناه اللغوي ، فهو معروف معلوم ، إنما يسألون عن سرِّه وعلَّته ، وقد جاء الجواب مُوَضِّحًا ومعلِّمًا : « حبُّ الدنيا وكراهية الموت».

كان الرسول ﷺ ، وصحابته يُنصرون بالرُّعب يُلقى في قلوب أعدائهم من مسيرة شهر ، لأنهم باعوا الدنيا بالآخرة ، واشتروا الجنة بأنفسهم وأموالهم ، وكان خالد يقول لقادة الفرس والروم حين يدعوهم إلى الإسلام أو السلام ، ثم يقول : وإلا غزوتكم بقوم يُحبُّون الموت كما تحبُّون الحياة[2] .

فإذا أردنا أن تنتصر أمتنا ، فلنغيِّر ما بأنفسها ، ولْنُحرِّر قلوبها من الوَهْن ، أي : من حُبِّ الدنيا وكراهية الموت ، وبعبارة أخرى : لنخرجها من (المرحلة الغثائية) التي أشار إليها الحديث بـ« غثاء السيل».

وغثاء السيل : ما يجمعه السيل من أشياء متناثرة من هنا وهناك ، من حطب وورق وأعواد وخشب ، وأشياء مختلفة ، يجمعها عدَّة أوصاف :

١- أنها خفيفة سطحية ، تطفو على السطح ولا ترسب في الأعماق .

٢- أنها غير متجانسة .

٣- أنها لا هدف لها ، فليس لها مصبٌّ معلوم تنتهي إليه .

---

(١) أحدث إحصاء للأمة المسلمة هو مليار وخمسمئة وسبعون مليونا . انظر : جريدة العرب القطرية العدد (٧٧٩٢) ، الاثنين ١٢ أكتوبر ٢٠٠٩م الموافق ٢٣ شوال ١٤٣٠هـ ، وقد نشر دراسة أقامها مركز أبحاث (بيو) الأميركي .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في البعوث والسرايا (٣٤٤١٧) ، وأبو يعلى (١١٣/١٣) ، وسعيد بن منصور في رسائل النبي (١٩١/٢) ، عن الشعبي ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد : رواه أبو يعلى وفيه مجالد وهو ضعيف وقد وثق (٣٢٥/٦) .

٤- أنها ليس لها مجرى مرسوم ، ولا طريق معلوم ، وإنما تسير حيثما اتفق لها . فهذا شأن السيل ، بخلاف النهر ، فإن له مصبًا وهدفا معلوما ، ومجرى مرسوما .

وهذه الأوصاف كلُّها هي أوصاف الأمة في مرحلة الغثاء أو مرحلة الوَهْن .

فمَن أراد أن يحرِّر الأمة من هذه الحالة ، فليبدأ بالطريق الصحيح ، طريق التربية والتزكية ، حتى تنتصر على حبِّ الدنيا ، وتزهد في متاعها الأدنى ، وترغب فيما عند الله ، وفي مثوبة الله ، فتنتصر على ضعفها ، وبالتالي تنتصر على عدوها .

الثاني : الإعراض عن اتِّباع الشهوات :

الأمر الثاني من مقوِّمات الزهد المشروع : الإعراض عن اتباع شهوات الدنيا، كما ذمَّ الله تعالى قوما فقال : ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴾ (مريم:٥٩) ، وفي مقام آخر قال : ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمًا ﴾ (النساء:٢٧) . ومعنى (اتِّباع) الشهوات : أن يكون تابعًا لها ، تأمره فيطيع ، وتسوقه فينساق ، فهو أسير لها . فهذا معنى اتباعها .

وليس معنى الإعراض عنها : رفضها بالكليَّة ، فهذا ضدُّ الفطرة التي فطر الله الخلق عليها ، وضد ما يطلبه الإسلام من عمارة الأرض ، وهذا ما يقتضيه تقدُّم المجتمع المسلم ، وتستوجبه قوَّة الأمة المسلمة وتفوُّقها في شؤون الدين والدنيا ، وارتقاؤها في سُلَّم الحضارة .

ولكن المراد هنا : ألا تكون شهوات الدنيا أكبر همِّه ، ومبلغ علمه، فتُسيِّره الغرائز ، وتستعبده شهوة البطن أو شهوة الفرج ، أو شهوة الزينة والتجمُّل ، أو شهوة المَحْمدة والشهرة ، أو شهوة الجاه والنفوذ ، بحيث لا يقف عندما ينبغي ، بل يفعل ما يشتهي ، ويسترسل في الاستجابة لداعي الغريزة ، وباعث الهوى ، حتى يُمسي عبدًا لها ، كما جاء في الحديث الذي رواه أبو هريرة : « تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم ، تعس عبد القطيفة ، تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش ... »[1] .

---

(١) سبق تخريجه صـ ١٠٠ .

فهذه العبوديَّة هي المذمومة ، لأنها تنافي التوحيد الخالص لله ، الذي يريد من المؤمن أن يكون كله لله، وليس نصفه له ، ونصفه لغيره ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الأنعام:١٦٢).

وقال تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الزمر:٢٩).

تزيين الشهوات للناس :

ومن المعروف أن هذه الشهوات قد زُيِّنت للإنسان ، وأغري بها ، والموفَّق أو الزاهد حقًّا مَن لم توقعه في شراكها، وآثر النعيم الأعلى على المتاع الأدنى ، كما قال الله تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴾ (آل عمران:١٤-١٧).

التحذير من شهوات الدنيا الحسيَّة والمعنويَّة :

وشهوات الدنيا التي يحذر اتباعها نوعان : حسيَّة ومعنويَّة . وعوامُّ الناس يُخشى عليهم من الشهوات الحسيَّة ، وخواصُّهم يخشى عليهم من الشهوات المعنوية .

التحذير من شهوتي البطن والفرج :

ومن هنا حذَّر القرآن وحذَّرت السنة من شهوة البطن بأكل الحرام ، أو شهوة الفرج ، باقتراف فاحشة الزنى ، وعمل قوم لوط ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴾ (النساء:٢٩)، ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ﴾ (البقرة:١٧٣) ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (المائدة:٩٠).

وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ (الإسراء:٣٢) ، ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ (الأعراف:٨٠،٨١) .

وقال ﷺ : « مَنْ يضمن لي ما بين لحييه (يعني : الفم) ، وما بين رجليه (يعني الفرج) ، أضمن له الجنة »[١] .

وقال : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن »[٢] .

تحريم مُقدِّمات الزِّنى :

ولا يكتفي الإسلام بتحريم الزنى ، بل يُجرِّم كل ما يؤدِّي إليه ، أو يساعد عليه من الخلوة والقبلة واللمسة والنظرة ، ولذا قال تعالى : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ (النور:٣٠،٣١).

وفي الحديث : « لا يحلُّ لرجل يؤمن بالله واليوم الآخر أن يخْلو بامرأة إلا وزوجها معها »[٣] .

تحريم الخمر والمسكرات :

ومن الشهوات الحسيَّة : الولع بالخمر والمسكرات ، التي كثيرًا ما يصاب مَن يتناولونها بـ(الإدمان) ، الذي يصبح مرضًا عضالاً ، ينفق على علاجه عشرات المليارات .

---

(١) رواه البخاري في الرقاق (٦٤٧٤) ، وأحمد (٢٢٨٢٣) ، والترمذي في الزهد (٢٤٠٨) ، عن سهل بن سعد .

(٢) سبق تخريجه صـ٢٢ .

(٣) رواه عبد الرزاق في الطلاق (١٢٥٤٤) .

ولا عجب أنْ حرَّم الإسلام الخمر ، واعتبرها (أم الخبائث) ، وعدَّها ـ مع الميسر ـ رجْسًا من عمل الشيطان ، وكبيرة من أكبر الكبائر ، ولذا لعن فيها عشرة[1] : شاربها وساقيها ، وصانعها والمُتَّجر فيها ، وحاملها حتى عاصرها ، أي : الذي يعصر العنب ، ليصير بعد ذلك خمراً ، ملعون على لسان محمد ﷺ .

ومثل الخمر ـ وربما كان أسوأ ـ المخدرات ، التي غدت في نظر العالم سمومًا قاتلة ، ولهذا يحاول الأعداء أن يُهرِّبوها وينشروها في الأمة المعادية لهم ، ليقضوا على مقوِّمات القوة فيها .

والشهوات الحسيَّة هي التي تُهدِّد الحضارة المعاصرة ـ الحضارة الغربية ـ بالهلاك والانحلال ، إذا لم تتدارك نفسها .

ولا حرج على المسلم من شهوة الفرج إذا كانت حلالاً ، وسنعرض لذلك عند حديثنا عن الزواج ، وأنه لا ينافي الزهد ، فقد مات سيد الزاهدين عن تسع نسوة .

خطر الشهوات المعنوية :

وأخطر الشهوات المعنوية : حبُّ المال والثراء ، وحبُّ الجاه والظهور ، وحب التظاهر بالعبادة ، الذي يسمِّيه الدين (الرياء) ، فهذه ـ كما سمَّاها الإمام الغزالي ـ مهلكات ، أي : مهلكات للفرد في دينه ، ومهلكات للأمة إذا انتشرت فيها .

* * *

(١) رواه الترمذي في البيوع (١٢٩٥)، وقال : حديث غريب ، وابن ماجه في الأشربة (٣٣٨١) ، والطبراني في الأوسط (١٣٥٥)، عن أنس ، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (١٠٤١) .

الفصل السادس

موقف الناس من الحياة الدنيا

إذا عرَفنا حقيقة الزهد في الدنيا ، وأن جوهره ومحوره وأساسه يتعلَّق بـ(الإرادة) للآخرة ، وإيثارها على الدنيا : عرَفنا بذلك أنَّ الدنيا ليست مذمومةً في ذاتها ، وليس كلُّ ما فيها مذمومًا لذاته ، كيف وقد خلقها الله للإنسان ليعمُرها ويقوم بخلافته فيها؟ وقد قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ (البقرة:٢٩) ، ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ (لقمان:٢٠) ، ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ (الجاثية:١٣) .

فكيف يخلقها لهم ويُسخِّرها لمنفعتهم ، ثم يُحرِّمها عليهم أو يَحرمهم من طيِّباتها؟ وهذه الآيات وأمثالها هي التي استدلَّ بها الفقهاء على أن الأصل في الأشياء والمنافع الحِل والإباحة .

عمارة الأرض :

ثم إنه تبارك وتعالى قد طلب إلى عباده أن يعمروا الأرض ، كما قال على لسان نبي الله صالح : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ (هود:٦١) ، ومعنى ﴿ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ ﴾، أي : طلب إليكم أن تعمروها ، فكيف يطلب منهم أن يعمروها ، ويذمُّ مَن سعى في خرابها ، ثم يذم من سعى في عمارتها ؟

ما الذي يُذمُّ في الدنيا ؟

لا بد من تحرير المراد هنا ، حتى يتبيَّن الحقُّ من الباطل ، ولا يلتبس الرُّشد بالغيِّ . وقد بيَّنا فيما سبق أن الذي يُذمُّ من الدنيا هو تَعلُّق القلب بها تعلُّقًا يجورُ على حقِّ الله تعالى ، وحقِّ الآخره ، وهو أمرٌ يرجع إلى (الإرادة) قبل كلِّ شيء

لا إلى امتلاك الدنيا ، ولا إلى الاستمتاع بطيِّباتها . وقد ذكرتُ الآيات الكثيرة الموضِّحة لذلك : ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ (الإسراء:١٨،١٩).

فمحور الهلاك أو النجاة هو الإرادة ، أراد الدنيا ، أو أراد الآخرة ، وهذا يعني أن معنى إرادة الدنيا أن يجعل همّه فيها ، بحيث تكون أكبر همِّه ، ومبلغ علمه ، كما قال تعالى : ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ (النجم:٢٩،٣٠).

طوائف أهل الدنيا الغافلون عن الآخرة :

عدَّد الإمام الغزالي في (الإحياء) طوائف الناس في العالم ومواقفهم من الدنيا ، الذين تفاوتت وجهاتهم ، فانقسموا إلى طوائف شتَّى :

الحريصون على كسب القوت والأكل :

فطائفة غلبهم الجهل والغفلة ، فلم تنفتح أعينهم للنظر إلى عاقبة أمورهم ، فقالوا : المقصود أن نعيش أيامًا في الدنيا ، فنجتهد حتى نكسب القوت ، ثم نأكل حتى نقوى على الكسب ، ثم نكسب حتى نأكلَ فيأكلون ليكسبوا، ثم يكسبون ليأكلوا! وهذا مذهب الفلاَّحين والمحترفين ، ومَن ليس له تنعُّم في الدنيا ، ولا قدم في الدين، فإنه يتعب نهارًا ليأكل ليلاً ، ويأكل ليلاً ليتعب نهارًا ، وذلك كسَيْر السَّوَاني[1]، فهو سفر لا ينقطع إلا بالموت .

الحريصون على شَهْوتي البطن والفرج :

وطائفة أخرى زعموا أنهم تفطَّنوا الأمر ، وهو أنه ليس المقصود أن يشقى الإنسان بالعمل ، ولا يتنعَّم في الدنيا ، بل السعادة في أن يقضي وطره من شهوة الدنيا، وهي شهوة البطن والفرج ، فهؤلاء نسوا أنفسهم ، وصرفوا هممهم إلى اتباع

---

(١) السواني جمع سانية ، وهي الناقة التي يُسقى عليها وفي المثل : سير السَّوَاني سفر لا ينقطع . مختار الصحاح صـ٣٢٦ .

النسوان ، وجمع لذائذ الأطعمة ، يأكلون كما تأكل الأنعام ، ويظنُّون أنهم إذا نالوا ذلك ، فقد أدركوا غاية السعادة ، فشغلهم ذلك عن الله تعالى ، وعن اليوم الآخر .

الحريصون على الاستكثار من المال :

وطائفة ظنُّوا أن السعادة في كثرة المال ، والاستغناء بكثرة الكنوز ، فأسهروا ليلهم ، وأتعبوا نهارهم ، في الجمع . فهم يتعبون في الأسفار ، طول الليل والنهار ، ويتردَّدون في الأعمال الشاقة ، ويكتسبون ويجمعون ، ولا يأكلون إلا قدر الضرورة ، شحًّا وبخلا عليها أن تنقص . وهذه لذَّتهم ، وفي ذلك دأبهم وحركتهم ، إلى أن يدركهم الموت فيبقى تحت الأرض ، أو يظفر به مَن يأكله في الشهوات واللذات ، فيكون للجامع تعبه ووباله ، وللآكل لذَّته ، ثم الذين يجمعون ينظرون إلى أمثال ذلك ولا يعتبرون .

الحريصون على الثناء والمدح :

وطائفة ظنُّوا أن السعادة في حُسن الاسم ، وانطلاق الألسنة بالثناء والمدح بالتجمُّل والمروءة ، فهؤلاء يتعبون في كسب المعاش ، ويُضيِّقون على أنفسهم في المطعم والمشرب ، ويصرفون جميع مالهم إلى الملابس الحسنة ، والدواب النفيسة، ويزخرفون أبواب الدور ، وما يقع عليه أبصار الناس ، حتى يُقال : إنه غني ، وإنه ذو ثروة . ويظنُّون أن ذلك هو السعادة ، فهمَّتهم في نهارهم وليلهم في تعهُّد موقع نظر الناس .

الحريصون على الجاه والمكانة :

وطائفة أخرى ظنُّوا أنَّ السعادة في الجاه والكرامة بين الناس ، وانقياد الخلق بالتواضع والتوقير ، فصرفوا هممهم إلى استجرار الناس إلى الطاعة ، لطلب الولايات ، وتقلُّد الأعمال السلطانية ، لينفذ أمرهم بها على طائفة من الناس ، ويرون أنهم إذا اتَّسعت ولايتهم ، وانقادت لهم رعاياهم ، فقد سعدوا سعادةً عظيمة ، وأن ذلك غاية المطلب . وهذا أغلب الشهوات على قلوب الغافلين من الناس ، فهؤلاء شغلهم حبُّ تواضع الناس لهم عن التواضع لله ، وعن عبادته ، وعن التفكُّر في آخرتهم ومعادهم .

المقصود من المطعم والملبس والمسكن :

ووراء هؤلاء طوائف يطول حصرها ، تزيد على نَيِّف وسبعين فرقة ، كلُّهم قد ضلُّوا وأضلُّوا عن سواء السبيل . وإنما جرَّهم إلى جميع ذلك حاجة المطعم والملبس والمسكن ، ونسَوا ما تُراد له هذه الأمور الثلاثة ، والقدر الذي يكفي منها ، وانجرَّت بهم أوائل أسبابها إلى أواخرها ، وتداعى بهم ذلك إلى مَهَاوٍ لم يمكنهم الرقي منها .

فمَن عرَف وجه الحاجة إلى هذه الأسباب والأشغال ، وعرَف غاية المقصود منها ، فلا يخوض في شغل وحرفة وعمل ، إلا وهو عالمٌ بمقصوده ، وعالمٌ بحظِّه ونصيبه منه ، وأنَّ غاية مقصوده تعهُّد بَدَنه بالقُوت والكسوة حتى لا يهلك . وذلك إنْ سلك فيه سبيل التقليل اندفعت الأشغال عنه ، وفرغ القلب ، وغلب عليه ذكر الآخرة ، وانصرفت الهمَّة إلى الاستعداد لها . وإن تعدَّى به قدرَ الضرورة كثرت الأشغال ، وتداعى البعض إلى البعض ، وتَسَلْسل إلى غير نهاية ، فَتَتشَعَّب به الهموم ، ومَنْ تشعَّبت به الهموم في أودية الدنيا ، فلا يبالي الله في أيِّ وادٍ أهلكه منها . فهذا شأن المنهمكين في أشغال الدنيا .

طوائف المعرضين عن الدنيا :

وتنبَّه لذلك طائفة فأعرضوا عن الدنيا ، فحسدهم الشيطان ، ولم يتركهم ، وأضلَّهم في الإعراض أيضًا حتى انقسموا إلى طوائف :

القاتلون أنفسهم :

أ- فظنَّت طائفة أن الدنيا دار بلاء ومحنة ، والآخرة دار سعادة لكلِّ مَن وصل إليها ، سواء تعبَّد في الدنيا أو لم يتعبَّد ، فرأوا أنَّ الصواب في أن يقتلوا أنفسهم للخلاص من محنة الدنيا . وإليه ذهب طوائف من العبَّاد من أهل الهند ، فهم يتهجَّمون على النار ، ويقتلون أنفسهم بالإحراق ، ويظنُّون أن ذلك خلاص لهم من محن الدنيا !

المُشَدِّدون على أنفسهم :

ب ـ وظنَّت طائفة أخرى أنَّ القتل لا يُخلِّص ، بل لا بد أولاً من إماتة الصفات البشرية ، وقطعها عن النفس بالكلية ، وأن السعادة في قطع الشهوة والغضب ، ثم أقبلوا على المجاهدة ، وشدَّدوا على أنفسهم ، حتى هلك بعضهم بشدَّة الرياضة ، وبعضهم فسد عقله وجُنَّ ، وبعضهم مرض وانسدَّ عليه الطريق في العبادة ، وبعضهم عجز عن قمع الصفات بالكلية ، فظنَّ أن ما كلَّفه الشرع محال ، وأن الشرع تلبيس لا أصل له ، فوقع في الإلحاد . وظهر لبعضهم أن هذا التعب كلَّه لله ، وأن الله تعالى مُسْتغنٍ عن عبادة العباد ، لا ينقصه عصيان عاصٍ ، ولا تزيده عبادة متعبِّد فعادوا إلى الشهوات ، وسلكوا مسلك الإباحة ، وطَوَوا بساط الشرع والأحكام ، وزعموا أن ذلك من صفاء توحيدهم حيث اعتقدوا أن الله مستغنٍ عن عبادة العباد .

تاركو العبادة :

ج ـ وظنَّ طائفة أن المقصود من العبادات المجاهدة حتى يصل العبد بها إلى معرفة الله تعالى ، فإذا حصلت المعرفة فقد وصل ، وبعد الوصول يستغني عن الوسيلة والحيلة ، فتركوا السعي والعبادة ، وزعموا أنه ارتفع محلُّهم في معرفة الله سبحانه عن أن يمتهنوا بالتكاليف ، وإنما التكليف على عوامِّ الخلق .

د ـ ووراء هذا مذاهب باطلة ، وضلالات هائلة ، يطول إحصاؤها إلى ما يبلغ نيِّفا وسبعين فرقة .

موقف الفرقة الناجية في التعامل مع الدنيا والشهوات :

وإنما الناجي منها فرقة واحدة ، وهي السالكة ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه ، وهو أن لا يترك الدنيا بالكلية ، ولا يقمع الشهوات بالكلية . أما الدنيا فيأخذ منها قدر الزاد ، وأما الشهوات فيقمع منها ما يخرج عن طاعة الشرع والعقل ، ولا يتَّبع كلَّ شهوة ، ولا يترك كلَّ شهوة ، بل يتَّبع العدل ، ولا يترك كلَّ شيء من الدنيا ، ولا يطلب كلَّ شيء من الدنيا ، بل يعلم مقصود كلِّ ما خُلق من

الدنيا ، ويحفظه على حدِّ مقصوده ، فيأخذ من القُوت ما يُقوِّي به البدن على العبادة ، ومن المسكن ما يحفظ عن اللصوص والحرِّ والبرد ، ومن الكسوة كذلك ، حتى إذا فرغ القلب من شغل البدن ، أقبل على الله تعالى بكُنْه همَّته ، واشتغل بالذكر والفكر طول العمر ، وبقي ملازمًا لسياسة الشهوات ومراقبًا لها ، حتى لا يجاوز حدود الورع والتقوى .

منهج الصحابة الوسط :

ولا يُعلم تفصيل ذلك إلا بالاقتداء بالفرقة الناجية وهم الصحابة ، فإنه عليه السلام لما قال : الناجي منها واحدة قالوا : يا رسول الله ، ومَن هي؟ قال : « ما أنا عليه وأصحابي »[1].

وقد كانوا على النهج القصد ، وعلى السبيل الواضح ، الذي فصَّلناه من قبل ، فإنهم ما كانوا يأخذون الدنيا للدنيا ، بل للدين ، وما كانوا يترهَّبون ويهجرون الدنيا بالكلية ، وما كان لهم في الأمور تفريط ولا إفراط ، بل كان أمرهم بين ذلك قَوَامًا ، وذلك هو العدل والوسط بين الطرفين ، وهو أحبُّ الأمور إلى الله تعالى . والله أعلم[2].

قال الحافظ ابن رجب : وانقسم بنو آدم في الدُّنيا إلى قسمين :

أحدهما : منكر الآخرة :

مَن أنكر أن يكون للعباد بعد الدنيا دار للثواب والعقاب ، وهؤلاء هم الذين قال الله فيهم : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ (يونس:٧،٨) ، وهؤلاء همُّهم التمتُّع بالدنيا ، واغتنام لذَّاتها قبل الموت ، كما قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ (محمد:١٢).

---

(١) انظر تخريج الحديث والكلام عليه في كتابنا (الصحوة بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم) صـ٣٤ ، طبعة دار الشروق .

(٢) إحياء علوم الدين ، ربع المهلكات ، كتاب ذم الدنيا (٣/٢٢٨-٢٣٠)، طبعة دار المعرفة ، بيروت

ومن هؤلاء مَن كان يأمر بالزُّهد في الدنيا ؛ لأنه يرى أنَّ الاستكثار منها يُوجب الهمَّ والغمَّ ، ويقول : كلَّما كثُر التعلُّق بها ، تألَّمت النفس بمفارقتها عند الموت . فكان هذا غاية زهدهم في الدنيا .

تفاوت المؤمنين في فهم حقيقة الدنيا :

والقسم الثاني : المؤمنون بالآخرة ، وهم متفاوتون :

مَنْ يقرُّ بدار بعد الموت للثواب والعقاب ، وهم المنتسبون إلى شرائع المرسلين ، وهم منقسمون إلى ثلاثة أقسام : ظالم لنفسه ، ومقتصد ، وسابق بالخيرات بإذن الله .

الظالم لنفسه :

فالظالم لنفسه : هم الأكثرون منهم ، وأكثرهم وقف مع زهرة الدنيا وزينتها ، فأخذها من غير وجهها ، واستعملها في غير وجهها ، وصارت الدنيا أكبر همِّه ، لها يغضب ، وبها يرضى ، ولها يُوالي ، وعليها يُعادي ، وهؤلاء هم أهل اللهو واللعب والزينة والتفاخر والتكاثر ، وكلُّهم لم يعرفِ المقصود من الدنيا ، ولا أنها منزل سفر يتزوَّد منها لما بعدها من دار الإقامة ، وإن كان أحدهم يؤمن بذلك إيمانًا مجملاً ، فهو لا يعرفهُ مفصَّلاً ، ولا ذاق ما ذاقه أهل المعرفة بالله في الدنيا ، ممَّا هو أُنموذج ما ادُّخر لهم في الآخرة .

المقتصد :

و(المقتصد) منهم أخذ الدنيا من وجوهها المباحة ، وأدَّى واجباتها ، وأمسك لنفسه الزائد على الواجب ، يتوسَّع به في التمتُّع بشهوات الدنيا ، وهؤلاء قد اختُلف في دخولهم في اسم الزَّهادة في الدنيا . ولا عقاب عليهم في ذلك ، إلاَّ أنه ينقص من درجاتهم من الآخرة بقدر توسُّعهم في الدُّنيا .

قال ابن عمر : لا يصيب عبد من الدنيا شيئًا إلاَّ نقص من درجاته عند الله ، وإن كان عليه كريمًا[1] . أخرَّجه ابن أبي الدنيا بإسناد جيِّد . وروي مرفوعًا من حديث عائشة بإسناد فيه نظر[2].

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (٣١١) ، وهناد في الزهد (٥٥٧) .

(٢) قال المنذري في الترغيب والترهيب (٤/٧٧) : رواه ابن أبي الدنيا وإسناده جيد ، وروي عن عائشة مرفوعًا ، والموقوف أصح .

وروى الإمام أحمد في كتاب (الزهد) بإسناده : أنَّ رجلاً دخل على معاوية ، فكساه ، فخرج فمرَّ على أبي مسعود الأنصاري ورجلٍ آخر من الصحابة ، فقال أحدهما له : خذها من حسناتك . وقال الآخر : من طيِّباتك[1].

وبإسناده عن عمر قال : لولا أن تنقص حسناتي لخالطتكم في لين عيشكم ، ولكني سمعتُ الله عيَّر قومًا ، فقال : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا ﴾ (الأحقاف: ٢٠)[2].

وقال الفُضيل بن عِياض : إنْ شئت استَقِلَّ من الدنيا ، وإنْ شئتَ استكثر منها ، فإنما تأخذ من كيسك .

ويشهد لهذا أن الله عزَّ وجلَّ ، حرَّم على عباده أشياء من فضول شهوات الدنيا وزينتها وبهجتها ، حيث لم يكونوا محتاجين إليه ، وادَّخره لهم عنده في الآخرة ، وقد وقعت الإشارة إلى هذا بقوله عزَّ وجلَّ : ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (الزخرف:٣٣-٣٥).

وصحَّ عن النبيِّ ﷺ ، أنَّه قال : «مَن لبس الحرير في الدنيا ، لم يلبسه في الآخرة»[3] ، و«مَن شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة»[4] . وقال : «لا تلبسوا الحرير ولا الديباج ، ولا تشربوا في آنية الذهب والفضَّة ، ولا تأكُلُوا في صحافها ، فإنها لهم في الدنيا ، ولكم في الآخرة»[5] .

---

(١) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٠٩/٤٠) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في إصلاح المال (٣٥٦) ، ولم يذكر الآية .

(٣) متفق عليه : رواه البخاري (٥٨٣٤) ، ومسلم (٢٠٦٩) ، كلاهما في اللباس ، كما رواه أحمد (١٨١) ، والنسائي في الزينة (٥٣٠٥) ، عن عمر بن الخطاب .

(٤) متفق عليه : رواه البخاري (٥٥٧٥) ، ومسلم (٢٠٠٣) ، وأبو داود (٣٦٧٩) ، والترمذي (١٨٦١) ، والنسائي (٥٦٧١) ، وابن ماجه (٣٣٧٣) ، جميعهم في الأشربة ، عن ابن عمر .

(٥) متفق عليه : رواه البخاري في الأطعمة (٥٤٢٦) ، ومسلم في اللباس والزينة (٢٠٦٧) ، كما رواه أحمد (٢٣٣٦٤) ، وأبو داود (٣٧٢٣) ، والترمذي (١٨٧٨) ، كلاهما في الأشربة ، والنسائي في الزينة (٥٣٠١) ، وابن ماجه في الأشربة (٣٤١٤) ، عن حذيفة .

قال وهب : إنَّ الله عزَّ وجلَّ ، قال لموسى عليه السلام : إني لأذود أوليائي عن نعيم الدنيا ورخائها ، كما يذودُ الراعي الشفيق إبله عن مبارك العُرَّةِ ، وما ذلك لهوانهم عليَّ ، ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتي سالمًا مُوفَّرًا لم تَكْلَمْه الدُّنيا[1].

ويشهد لهذا ما خرَّجه الترمذي ، عن قتادة بن النعمان ، عن النَّبيِّ ﷺ قال :« إن الله إذا أحبَّ عبدًا حماه عَنِ الدُّنيا ، كما يظلُّ أحدكم يحمي سقيمه الماء»[2].
وخرَّجه الحاكم ، ولفظه : « إن الله ليحمي عبدَه الدنيا وهو يحبُّه ، كما تحمُون مريضكم الطعام والشراب ، تخافون عليه»[3].

وفي صحيح مسلم ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « الدنيا سجن المؤمن ، وجنَّة الكافر»[4].

السابق بالخيرات :

وأما (السابق بالخيرات) بإذن الله ، فهم الذينَ فَهموا المراد من الدنيا ، وعملوا بمقتضى ذلك ، فعلموا أنَّ الله إنما أسكن عباده في هذه الدار ، ليبلوهم أيُّهم أحسن عملا ، كما قال : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ (هود:٧) ، وقال : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ (الملك:٢).

قال بعض السلف : أيُّهم أزهد في الدنيا ، وأرغب في الآخرة ، وجعل ما في الدنيا مِنَ البهجة والنَّضرة محنة ، لينظر مَن يقف منهم معه ، ويركن إليه ، ومَن ليس كذلك ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ (الكهف:٧)، ثم بيَّن انقطاعه ونفاده ، فقال : ﴿ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾(الكهف:٨)، فلما فَهموا أنَّ هذا هو المقصود من الدنيا ،

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في التواضع (٩) ، والدينوري في المجالسة (١٨٩٤) .
(٢) سبق تخريجه صـ ٦٤ .
(٣) سبق تخريجه صـ ٦٤ .
(٤) رواه مسلم في الزهد (٢٩٥٦) ، وأحمد (٨٢٨٩) ، والترمذي (٢٣٢٤) ، وابن ماجه (٤١١٣) ، كلاهما في الزهد ، عن أبي هريرة .

جعلوا همَّهم التزوُّد منها للآخرة التي هي دار القرار ، واكتفَوا من الدنيا بما يكتفي به المسافر في سفره ، كما كان النبيُّ ﷺ يقول :« ما لي وللدنيا ، إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب قالَ (قضى القيلولة) في ظلِّ شجرة ، في يوم صيف فراح وتركها »[١].

ووصَّى ﷺ ، جماعة من الصحابة أن يكون بلاغ أحدِهم « من الدنيا كزاد الراكب» ، منهم : سلمان[٢] ، وأبو عبيدة بن الجرَّاح ، وأبو ذرٍّ ، وعائشة[٣]، ووصَّى ابن عمر أن يكون في الدنيا « كأنه غريب أو عابر سبيل »[٤].

السابقون صنفان :

وأهل هذه الدرجة على قسمين : منهم مَن يقتصر من الدنيا على قَدر ما يسدُّ الرمق فقط ، وهو حالُ كثير من الزهَّاد .

ومنهم مَن يفسح لنفسه أحيانًا في تناول بعض شهواتها المباحة ؛ لتقوى النفس بذلك ، وتنشط للعمل ، كما روي عنِ النبيِّ ﷺ أنه قال : « حُبِّب إليَّ من دنياكم : النساء والطيب ، وجُعِلَتْ قُرَّة عيني في الصَّلاة» . خرَّجه الإمام أحمد والنسائي من حديث أنس[٥].

---

(١) رواه أحمد (٣٧٠٩) ، وقال مخرِّجوه : صحيح ، والترمذي في الزهد (٢٣٧٧) ، وقال : حسن صحيح ، ووافقه الألباني كما في الصحيحة (٤٣٨) ، وابن ماجه في الزهد (٤١٠٩)، عن عبد الله ابن مسعود .

(٢) رواه أحمد (٢٣٧١١) ، وقال مخرجوه : حديث صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين إلا أنه مرسل ، وابن ماجه في الزهد (٤١٠٤) ، والطبرى في تهذيب الآثار (٤٣٠) ، وابن حبان في الرقائق (٧٠٦) ، وصححه الألباني في الصحيحه (١٧١٦) .

(٣) رواه الترمذي في اللباس (١٧٨٠) ، وقال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث صالح ابن حسان ، وسمعت محمداً (يعنى البخاري) يقول : صالح بن حسان منكرالحديث ، وصالح ابن حسان ـ الذي روى عنه ابن أبي ذئب ـ ثقة ، لا نعرفه إلا من حديث صالح بن حسان ، وقال الألباني ضعيف جدا ، وأبو يعلى في مسنده (٤٦١٠)، والحاكم في الرقاق (٣١٢/٤)، وصححه ، وقال الذهبي : سعيد بن محمد الوراق عدم ، أي : ساقط الحديث ، والبيهقي في الشعب باب الزهد (١٠٣٩٨) .

(٤) رواه البخاري في الرقائق (٦٤١٦) ، وأحمد (٤٧٦٤) ، والترمذي (٢٣٣٣) ، وابن ماجه (٤١١٤) ، كلاهما في الزهد ، عن عبد الله بن عمر .

(٥) سبق تخريجه صـ ١٠٥ .

وقال وهب : مكتوب في حكمة آل داود عليه السلام : ينبغي للعاقل أن لا يَغفُل عن أربع ساعات : ساعة يُحاسِب فيها نفسه ، وساعة يُناجي فيها ربَّه ، وساعة يلقى فيها إخوانه ، الذين يُخبرونه بعيوبه ، ويصدقونه عن نفسه ، وساعة يخلِّي بين نفسه وبين لذَّاتها فيما يحلُّ ويجمل ، فإنَّ في هذه الساعة عَوْنًا على تلك الساعات ، وفَضْلَ بُلغة ، واستجمامًا للقلوب[1] . يعني : ترويحًا لها .

ومتى نوى المؤمن بتناول شهواته المباحة التقوِّي على الطاعة ، كانت شهواته له طاعة يُثابُ عليها ، كما قال معاذ بن جبل : إني لأحتسب نومتي كما أحتسب قَوْمتي[2] . يعني : أنَّه ينوي بنومه التقوِّي على القيام في آخر الليل ، فيحتسِبُ ثواب نومه ، كما يحتسب ثواب قيامه .

وكان بعضهم إذا تناول شيئًا من شهواته المباحة وَاسَى منها إخوانه ، كما روي عن ابن المبارك : أنه كان إذا اشتهى شيئًا لم يأكله حتى يشتهيه بعضُ أصحابه ، فيأكله معهم ، وكان إذا اشتهى شيئًا ، دعا ضيفًا له ليأكل معه .

وكان يُذكر عن الأوزاعي أنه قال : ثلاثة لا حساب عليهم في مطعمهم : المُتَسحِّر ، والصائم حين يفطر ، وطعام الضيف[3])[4] اهـ كلام الحافظ ابن رجب .

تنوُّع مشاهد الزاهدين في الدنيا :

والزاهدون في الدُّنيا بقلوبهم لهم مَلاحظ ومَشَاهد يشهدونها ـ كما قال العلاَّمة ابن رجب رحمه الله :

١- فمنهم : مَن يشهد كثرة التعب بالسعي في تحصيلها ، فهو يزهد فيها قصدًا لراحة نفسه . قال الحسن : الزهد في الدنيا يريح القلب والبدن .

٢- ومنهم : مَن يخاف أن ينقص حظُّه من الآخرة بأخذ فضولِ الدنيا .

---

(١) رواه ابن المبارك في الزهد (٣١٣) ، والبيهقي في الشعب باب تعديد نعم الله (٤٦٧٧) .

(٢) جزء من حديث متفق عليه : رواه البخاري في استتابة المرتدين (٦٩٢٣) ، ومسلم في الإمارة (١٧٣٣) ، كما رواه أحمد (١٩٦٨١) ، وأبو داود في الأقضية (٣٥٧٩) .

(٣) رواه أبو نعيم في الحلية (٧٢/٦) .

(٤) انظر : جامع العلوم والحكم لابن رجب بتحقيق الأرناؤوط (١٨٦/٢-١٩٣) ، بتصرف .

٣- ومنهم : مَن يخاف من طول الحساب عليها ، قال بعضهم : مَن سأل الله الدنيا ، فإنما يسأل طول الوقوف للحساب[١].

٤- ومنهم : مَن يشهد كثرة عيوب الدنيا ، وسرعة تقلُّبها وفنائها ، ومزاحمة الأراذل في طلبها . كما قيل لبعضهم : ما الذي زهَّدك في الدنيا ؟ قالَ : قلَّة وفائها ، وكثرةُ جفائها ، وخسَّة شركائها .

٥- ومنهم : مَن كان ينظر إلى حَقارة الدنيا عند الله ، فيقذرها ، كما قال الفضيل : لو أن الدنيا بحذافيرها عُرضت عليَّ حلالاً لا أُحاسب بها في الآخرة ، لكنت أتقذَّرها كما يتقذَّر الرجلُ الجيفةَ إذا مرَّ بها أن تصيبَ ثوبه[٢].

٦- ومنهم : مَن كان يخاف أن تشغله عن الاستعداد للآخرة والتزوُّد لها ، قال الحسن : إن كان أحدهم ليعيش عمره مجهودًا شديد الجَهد ، والمال الحلال إلى جنبه ، يقال له : ألا تأتي هذا فتُصيب منه ؟ فيقول : لا والله ، لا أفعل ، إنِّي أخافُ أن آتيه ، فأصيبَ منه ، فيكونَ فسادَ قلبي وعملي[٣].

وبُعث إلى عمر بن المنكدر بمال ، فبكى واشتدَّ بكاؤه ، وقال : خشيتُ أن تغلب الدنيا على قلبي ، فلا يكون للآخرة فيه نصيب ، فذلك الذي أبكاني . ثم أُمر به ، فتُصُدِّقَ به على فقراء أهل المدينة[٤].

خشية الزهَّاد من الاشتغال بالدنيا عن الله :

وخواصُّ هؤلاء يخشى أحدهم أن يشتغل بها عن اللهِ ، كما قالت رابعة : ما أحبُّ أن لي الدنيا كلَّها من أوَّلها إلى آخرها حلالاً ، وأن أنفقها في سبيل الله ، وأنها شغلتني عنِ الله طرفةَ عين .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (٢٦١) ، عن بشر الحافي .

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٨/٨٩) ، وابن عساكر في تاريخه (٤٨/٤١٤) .

(٣) رواه أحمد في الزهد صـ٢٦٠ ، وأبو نعيم في الحلية (٦/٢٦٩) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في الرقة والبكاء (٦٣) .

وقال أبو سليمان : الزهد ترك ما يشغل عن الله[1]. وقال : كلُّ ما شغلك عن الله من أهل ومال وولد ، فهو مشؤوم[2].

وقال : أهل الزهد في الدنيا على طبقتين : منهم مَن يزهد في الدنيا ، فلا يُفتَح له فيها رُوح الآخرة ، ومنهم من إذا زَهد فيها ، فُتح له فيها رُوح الآخرة ، فليس شيء أحبَّ إليه من البقاء ليطيع الله[3].

وقال : ليس الزاهد مَن ألقى هموم الدنيا ، واستراح منها ، إنما الزاهد مَن زهد في الدنيا ، وتعب فيها للآخرة[4] .

فالزهد في الدنيا يُراد به تفريغ القلب من الاشتغال بها ؛ ليتفرَّغ لِطلب الله ، ومعرفته ، والقُرب منه ، والأُنس به ، والشوق إلى لقائه ، وهذه الأمور ليست من الدنيا ، كما كان النبيُّ ﷺ يقول : « حُبِّب إليَّ من دنياكم : النساء والطيب ، وجُعلت قرَّة عيني في الصلاة »[5]. ولم يجعل الصلاة ممَّا حُبِّب إليه من الدنيا ، كذا في المسند والنسائي . وروى بلفظ : « حُبِّبَ إليَّ من دنياكم ثلاث »[6] ، فأدخل الصلاة في الدنيا ، ويشهدُ لذلك حديث : « الدنيا ملعونة ، ملعون ما فيها ، إلا ذكر الله وما والاه ، أو عالما أو متعلِّما »[7]. خرَّجه ابن ماجه والترمذي وحسَّنه ، من حديث أبي هريرة مرفوعا ، وروى نحوه من غير وجه مرسلا ومتَّصلا[8].

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٩/٢٥٨) .

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٩/٢٦٤) ، والخطيب في تاريخه (١٠/٢٤٨) .

(٣) رواه ابن الأعرابي في الزهد (٤٧) ، وأبو نعيم في الحلية (٩/٢٧٤) .

(٤) رواه أبو نعيم في الحلية (٩/٢٧٣) ، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٤/١٤٤) .

(٥) سبق تخريجه صـ ١٠٥ .

(٦) قال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٦/٣٠) : وليس بمحفوظ بهذا فإن الصلاة ليست من أمور الدنيا وإنما هي من أهم شؤون الآخرة . قال المناوي في فيض القدير (٣/٤٨٩) : من زاد كالزمخشري والقاضي ـ لفظ ثلاث ـ فقد وهم .

(٧) سبق تخريجه صـ ٧٤ .

(٨) رواه الطبراني في الأوسط (٤٠٧٢) ، عن أبي مسعود الأنصاري .

وخرَّج الطبراني ، من حديث أبي الدرداء مرفوعًا قال : « الدنيا ملعونة ، ملعون ما فيها إلا ما ابتُغِيَ به وجه الله »[1] ، وخرَّجه ابن أبي الدنيا موقوفا[2] ، وخرَّجه أيضا من رواية شَهْر بن حوشب ، عن عُبادة ، أراه رفعه ، قال : « يُؤتى بالدنيا يوم القيامة ، فيقال : ميِّزوا منها ما كان لله عزَّ وجلَّ ، وألقوا سائرها في النار »[3].

المقصود من الدنيا الملعونة :

فالدنيا وكلُّ ما فيها ملعونة ، أي : مُبْعِدة عن الله ؛ لأنها تَشْغلُ عنه ، إلا العلم النافع الدالُّ على الله ، وعلى معرفته ، وطلب قُربه ورضاه ، وذكر الله وما والاه مما يُقرِّب من الله ، فهذا هو المقصود من الدنيا ، فإنَّ الله إنما أمر عباده بأن يتَّقوه ويطيعوه ، ولازم ذلك : دوام ذكره ، كما قال ابن مسعود : « تقوى الله حقَّ تقواه أن يُذكر فلا يُنسى »[4]، وإنما شرع الله إقام الصلاة لذكره ، وكذلك الحجَّ والطواف . وأفضل أهل العبادات أكثرُهم ذكرًا لله فيها ، فهذا كلُّه ليس من الدنيا المذمومة ، وهو المقصود من إيجاد الدنيا وأهلها ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات:٥٦)[5] انتهى .

* * *

---

(١) رواه الطبراني في مسند الشاميين (٦١٢) ، وقال الهيثمي (٣٨١/١٠) : فيه خداش بن المهاجر ، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٢٤/١) ، رواه الطبراني بإسناد لا بأس به ، وقال الألباني : حسن لغيره ، صحيح الترغيب (٣/١) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (١٨٥) .

(٣) المصدر السابق (٦) .

(٤) رواه ابن جرير في جامع البيان (٧٥٣٦) ، والطبراني (٩٢/٩) ، وأبو نعيم في الحلية (٢٣٨/٧) ، وقال الهيثمي في المجمع (٤٨/٧) : رواه الطبراني بإسنادين رجال أحدهما رجال الصحيح والآخر ضعيف .

(٥) جامع العلوم والحكم لابن رجب (١٩٦/٢-١٩٩) .

الفصل السابع

عقبات في طريق الزهد

ما الذي يمنع الإنسان المسلم من الزهد في الدنيا ، ويجعله مشغولاً بزخارفها وزينتها ومتاعها الأدنى ، وينسى الآخرة التي هي دار البقاء والخلود؟

إنا ننظر إلى الناس في الدنيا ، فنراهم فيها راغبين ، وإليها جانحين ، وعليها مكبِّين ، وعلى حطامها متنافسين ، بل متسابقين ، وعن الآخرة غافلين ، ما سرُّ هذا ؟ وما العوائق أو العقبات التي تحُول بين المُكلَّفين ، وبين الإقبال على الآخرة الباقية ، والزهد في الدنيا الفانية ؟

الحقُّ أنَّ هناك عقبات شتَّى في هذا الطريق ، يجب على مُريد الآخرة أن يعرفها ، ليجتهد في تجاوزها والتغلُّب عليها .

وهذه العقبات التى سنتحدث عنها في هذا الفصل :

١- الغفلة .　　٢- طول الأمل .

٣- انتشار القيم المادية .　　٤- افتقاد القدوة .

وإليك تفصيل هذه العوائق لتجتنبها وتتخلَّى عنها .

أولاً : الغفلة :

أول هذه العوائق والعقبات هو : الغفلة التي تصيب بعض الناس ، فتتعطَّل عقولهم عن الفَهم ، وحواسُّهم عن الإدراك ، وكأنهم مُخدَّرون !

فهم في غفلة عن (الله) جلَّ شأنه ، وهو الذي خلقهم ورزقهم ، وأسبغ عليهم نِعمه ظاهرة وباطنة .

الغفلة عن الموت :

وهم في غفلة عن (الموت) هاذم اللذات ، الذي ينتظرهم ، وهو أصدق غائب ينتظر ، وسواءٌ طال العمر أم قصُر ، فإنَّ الموت آتٍ لا محالة ، لا بدَّ من يوم يقال فيه : فلان مات! فيصبح مجرَّد خبر يذاع في الناس ، كما قال الشاعر(١):

حكم المنيَّة في البرية جار ... ما هذه الدنيا بدار قرار!

بينا يُرى الإنسان فيها مُخبرًا ... حتى يُرى خبرًا من الأخبار

الغفلة عما بعد الموت :

ثمَّ الغفلة عمَّا بعد الموت ، والموت أشدُّ ما قبله ، وأهون ما بعده ، فبعد الموت يكون القبر ، يوضع المرء في حفرة من تراب الأرض ، متر في مترين أو أقل ، يدخل المرء هذه الحفرة وحده ، ليس معه أهل ولا مال ، ولا أنيس له إلا عمله .

وقد كان عثمان ﷺ ، إذا رأى القبر اشتدَّ بكاؤه حتى تبلَّ دموعُه لحيته . فقيل له : تذكر الجنة والنار ، فلا تبكي مثل هذا البكاء! فقال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : «القبر أول منازل الآخرة»(٢).

وبعد القبر هناك البعث وأهوال يوم القيامة ، من الموقف والحشر والحساب والميزان والصراط والجنة والنار ، وكما يقول الشاعر :

ولو أنا إذا متنا تُركنا ... لكان الموت راحة كلِّ حيٍّ

ولكنَّا إذا متنا بُعثنا ... لنسأل بعدها عن كلِّ شيٍّ(٣)

الغفلة عن مصاير الغابرين :

والغفلة عن مصاير الغابرين من حولنا ، ومن قبلنا، ممَّن نعرفهم ونُحبُّهم ، ومَن لا نعرفهم ، وكذلك مصاير الأمم من قبلنا ، ممن أثاروا الأرض وعمروها ، تمتَّعوا

---

(١) من شعر أبي الحسن علي بن محمد التهامي في مطلع مرثيته الشهيرة لولده .

(٢) رواه أحمد (٤٥٤) ، وقال مخرجوه : إسناده صحيح ، والترمذي (٢٣٠٨) ، وقال : حسن غريب ، وابن ماجه (٤٢٦٧) ، كلاهما في الزهد ، والحاكم في الرقائق (٣٣٠/٤) ، وصححه ووافقه الذهبي ، والبيهقي في الجنائز (٥٦/٤) ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (٢٥٦٤) ، عن عثمان بن عفان .

(٣) ينسب إلى علي بن أبي طالب .

فيها سنين ، ﴿ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴾ (الشعراء:٢٠٦،٢٠٧) .

الغفلة حجاب كثيف :

هذه (الغفلة) تُمثِّل حجابًا كثيفًا تحول دون رؤية الحياة الدنيا على حقيقتها ، فهي تُصغِّر أمر الآخرة ، وتُعظِّم أمر الدنيا ، وتُبعِّد الأمر القريب ، وتُقرِّب الأمر البعيد ، وبهذا تلتبس الأمور ، وتتغبَّش الرؤية ، ولهذا ذمَّ القرآن الغفلة ، وجعلها وراء كلِّ شرٍّ ، يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ (الأعراف:١٧٩).

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ (يونس:٧،٨).

ولا غَرْو أن وجَّه الله تعالى رسوله ، فقال : ﴿ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ (الأعراف:٢٠٥) ، وقال : ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ (الكهف:٢٨).

أهمية يقظة القلب وبصيرته :

والمطلوب من السالك في منازل السائرين في الطريق إلى الله : أن يستبدل بالغفلة (اليقظة) ، أعني يقظة القلب وبصيرته ، بحيث يُزيح الغفلة عنه ، لينتبه إلى ما يجب الانتباه إليه من ذكر الله والدار الآخرة .

ولا يُغْني عن هذه اليقظة : تحصيل العلوم والمعارف ، التي تزيد خبرته بالحياة الدنيا ، وكيفية الاستمتاع بما فيها ، وهو ليس مذمومًا ما دام في الحدود المشروعة ، ولكنه لا يبصِّره بالغاية التي خُلق لها ، والرسالة التي يجب أن يؤدِّيها . ولهذا لا يكفي هنا هذا العلم وحده ، لأنه علم بـ(ظاهر الحياة الدنيا) كما قال تعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ (الروم:٦،٧) .

ثانيًا : طول الأمل :

ومن العوائق والعقبات في طريق الزهد ، والإقبال على الآخرة : (طول الأمل).

ومعنى طول الأمل : أن يعيش المرء في الدنيا وكأنه مُخلَّد فيها ، يستبعد الموت ، فلا يكاد يخطر له على بال . وإذا كان ينسب إلى بعض الصحابة قولهم : اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا[1]. فأهل الدنيا يأخذون بالشقِّ الأول من هذه الوصية ، ولا يذكرون الشقَّ الثاني منها .

من علامات الشقاوة :

روَوا عن الزاهد المعروف مالك بن دينار قال : أربعة من عَلَم (علامة) الشقاوة : قسوة القلب ، وجمود العين ، وطول الأمل ، والحرص على الدنيا[2].

ولهذا قال الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز : إنكم خلقتم للأبد ، وإنما تنقلون من دار إلى دار[3]!

المهم في هذا المقام أن تكون الآخرة أكبر همِّه ، وأن يتذكَّر أنه في هذه الدنيا ضيف مصيره إلى الرحيل ، ولهذا كانت وصية الرسول ﷺ : « كُن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل» . وكان ابن عمر يقول : إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وخذ من صحتك لمرضك ، ومن حياتك لموتك[4].

ولا يعني التحذير من طول الأمل ، عدم اتِّخاذ الأسباب لعمارة الأرض ، وترك التخطيط للنهوض بالمجتمعات .

---

(١) رواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده (١٠٩٣)، وابن قتيبة في غريب الحديث (٢٨٦/١) ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، موقوفا . ولا يصح رفعه للنبي ﷺ ، وللمحدث السيد أحمد ابن الصدِّيق الغماري رسالة أسماها :.«سبل الهدى في إبطال حديث اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا» أبطل فيه الحديث سندًا ومتنًا ، وإن كان الشطر الثاني فيه : «واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا»، تؤيده الأحاديث الكثيرة الصحيحة .

(٢) رواه ابن الأعرابي في الزهد (٧١) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (٢٣٤) ، في خطبة طويلة .

(٤) سبق تخريجه صـ ١٣٦ .

العناية بالتخطيط واستشراف المستقبل :

ومن هنا ذكر القرآن عن سيدنا يوسف ، وقد مكَّنه الله في الأرض ، وأصبح عزيزها والمُتصرِّف الأول فيها ، وقد جمع الله شمله بأبويه وإخوته ، حين استقبلهم وقال : ﴿ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ (يوسف:٩٩) ، ثم ذكر القرآن مناجاته لربِّه : ﴿ رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ - يعني تعبير الرؤى - فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (يوسف:١٠١) .

فها هو يوسف يفسِّر رؤيا الملك ، وفي تفسيره وضع خطة لخمسة عشر عامًا للخروج بمصر وما حولها من أزمة المجاعة بسلام ، ومع هذا يقول : ﴿ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (يوسف:١٠١).

تخطيط الرسول ﷺ لتأسيس الدولة :

وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يُخطِّط للقيام برسالته ، ولتأسيس دولته ، كما خطَّط للهجرة وللغزوات المختلفة ، ومع هذا كان لا يشغله عن ربِّه شيء ، ولا يلهيه عن الآخرة أمر ، بل كان محياه ومماته لله ، كما علَّمه الله أن يقول : ﴿ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ (الأنعام:١٦٢،١٦٣).

أهمية الأمل والتخطيط للمستقبل :

إنَّ الأمل مطلوب لكلِّ حيٍّ ، لكي تستمرَّ الحياة ، ويقوم المجتمع ، وتعمر الأرض ، ولولا الأمل ما غرس غارس غرساً ، ولا بنى بانٍ بنيانًا، ولا فكَّر أحد في خطَّة لغد ، وخصوصًا إذا نظرنا إلى الأمر في إطار أمة صاحبة رسالة .

وفي عصرنا أصبحت هناك دراسات مستقبلية ، وأصبح استشراف المستقبل ، والتخطيط للمستقبل ، جزءًا من البناء الحضاري للأمم ، حتى تستطيع أن تعيش ، وأن يكون لها دور في عالم يتقدَّم ويتطوَّر من يوم لآخر ، وقد تقارب وتقارب حتى أصبح كقرية صغيرة ، فمَن عاش ليومه ، وأغفل غده ، داسته أقدام الأقوياء ، الذين يعملون ويخطِّطون .

هذا ما نؤكِّده بالنظر إلى الأمة ، بل هو ما ينبغي للفرد المسلم ألا يغفل عنه ، ولا يطرحه وراء ظهره ، وقد كان النبي ﷺ يحبس ـ يدَّخر ـ لأهله قوت سنة[1] .

والناس في عصرنا يُخطِّطون لحياتهم ، بحيث يتمُّ أحدهم مراحل تعليمه ، من الابتدائي إلى الجامعة . ثم يفكِّر أحدهم كيف يتزوَّج ، ثم كيف يبني لنفسه وأهله مسكنا يعيش فيه . وإذا كان من الأذكياء والنوابغ ، فإنه يفكِّر في الدراسات العليا . وأعتقد أنَّ التفكير في مثل هذه الأمور ليس ممنوعًا شرعًا ، بل هو مطلوب للمسلم المعاصر .

فما المقصود من (طول الأمل) ، والمقصود من مقابله (قصر الأمل) إذن؟

سياسة الأمم تقوم على طول الأمل :

ونقول هنا بكلِّ وضوح : إنَّ سياسة الأمم تقوم على طول الأمل ، وهو ما أشار إليه القرآن ، حين قال عن هزيمة الروم أمام الفرس : ﴿ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَ ﴾ (الروم:٣،٤) ، أي : أن الدنيا دُوَل ، والأمم لا يُحكم على مستقبلها بخسارة معركة . وقد علم الله أنهم سيَغلبون ، بعد أن غُلبوا ، في حدود بضع سنين . وقال تعالى مُعزِّيًا للمؤمنين بعد غزوة أحد ، التي فقدوا فيها سبعين شهيدا : ﴿ إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ ﴾ (آل عمران:١٤٠) ، فبيَّن هذه السنة من سنن الله ، تداول الأيام بين الناس ، فالدهر يومان : يوم عليك ، ويوم لك . وكم من مهزوم انتصر ، وكم من مغلوب غلب ، وإن مع اليوم غدا ، وإن غدا لناظره قريب .

وقال في أول البعثة في سورة المزمِّل ، في تعليل تخفيفه عن الصحابة فرضية قيام الليل : ﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ (المزمل:٢٠) .

وقال أيضا في سورة القمر وهي مكية : ﴿ سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ (القمر:٤٥) ، إشارة إلى ما سيحدث للمشركين من هزيمة في بدر وغيرها .

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري في النفقات (٥٣٥٧) ، ومسلم في الجهاد (١٧٥٧) ، بلفظ : عن عمر ، أن النبي ﷺ كان يبيع نخل بني النضير ، ويحبس لأهله قوت سنتهم .

تربية الأفراد تربية إيمانية متوازنة :

ولكن الكلام هنا في تربية الأفراد تربية إيمانية ربانية ، فهنا يلزم الفرد أن يوازن بين ما يجب عمله ، لتحقيق مطالبه المشروعة لتحسين حياته وحياة مَن يعولهم ، وواجبه نحو آخرته ، وما يجب أن يقوم به للإعداد لآخرته ، التي هي دار القرار ، وإليها المنتهى ، والفوز فيها هو الفوز الحقيقي ، ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ (آل عمران:١٨٥) ، وهذا يقتضيه ألا يستبعد الموت ، بل يذكره أبدًا ، ويقصر أمله في الدنيا ، كما قال الشاعر :

تزوَّد من التقوى فإنـــك لا تـــدري إذا جَنَّ الليل هل تعيش إلى الفجر؟
فكم من سليم مات من غير علَّـــة وكم من سقيم عاش حينا من الدهر!

ولهذا جاء عن غير واحد من السلف تفسير الزهد بأنه : قِصَر الأمل .

قال الإمام الحارث المحاسبي في رسالة المسترشدين : (وأعونُ الأخلاق على الزهد : قِصَر الأمل)[1].

قال ابن رجب : (ووجه هذا : أن قصر الأمل يوجب محبَّة لقاء الله ، بالخروج من الدنيا . وطول الأمل يقتضي محبَّة البقاء فيها ، فمَن قصر أمله فقد كره البقاء في الدنيا . وهذا نهاية الزهد فيها والإعراض عنها)[2].

ثالثًا : سيادة القيم المادية :

ومن العوائق في طريق الزهد : انتشار القِيَم المادية وسيادتها في الحياة ، واتِّساع الثقافة الدنيوية ، التي لا تكاد ترى لله مكانا ، ولا للآخرة موضعا ، ولا للرُّوح موقعا في حياتنا .

---

(١) رسالة المسترشدين ص١٦١ ، ونقل العلامة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمة الله تعالى في تعليقاته النفيسة على الرسالة : وجاء في نهج البلاغة (١٩٩/٤) منسوبًا إلى سيدنا علي رضي الله عنه : «الزهد كله بين كلمتين من القرآن : قول الله سبحانه : ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ (الحديد:٢٣) ومن لم يأس ـ أي يحزن ـ على الماضي ، ولم يفرح بالآتي فقد أخذ الزهد بطرفيه . انتهى .

(٢) جامع العلوم والحكم (١٨٤/٢) .

هذه الثقافة التي يشبُّ عليها الصغير ، ويَهْرَم عليها الكبير ، وتغرس في عقول الجميع وفي قلوبهم : التعلُّق بالدنيا، واعتبار المال هو كلُّ شيء ، لا يُقوِّم الناس بالإيمان ، ولا بالعلم ، ولا بالأخلاق ، ولا بالإنجاز ، ولكن بما يملكون من متاع الدنيا .

فقيمة ربِّ الألف ألفٌ وزِدْ تزدْ وقيمة ربِّ الدرهم الفرد درهم!

فالدنيا هي أكبر همِّهم ، ومبلغ علمهم ، ومدار اهتمامهم ، ومحور تفكيرهم . إليها يركضون ، وعليها يحرصون ، ولها يجمعون ، وفي سبيلها يتزاحمون ويتنافسون ، بل يتصارعون ويتقاتلون . من أجلها يُعادي الأخ أخاه ، والابن أباه ، ويَجْفو القريبُ قريبَه ، ويبيعُ الصديق صديقه ، بل قد يبيع أهله ووطنه ودينه . وهي (الفتن) التي حذَّر الحديث الصحيح منها ، ومن خطرها ، « فتنًا كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل مؤمنا ويمسي كافرا ، أو يمسي مؤمنا ويصبح كافرا ، يبيع دينه بعَرَض من الدنيا »[1].

تحذير النبيِّ ﷺ من فتنة الدنيا :

إنها الدنيا التي حذَّر النبي الكريم الأمة من فتنتها ، حين قال : « فوالله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخشى أن تُبسط عليكم الدنيا ، كما بسطت على مَن كان قبلكم ، فتنافسوها كما تنافسوها ، فتهلككم كما أهلكتهم »[2].

وعن أبي سعيد الخدري قال : جلس رسول الله ﷺ على المنبر ، وجلسنا حوله ، فقال : « إنَّ ممَّا أخاف عليكم بعدي ، ما يفتح الله عليكم من زهرة الدنيا وزينتها »[3].

وعنه ، أنه ﷺ قال : « إن الدنيا حلوة خَضِرة ، وإن الله تعالى مستخلفكم فيها ، فينظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا ، واتقوا النساء »[4].

---

(١) رواه مسلم في الإيمان (١١٨)، وأحمد (٨٠٣٠)، والترمذي في الفتن (٢١٩٥)، عن أبي هريرة .
(٢) سبق تخريجه صـ ٧٨ .
(٣) سبق تخريجه صـ ٧٦ .
(٤) سبق تخريجه صـ ٧٠ .

المراد باتِّقاء الدنيا :

واتقاء الدنيا هنا ـ مثل اتقاء النساء ـ المراد به : التنبُّه لفتنتها ، والحذر من إغرائها وزخرفها ، وليس اعتزالها ، إذ لا تبتُّل ولا رهبانية في الإسلام .

وعن أنس : أنه ﷺ كان يقول : « اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة »[1].

التحذير من فتنة المال :

ويُحذِّر النبي ﷺ أمَّته من أعظم فتنة في الدنيا ، وهي فتنة المال الذي أغوى الكثيرين حبُّه والحرصُ عليه ، فأصمَّهم وأعمى أبصارهم ، وفي هذا يقول : « إنَّ لكلِّ أمة فتنة ، وفتنة أمتي المال »[2].

المراد بفتنة المال :

وفتنة المال ليست في جمعه وكسبه من وجوهه المشروعة ، إنما هي في حبِّه حبًّا جمًّا يلهيه عن طاعة الله ، والحرص عليه حرصًا يجعله لا يبالي أن يكسبه من غير حلِّه ، وينفقه في غير محلِّه ، ويبخل به عن حقِّه ، والشرُّ كلُّه من هذا نبع . وهذا ما حذَّر منه الحديث : « ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم ، بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه »[3] ، يعني بالشرف : الجاه والمنزلة .

الثروة التي لا تنفد والكنوز التي لا تفنى :

من أجل ذلك يُعلِّم الإسلام أبناءه : أنَّ المال ليس هو كل شيء في الحياة ، بحيث يحصر الإنسان كلَّ همّه فيه ، وكلَّ سعيه له ، وكلَّ حماسه ونشاطه في طلبه وجمعه ، بحيث لا يَدَع في عقله وقلبه مكانا للرغائب الكبيرة ، والمثل العليا ، التي يجب أن ترنو إليها الأبصار ، وتشرئب نحوها الأعناق .

إن المُثُل الأخلاقية العليا ، والقِيَم الروحية الرفيعة ، من الإيمان والعمل الصالح والخلق الكريم ، هي الثروة التي لا تنفد ، والكنوز التي لا تفنى ، والباقيات

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري في مناقب الأنصار (٣٧٩٥) ، ومسلم في الجهاد (١٨٠٥) ، كما رواه أحمد (١٢٧٥٧) ، والترمذي (٣٨٥٦) ، والنسائي في الكبرى (٨٢٥٦) ، كلاهما في المناقب .

(٢) سبق تخريجه صـ ٧٥ .

(٣) سبق تخريجه صـ ٧٥ .

الصَّالحات على مرِّ الأعوام والأعصار ، ولهذا يُوجِّه القرآن إليها همم المؤمنين وآمالهم ، بمثل قوله تعالى : ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ (الكهف:٤٦) ، وقوله : ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (القصص:٦٠) ، وقوله في قصة قارون : ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾ (القصص:٧٩،٨٠)، وقوله تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ (طه:١٣١)، فرزق ربِّه هنا ليس هو الموعود به في الجنة فحسب ، بل ما أنعم الله به عليه في الدنيا من معاني الإيمان ، ومنازل التقوى ، ومكارم الأخلاق ، وبعد ذلك ما ينتظره من نعيم مقيم ، في دار الخلود ، ويقول تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ (آل عمران:١٤،١٥)[1].

رابعًا : افتقاد القدوة :

ومن العقبات في سبيل الزهد : افتقاد (القدوة) . أعني الإنسان الصالح ، الذي يقتبس الناس منه معنى الزهد ، يأخذونه من حاله قبل مقاله ، ومن سلوكه قبل دعاويه ، وقد قيل : حالُ رجل في ألف رجل ، أبلغ من مقال ألف رجل في رجل .

---

(١) انظر : كتابنا (دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي) صـ ١٠٤-١٠٧ . الطبعة الثالثة ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨ م نشر مكتبة وهبة ـ القاهرة .

المَثل الأعلى في الزهد :

لهذا كان محمد ﷺ ، أُسوةً للمؤمنين بأخلاقه وأفعاله ، قبل أن يكون معلِّما لهم بأقواله . قال تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (الأحزاب: ٢١).

وسُنَّة محمد عليه الصلاة والسلام ، تتضمَّن أقواله وأفعاله وتقريراته . وأفعاله عليه السلام هي التي تمثِّل الجانب العملي ، الذي هو موضع الأسوة والاقتداء . وقد كان هو المثل الأعلى في كلِّ خلق ، وكلِّ قيمة إيمانية أو ربانية أو إنسانية .

وهو في الزهد إمام الأمة بلا ريب ، كان أول مَن يجوع ، وآخر مَن يشبع[1] ، وكانت تمرُّ الأشهر ولا يوقد في بيته نار[2]، وكان يشدُّ الحجر على بطنه من الجوع[3] ، وكان ينام على وسادة حشوها ليف . وبكى عمر حين دخل عليه ، ووجده ينام على حصير أثَّر في جَنْبه[4] ، إلى آخر ما هو معروف من سيرته .

أصحاب النبيِّ ﷺ نماذج مشرقة في الزهد :

وبعده كان في أصحابه نماذج مشرقة ، ممَّن سار على دربه في الإعراض عن متاع الدنيا ، والإقبال على الآخرة ، منهم أبو بكر وعمر وعلي وأبو ذر وسلمان وأبو الدرداء والمقداد ، وغيرهم من الصحابة الكرام ، وجمهورهم كان من أهل الآخرة . ولهذا هان عليهم أن يبذلوا أموالهم وأنفسهم في سبيل الله .

---

(١) يدل على ذلك حديث أبي هريرة في شدَّة جوعه ، وشربه وشِبعه وريِّه ، ثم شرب النبي ﷺ بعده ، وفيه : «فحمد الله وسمى وشرب الفضلة» رواه البخاري في الرقاق (٦٢٦٤) ، وأحمد (١٠٦٧٩) ، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٧٧) .

(٢) عن عائشة قالت : إنا كنا لننظر إلي الهلال ثم الهلال ثلاثة أهلة في شهرين وما أوقد في بيت رسول الله نار . متفق عليه : رواه البخاري في الهبة (٢٥٦٧) ، ومسلم في الزهد (٢٩٧٢) .

(٣) عن جابر قال : لما كان يوم الخندق نظرت إلى رسول الله ﷺ ، فوجدته قد وضع حجرا بينه وبين إزاره ، يقيم به صلبه من الجوع . رواه أبو يعلي (٢٠٠٤) ، وقال الهيثمي في المجمع : رواه أبو يعلى ورجاله وثقوا على ضعف في إسماعيل بن عبد الملك (٥٦٦/١٠) .

(٤) سبق تخريجه صـ ٧٨ .

وهـؤلاء الصـحابة هـم الـذين هـدى الله بهـم الأمـم إلى الإسـلام ، فلـم يكونـوا كالفاتحين الذين إذا انتصروا على بلد استحلُّوها ، ونهبوا كنوزها ، واغتصبوا نساءها ، وعاشوا ـ أو عاثوا ـ في نعيم أهلها . بل كانوا زُهَّادًا في الـدنيا ، متحـرِّين لحلالهـا ، خائفين من حرامها .

يقول ابن مسعود لأصحابه : أنتم أكثر صومًا وصلاة وجهادًا مـن أصحاب محمد ﷺ ! وهم كانوا خيرًا منكم ! قالوا : كيف ذلك؟ قال : كانوا أزهد منكم في الدنيا ، وأرغب منكم في الآخرة[1] .

وقال عمرو بن العاص فاتح مصر لأصحـابـه : ما أبعد هديكـم مـن هـدي نبيكم ﷺ ، إنه كان أزهد الناس في الدنيا ، وأنتم أرغب الناس فيها[2] .

ولا يوجد في أصحاب نبي من الأنبياء مثل أصحاب محمد ، في بذلهم وجهادهم وزهدهم في حطام الدنيا .

وسنتحدَّث في خواتيم هذا الكتاب عن عدد من النماذج الورعة الزاهدة ، منهم من الصحابة عمر بن الخطاب ، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما .

تلاميذ الصحابة من التابعين :

وبعد الصحابة كان تلاميذهم الذين اتَّبعوهم بإحسان ، والذين قال القرآن عنهم : ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾(التوبة: ١٠٠)

وكان من هؤلاء أئمة الهدى ، ومصابيح الدُّجى ، ساروا على نهج شيوخهم من الصحابة .

وفي كلِّ عصر كان يوجد من هؤلاء المُربِّين الربَّانيين مَن يُقتدى به فيُهتدى ، مَن إذا رأيتَه ذكرتَ الآخرة ، وإذا سمعتَه ذكرتَ الله ، وإذا عايشتَه زهدتَ في الدنيا .

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في الزهد (٣٥٦٩٢) ، والحاكم في المستدرك في الرقاق (٣١٥/٤) ، وصححه ووافقه الذهبي ، والبيهقي في الشعب باب الزهد (١٠٦٣٦) .

(٢) رواه أحمد (١٧٨١٠) ، وقال مخرِّجوه : إسناده صحيح ، وابن عساكر في المعجم (١٦١٩) ، وصححه .

أثر صحبة الزاهدين :

وصحبة هؤلاء ، والتتلمذ على أيديهم ، والتأسِّي بسلوكهم هي المدرسة الحقيقية لتعلُّم الزهد في الدنيا ، والإقبال على الآخرة . ولا يُغني عن ذلك كتاب يُقرأ ، أو شريط يُسمع أو يُرى . وإن لم يَخْلُ ذلك من أثر ، ولا سيما إذا كان مؤلف الكتاب أو المتحدِّث بالشريط ، ممن يرجون الله والدار الآخرة ، ويخافون يوم الحساب ، فإن من المعروف أنَّ تأثير الحال أقوى من تأثير المقال ، وإنما يؤثِّر أهل الزهد بأحوالهم لا بأقوالهم .

استمرار الخير في هذه الأمة :

ولا ريب أن هؤلاء المُربِّين والربانيين موجودون في دنيانا ، ولا يُخْلي اللهُ الأرض من بعضهم ، فهم أوتاد الأرض ودعائمها . سنة الله الذي يبقي أبدًا في هذه الأمة طائفة تقوم على الحقِّ ، لا يضرُّها مَنْ خالفها ، حتى يأتيَ أمر الله وهم على ذلك ، وهم الذين يُسمِّيهم العلماء (الطائفة المنصورة) ، وفيهم وفي فضلهم استفاضت الأحاديث[1]، وهم الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ (الأعراف:١٨١) .

ولكن يطغى على هؤلاء الربانيين مع قلَّتهم : صَخَب عشَّاق الدنيا ، وعبيد الظهور والأضواء ، وغيرهم ممن ﴿ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴾ (البقرة:١٦) ، الذين ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ (الروم:٧).

* * *

(١) منها ما رواه البخاري في المناقب (٣٦٤١) ، ومسلم في الإمارة (١٠٣٧) ، عن معاوية رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله ، لا يضرهم مَن خذلهم أو خالفهم ، حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس » . واللفظ لمسلم .

obeikandl.com

الفصل الثامن

بواعث الزهد

إذا عرَفنا العوائق التي تقف في طريق الزهد في الدنيا ، فأعتقد أن هذا يُيسِّر علينا معرفة البواعث التي تُحفِّز على الزهد في الدنيا ، والإقبال على الآخرة . فكلُّ ما هو عائقٌ أو عقبة في طريق الزهد يكون عكسه وضدُّه باعثا على الزهد .

ومعنى هذا ، أنه إذا كان من العقبات الغفلة عن الموت ، يكون عكسه هو ذكر الموت ، وكذلك الغفلة عن الآخرة يكون عكسه كذلك استحضار الآخرة ، وهكذا كلُّ العقبات .

وعلى هذا الأساس نتحدَّث عن البواعث المؤدِّية إلى الزهد في الدنيا .

وسأقتصر على أربعة بواعث ، وهي :

١- ذكر الموت .
٢- الاعتبار بمصاير أهل الدنيا .
٣- استحضار الآخرة .
٤- معرفة قيمة الدنيا .

أولاً : ذكر الموت :

وأول هذه البواعث القوية والمؤثِّرة في الإغراء بالزهد ، هو (ذكر الموت) . فإذا كان من عوائق الزهد : طول الأمل في الدنيا ، فلا غَرْوُ أن يكون من بواعث الزهد فيها ، هو تذكُّر الموت دائمًا ، وعدم نسيان المصير الحتمي ، الذي ينتظر كلَّ حيٍّ ، فهذا مما يقصِّر أمله ، ويجعله يعيش في الدنيا بقلب أهل الآخرة ، ويعيش في الدنيا كأنه غريب ، أو عابر سبيل ، كما نصحه الرسول الكريم .

ومن هنا كان الإرشاد النبوي للأمة : «أكثروا ذكر هاذم اللذات : الموت»[1].

---

(١) رواه أحمد (٧٩٢٥) ، وقال مخرِّجوه : إسناده حسن ، والترمذي في الزهد (٢٣٠٧) ، وقال : حسن غريب ، والنسائي في الجنائز (١٨٢٤) ، وابن ماجه في الزهد (٤٢٥٨) ، وابن حبان في الجنائز (٢٩٩٢) ، وقال : الأرناؤوط : إسناده حسن ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٠٩٠) ، والحاكم في الرقاق (٣٢١/٤) ، وصححه ووافقه الذهبي ، عن أبي هريرة .

كيف ننتفع بذكر الموت ؟

ولكي ننتفع بذكر الموت ، يجب أن نذكر هنا عدَّة حقائق عن الموت :

الأولى : شمول الموت وعمومه ، فهو نهاية كلِّ حيٍّ ، أيًّا كانت منزلته الدينية أو الدنيوية ، وفي هذا يقول القرآن : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ (العنكبوت:٥٧).

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾

(آل عمران:١٨٥).

ويخاطب الله تعالى خاتم رسله محمدًا ، فيقول : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾

(الزمر:٣٠).

ويقول : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ (الأنبياء:٣٤،٣٥).

وفي الحديث الشريف : « عِشْ ما شئتَ فإنك ميِّت ، وأحبب مَن شئتَ فإنك مفارقه ، واعمل ما شئتَ فإنك مجزيٌّ عنه »[(١)].

الثانية : أنَّ الموت يأتي بعد أجل مُسمًّى للإنسان ، لا يزيد ولا ينقص ، فهو مسجَّل عند الله في كتاب لا تغيير فيه ولا تبديل ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (فاطر:١١)، ومعنى ﴿ يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ ﴾ ، أي : يموت في شبابه قبل أن يُعمَّر . وعند انتهاء أجله يموت لا مَحَالة ، لا يملك أحدٌ أن يستأخرعن أجله ساعة ، أي : لحظة ، كما لا يستقدم عن أجله لحظة ، كما قال تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (الأعراف:٣٤) ، وهذه الآية وإن جاءت في شأن الأمم ، فهي أيضًا تنطبق على الأفراد ؛ لأنَّ القدر الذي يجري على

---

(١) رواه الحاكم في الرقائق (٤/٣٢٤) ، وصححه ووافقه الذهبي ، والطبراني في الأوسط (٤٢٧٨) ، وقال الهيثمي في المجمع (١٠/٣٧٤) : رواه الطبراني في الأوسط وإسناده حسن ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٧٣) ، عن سهل بن سعد .

الأمم ، هو نفسه الذي يجري على الأفراد ، وسُنن الله في الجميع واحدة . يُؤكِّد هذا قوله تعالى : ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ﴾ (المنافقون:١١).

الثالثة : أنَّ الموت إذا جاء الأجل لا يمكن الفرار منه بحيلة من الحِيَل ، ولو أمكن ذلك ، لاستطاع الفراعنة والأكاسرة والقياصرة والتبابعة ، وملوك العرب والعجم أن يَتَحصَّنوا من الموت أو يهربوا منه ، ولكنهم جميعًا خضعوا لحكمه ، ودانوا لقهره ، وفي هذا يقول القرآن : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ (النساء:٧٨) ، كما قال القرآن في مخاطبة اليهود : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ﴾ (الجمعة:٨).

وقد ذكر ابن عبد ربه في (العقد الفريد) : أنَّ وباءً نزل ببعض الأعراب ، وبدأ يحصد منهم جماعة ، فعزم أحدُ الشباب أن يرحل من منطقته الموبوءة إلى منطقة أخرى ، لعله يسلم ممَّا أصاب زملاءه من الأعراب ، وحاول أبوه أن يمنعه من الرحيل ، وأن يبقى مع قومه ، يجري عليه ما يجري عليهم ، فلم يستجب لدعوة أبيه . وأصرَّ على الخروج ، وفعلاً خرج وسافر ، وفي طريقه نام تحت شجرة ، فجاءت حيَّة ولدغته فمات ، وعلم أبوه بما وقع له ، فأنشد يقول :

راح يبغـــي نَجْـــوة ... مـــن هـــلاك فهلـــك
والمنايـــا راصـــدات ... للفـــتى حيـــث ســـلك
كـــلُّ شـــيء قاتـــل ... حين تلقـــى أجلـــك[1]

ثانيًا : الاعتبار بمصاير أهل الدنيا :

ومن البواعث على الزهد : الاعتبار بمصاير أهل الدنيا ، عشَّاق الدنيا ، عبَّاد الدنيا ، الذين عاشوا للدنيا وحدها ، ولم يفكروا في أمر الآخرة .

لقد ذكر لنا القرآن نماذج من عبَّاد الدنيا وسَدَنتها ، الذين رضُوا بالحياة الدنيا ، واطمأنُّوا بها ، وركنوا إليها ، وعاشوا كأنهم مُخلَّدون فيها ، يرفلون في النعيم ، ويمرحون في الزينة ، ويتمتَّعون بالجاه ، ويبغون على الضعفاء ، ولا يرون لأحد

---

(١) العقد الفريد (٣/٢٦١) .

حقًّا فيما بأيديهم من مال ، فالمال مالهم وحدهم ، جمعوه بكدِّهم وذكائهم ، ونَمَّوه بعبقريتهم وحُسن إدارتهم ، وليس لأحد فيه حقٌّ يطالبون به من أحد من الناس . فكيف كانت عاقبة هؤلاء؟ وإلام انتهى أمرهم؟

قصة قارون :

نختار قصة من قصص القرآن تتحدَّث عن نموذج يُضرب به المثل في الغنى والثروة ، وهو قارون الذي آتاه الله من (الكنوز) ما إنَّ مفاتحه لتنوءُ بالعُصبة أولي القوة ، فإذا كانت مفاتيح الأبواب التي تضمُّ مجموع الكنوز النفيسة التي يملكها قارون تنوء بالعصبة أولي القوة ، وتضعف عن حَمْلها ، فما بالك بالكنوز نفسها؟

لنقرأ القصَّة كما ذكرها القرآن : ﴿ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (القصص:٧٦-٨٣).

وقفات ونظرات في قصة قارون :

ولنا في هذه القصَّة وقفات تستحقُّ النظر والاعتبار :

أولاها : أنَّ الرجل لم يبع آخرته بدنياه فقط ، بل باع قومه ، وبغى عليهم ، وانضمَّ إلى عدوِّهم فرعون ، فكان هو وهامان ذراعَيْن له : هذا من الناحية الاقتصادية ، وهامان من الناحية السياسية ، فاجتمع ثالوث الطغيان والفساد : الملكية المتألِّهة المتكبِّرة ، والرأسمالية المتعجرفة المتجبِّرة ، والمهارة السياسية التي تضع نفسها في خدمة الفرعونية والقارونية .

ثانيتها : أنَّ قوم قارون ـ وهم قوم موسى ـ نصحوه بخمس نصائح مهمَّة ، يجب أن تكون مصابيح مضيئة لكلِّ ذي ثروة ، وهي :

١- عدم الفرح ، ومعنى الفرح هنا : البَطَر والغرور بالثروة .

٢- ابتغاء الدار الآخرة بالمال الذي آتاه الله ، فلا يكون كلُّ همّه الدنيا .

٣- وليس معنى ابتغاء الآخرة أن يحرم نفسه من طيبات الدنيا ، بل لا ينسى نصيبه من الدنيا .

٤- أن يُحسن إلى غيره كما أحسن الله إليه ، ففي هذا المال حقٌّ لله الذي آتاه إياه ، وحقٌّ للمجتمع الذي ساهم في تكوين هذه الثروة بصورة أو بأخرى .

٥- ألا يتَّخذ الثروة الكبيرة التي بيديه وسيلة للإفساد في الأرض ، بشراء الذمم ، وإشاعة الفاحشة ، وجحد حقوق الفقراء ، والتعاون مع الأقوياء على الإثم والعدوان[1] .

ولكن قارون لم ينتصح ، ولم يأبه لما قاله قومه ، وقال في زهو وكِبْر : ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ (القصص:٧٨)! فلم يعترف بفضل الله تعالى ، ولا بفضل المجتمع عليه .

---

(١) سيأتي شرح هذه الوصايا الخمس بالتفصيل عند الحديث عمَّا يطلب من الغني ذي الثروة في الفصل التاسع : ليس من متطلبات الزهد .

وثالثتها : أن قارون أراد أن يستعرض قوَّته وسلطانه ، ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ﴾ (القصص:٧٩) ، في موكب يبهر الأبصار ، ويُغْري الطامعين ، ويُرهب المناوئين ، وهنا قال الذين يقيسون الأمور بمظاهرها : ﴿ يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ (القصص:٧٩)، وردَّ عليهم أُولو البصائر الذين لا يخدعهم السَّراب : أنَّ ما عند الله للصالحين خيرٌ وأبقى ممَّا عند قارون .

ورابعتها : هو المشهد الأخير ، وهو ما أنزله قدر الله بدنيا قارون ، وهو أن خسف الله به وبداره الأرض ، فلم تُغْنِ عنه كنوزه ، ولا مَن حوله من الأتباع والمطبِّلين . وهنا تجلَّت الحقيقة للذين خُدعوا بالأمس ، وتمنَّوا أن يكون لهم مثل ما أُوتي قارون ، حين عرَفوا أنَّ العاقبة للمتقين ، وأنه لا يفلح الكافرون بالله ، وبنعم الله ، وبحقوق عباده .

وهنا جاء التعليق القرآني على القصة بهذه الآية : ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (القصص:٨٣)، فالمفلحون عند الله حقًّا ليسوا أصحاب الملايين ولا البلايين ، ولكنهم المخلصون الصَّادقون ، الذين صَحَّت نيَّاتهم ، وسَمَت أهدافهم ، واستقامت أهدافهم ، فلا يُريدون عُلوًّا في الأرض كالملوك ، ولا فسادًا كاللصوص وقطَّاع الطريق .

نماذج من مصاير الذين غرَّتهم الدنيا :

هذا وقد ذكر القرآن مصاير عدد من هؤلاء الذين غرَّتهم الحياة الدنيا ، ونسوا ما عند الله ، وبغَوا على الضعفاء من الناس ، فأخذهم الله أخذًا أليمًا شديدًا ، مثل صاحب الجنتين في سورة الكهف ، وأصحاب الجنة في سورة القلم ، ومثل الذين كذَّبوا رسل الله ، واغترُّوا بدنياهم ، فأخذهم الله أخْذَ عزيز مُقْتدر ، كما قال تعالى : ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (العنكبوت:٤٠).

ثالثًا : استحضار الآخرة :

وإذا كانت الغفلة عن الآخرة وأهوالها من الآفات العائقة عن الزهد في الدنيا ، فقد تبيَّن لنا ـ بحكم التقابل ـ أنَّ استحضار معاني الآخرة وما يتَّصل بها من البواعث المهمَّة التي تدعو إلى الزهد في الدنيا ، وإيثار الآخرة عليها .

ومَن يقرأ القرآن الكريم والسنة النبوية ، يجد أن النصوص المتكاثرة من آيات القرآن ، ومن أحاديث الرسول ﷺ تتحدَّث عن الآخرة ، وتذكِّر بها ، وبما فيها من هَوْل الحشر ، وطول الموقف ، وشدَّة الحساب ، وقراءة الكتاب ، ودقَّة الميزان ، تملأ القلب يقينًا بأن لا نجاة يوم القيامة ، إلا لمَن كانت الآخرة محور تفكيره وإرادته ، وغاية سعيه وجهده ، ولم تكن الدنيا أكبر همّه ولا مَبْلَغ علمه .

يقول تعالى : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (البقرة:٢٨١) .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ (لقمان:٣٣) .

وهذا المعنى تُصوِّره سورة أخرى تقول : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾(عبس:٣٤-٣٧).

ويُصوِّر ذلك الرسول ﷺ بحديثه الذي روته عائشة زوجه : « يُحْشَر الناس يوم القيامة حُفاةً عُراةً غُرْلا » . قلت : يا رسول الله ، النساء والرجال جميعًا ، ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال ﷺ : « يا عائشة ، الأمر أشدُّ من أن ينظرَ بعضهم إلى بعض[1]، ﴿ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ (عبس:٣٧) ».

وانظر إلى قوله تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (المطففين:١-٦) .

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري في الرقاق (٦٥٢٧) ، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٥٩) ، كما رواه أحمد (٢٤٢٦٥) ، والنسائي في الجنائز (٢٠٨٤) ، وابن ماجه في الزهد (٤٢٧٦) ، عن عائشة .

وَضْعُ الكتب :

وفي وضع الكتاب يقول تعالى : ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ (الكهف:٤٩) .

﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴾ (الإسراء:١٣).

الميزان :

وتحدَّث القرآن عن الميزان وموقف الناس منه : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ (الأنبياء:٤٧) .

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴾

(المؤمنون:١٠١-١٠٤).

محكمة العدل الإلهيَّة :

وهكذا نرى في هذا اليوم (محكمة عادلة) تقوم على محاكمة كلِّ مكلَّف وَفْقَ (كتابه) ، الذي سُجِّلت فيه أعماله كلُّها ، خيرا وشرًّا ، وسرًّا وجهرًا ، ﴿ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (الجاثية:٢٩)، ﴿ أَمْ تَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ (الزخرف:٨٠).

كما يقوم على (الميزان) الذي تُوزن به أعمال المكلَّف ، حسناتها وسيئاتها ، فلا تُظلم نفس شيئًا ، وإن كان مثقال حبَّة من خردل لا تضيع ، بل يأتي الله بها ، فلا يخاف أحد ظلما ولا هضما .

شهادة الجوارح :

وشهود الإنسان عليه من داخله : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (النور:٢٤)، ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (يس:٦٥) ، ﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ (غافر:١٧) .

فإذا كانت الدنيا دارا تضيع فيها الحقوق ، ويفلت منها الظالمون من العقاب ، ويُحرم كثيرون ـ من الأخيار الصالحين ـ من ثمرات صلاحهم ، فلا يُجْزَون إلا شرًّا ، ففي الدار الآخرة يأخذ كلُّ ذي حقٍّ حقَّه : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ (الزلزلة:٧،٨) .

عدل الله وحكمته :

وفي الآخرة يَتجلَّى عدل الله تعالى وحكمته ، فلا يسوِّي بين برٍّ وفاجر ، وعادل وظالم ، وخيِّر وشرِّير ، وهذا هو الباطل الذي يتنزَّه الله أن يُوصف به ، ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ۝٢٧ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾ (ص:٢٧،٢٨) .

ولهذا كان الذين يتصوَّرون الوجود الإنساني ينتهي بالموت ، يجهلون أو يَجْحَدون أنَّ هناك عدلاً إلهيًّا يقوم على إثابة المُحسن وعقوبة المسيء ، وهذه هي الحكمة من وجود الدار الآخرة ، ﴿ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴾ (النجم:٣١).

ولولا ذلك لكان من حقِّ الناس أن يسألوا : أين خالق هذا العالم ومُدبِّر أمره؟ لماذا ترك الجبابرة والأشرار يفسدون في الأرض ، ويقتلون ويظلمون ، ولا ينالون جزاءهم ؟ ولماذا ترك الأبرار والشهداء والمظلومين يعملون الخير ، ولا يلقون إلا الشرَّ في حياتهم ؟

تكامل حلقات الوجود الإنساني :

لقد كانت الآخرة هي المجال لتصفية الحساب ، وعقوبة الذين أُفلتوا في الدنيا من يد العدل في الأرض ، ومثوبة الذين حُرموا في الدنيا من أيِّ جزاء على ما قدَّموا من خير ، ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (الجاثية:٢١،٢٢) ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (النساء:٤٠)، وبهذا تتكامل حلقات الوجود الإنساني ، حَلْقة بعد حلقة : وجوده الجنيني قبل أن يُولَد ، ووجوده الدنيوي بعد أن يُولَد إلى أن يموت ، ووجوده البرزخي في القبر إلى أن يُبْعث ، ووجوده الأخروي بعد البعث لِيُحَاسَب ، ويُواجه مصيره إلى الجنة أو النار .

مراحل الوجود الإنساني :

وهذه المراحل حدَّثنا عنها القرآن بالتفصيل في سورة (المؤمنون) حين قال : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ (المؤمنون:١٢-١٦) .

ولخَّصت سورة عبس هذه المراحل والحَلْقات ، فقالت : ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴾ (عبس:١٧-٢٢).

أثر استحضار الآخرة :

فمَن استحضر هذه المعاني المُتعلِّقة بالآخرة ، وجَعَلها نُصْبَ عينيه ، وبصَّر بها عقله ، وذكَّر بها نفسه ، كان جديرًا أن يُبادر إلى الصَّالحات ، وأن يكفَّ عن السَّيئات ، وأن يبذل الخير لعباد الله ما استطاع ، كما حدَّثنا الله تعالى عن الأبرار

بقوله : ﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾ (الإنسان:٧-١٠) . هذا الخوف من هذا اليوم العبوس دفعهم إلى البذل والإحسان وإطعام الطعام ـ على حبِّه ـ لهؤلاء الضعفاء من الناس ، من المسكين واليتيم والأسير .

ويصف الله روَّاد مساجده بقوله : ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴾(النور:٣٧).

ويخاطب الله رسوله ﷺ ، فيقول : ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٥ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴾

(الأنعام:١٥،١٦).

رابعًا : معرفة قيمة الدنيا :

ومن أهم البواعث على الزهد : أن يعرف الإنسان قيمة الدنيا ، هذه الدنيا التي يتهافت عليها الناس تهافت الذباب ، ويتهاوشون من أجلها تهاوش الذئاب ، الدنيا التي في سبيلها يعُقُّ الابن أباه ، ويخاصمُ الأخ أخاه ، ويعادي الصديقُ صديقه ، ويبيعُ المرء أهله ووطنه ، ويُضحِّي بعض الناس بدينه ، ويتقاتل في سبيلها أهل البلد الواحد ، والدين الواحد ، والمصير الواحد . هذه الدنيا ما قيمتها الحقيقية؟ وهل تستحقُّ كلَّ هذا التطاحن والتعادي والصراع؟

الواقع أنَّ هذه الدنيا عند التأمُّل لا تستحقُّ أبدًا هذا كلَّه ، فهي أقلُّ شأنًا ، وأهون قدرًا ، وأوْضَع مقامًا ، من أن يسفك من أجلها قطرة دم واحدة ، أو يضحَّي من أجلها بشيء من الدين أو الوطن أو الأسرة أو الأمة .

صفات الدنيا الأساسية :

فهذه الدنيا عند تحليلها نجدها موصوفة بهذه الصفات الأساسية ، كما وصفها خالقها :

الدنيا متاع قليل :

أ- فهي (متاع قليل) كما سمَّاه الله ، قال تعالى في ذمِّ قوم : ﴿ وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴾ (الرعد:٢٦) ، فيصفها الله بأنها (متاع) ، وكلمة (متاع) نفسها تفيد خسَّتها ، لأنَّ المتاع ما يُعَدُّ للمسافر ، وإنما يُعَد للمسافر الشيء الهيِّن اللائق بالسفر وضروراته . ثم هو نكَّرها حين قال : (متاع) ، والتنكير يفيد التحقير ، كأنه قال : متاع حقير . وقال تعالى : ﴿ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾ (النساء:٧٧).

وفي سورة أخرى قال : ﴿ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْأَخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ (التوبة:٣٨) ، وقلَّتها تتجلَّى بالنظر إلى أمور ثلاثة :

أولها : بالنسبة إلى الكون ، فإذا كانت الدنيا هي الأرض وما عليها ، فإنَّ الأرض بالنسبة إلى الكون الكبير شيء ضئيل ضئيل ، فهي جزء صغير من المجموعة الشمسية ، والمجموعة الشمسية جزء ضئيل من المَجَرَّة التي تعيش فيها ، ومجرَّتنا واحدة من ملايين من المجرَّات الموجودة في الفضاء الكوني .

ثانيها : هي متاع قليل ، بالنسبة لما يأخذه الإنسان منها ، فهو - وإن ملك الملايين أو البلايين - لا يستطيع أن يأكل أكثر من ملء معِدته ، ومعدته شبر في شبر أو أقل . فأغنى الأغنياء من الناس ، وأفقر الفقراء في هذا سواء . وربما حُرم الغني من كثير من الأطعمة ، نتيجةً لما يعانيه من أمراض ، عُوفي منها المساكين ومحدودو الدخل .

ثالثها : هي متاع قليل بالنسبة لمدَّة بقاء الإنسان فيها ، فما قيمة عمر الإنسان بالنسبة لعمر الأرض أو الكون ؟ ونحن نرى الجيولوجيين والبيولوجيين وغيرهم يُقدِّرونها بالملايين ومئات الملايين وآلاف الملايين؟! ثم هي عن قريب محكوم عليها بالفناء ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ۝٧ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ (الكهف:٧،٨). وهذا الفناء

يمكن أن يحدث في أيِّ وقت ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (النحل:٧٧) ، وقال تعالى عن الساعة : ﴿ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴾ (الأعراف:١٨٧).

الدنيا متاع زائل :

ب- وهي متاع زائل ؛ لأنَّ عمر الإنسان فيها محدودٌ ، ثم يَدَعُ كلَّ شيء ويرحل ، فإن لم تزُل عنه الدنيا ، فهو لا محالة زائل عنها . فإنَّ الموت آت ، طال عمر الإنسان أو قصُر ، وهو أمر مقدَّر على كلِّ حيٍّ ، شرب كأسه الأنبياء والصديقون ، كما شربه العصاة والفاسقون ، قال تعالى لرسوله : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ (الزمر:٣٠)، وقال : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴾ (الأنبياء:٣٤).

وكذلك وَرَدَ حوضه الملوك والأباطرة والمستكبرون ، كما ذاقه العوام والمحكومون . عندما حضرت الوفاة هارون الرشيد ، أعظم ملوك الأرض في زمنه ، كان يناجي ربه ويقول : ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴾ (الحاقة:٢٨-٢٩)[1]!

وكان ابنه الخليفة المأمون يقول عند اقتراب موته : يا مَن لا يزول ملكه ، ارحم مَن زال ملكه[2]!

وقال تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ (آل عمران:١٨٥).

وقال الشاعر :

وإذا كان آخر العمر موتا ... فسواء قصيره والطويل

---

(١) ذكره عبد الحق الإشبيلي في العاقبة في ذكر الموت صـ١٢٨ .

(٢) ذكره الذهبي في تاريخ الإسلام (٢٣٩/١٥) .

قِصَرُ عمر الإنسان في الدنيا :

ومهما يطُل عمر المرء في الدنيا ، فعند الموت ينكمش العمر المديد ، ويقصر الزمن الطويل ، ويمسي وكأنه لحظات قصار ، ولذا يتمنَّى الإنسان عند احتضاره لو يمهل بعض الوقت ، حتى يستدرك بعض ما فاته من العمل الصالح ، وهيهات .

قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝٩ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾

(المنافقون:٩-١١).

وقد قيل إن نوحًا عليه السلام ، حينما أتاه ملك الموت ليقبض رُوحه بعد أكثر من ألف سنة ، فسأله : يا أطول الأنبياء عمرا ، كيف وجدتَ الدنيا؟ قال : وجدتُها كدار لها بابان ، دخلتُ من أحدهما ، وخرجتُ من الآخر[1]!

ولأنها متاع زائل شُبِّهت بحلم النائم ، وبالظلِّ السريع الزوال ، كما قال الشاعر :

أحلام نوم أو كَظِلٍّ زائل ... إن اللبيب بمثلها لا يُخدع[2]!

كما شبَّهها القرآن بالزرع الأخضر الذي سرعان ما يذوي ويصبح هشيما تذروه الرياح ، كما قال تعالى : ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴾ (الحديد: ٢٠).

---

(١) رواه ابن عساكر في تاريخه (٦٢/٢٧٥) ، عن سفيان بن عيينة .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (٢٣) ، عن الحسن البصري .

الدنيا سريعة التَّقلُّب :

ج- ومن أوصاف الدنيا التي عرَفها بها الناس : سرعةُ التقلُّب من حال إلى حال ، من يُسر إلى عسر ، ومن غنًى إلى فقر ، ومن عزٍّ إلى ذلٍّ ، ومن صحَّة إلى سقم ، ومن شباب إلى هَرَم ، ومن نصر إلى هزيمة ، ومن كَثْرة إلى قلَّة ، ومن حياة إلى موت ، ومن عمران إلى خراب .

وكلُّ امرئ مُعرَّض في كلِّ يوم إلى نعمة زائلة ، أو بليَّة نازلة ، أو منيَّة قاتلة ، أو فقد حبيب ، أو حرمان نصيب ، أو جفاء قريب ، أو علاج طبيب ، أو هجوم مشيب ، أو حدوث أمر غريب .

ومن هنا قالوا : الزمان قُلَّب . وقالوا : الدهر يومان : يوم لك ويوم عليك . وقالوا : دوام الحال من المحال . وقال الله تعالى : ﴿ **إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ** ﴾ (آل عمران: ١٤٠) .

وقال الشاعر :

إنما الدنيا هِبَات ... وعَوَارٍ مُسْتَرَدَّة

شِدَّة بعد رخاء ... ورخاء بعد شِدَّة[1]

وقال آخر :

يا خاطب الدنيا الدنيَّة إنها ... دارُ الرَّدى وقرارةُ الأكدار

دارٌ إذا ما أضحكت في يومها ... أبكت غدًا ، تبًّا لها من دار[2]**!**

وقالت بنت النعمان بن المنذر ، بعد زوال ملك أبيها ، وباتت تسأل الناس ما يكفيها :

فبينا نسوس الناس والأمر أمرنا ... إذا نحن فيهم سوقة نتكفَّف!

فأفٍّ لدنيا لا يدوم نعيمها ... تقلَّب ساعات بنا وتصرَّف

---

(١) من شعر أبي العتاهية .

(٢) من شعر الحريري .

ويقول شاعر آخر :

دع المقادير تجري في أعنَّتها ... ولا تبيتنَّ إلا خالي البال
يوما تريش خسيسَ الحال ترفعه ... إلى السماك ويوما تخفض العالي[1]

ويقول أبو البقاء الرَّندي - في قصيدته الشهيرة - في رثائه لآخر مدينة سقطت في الأندلس :

لكلِّ شيء إذا ما تمَّ نقصان ... فلا يُغَرُّ بطيب العيش إنسان
هي الأمور كما شاهدتُها دُول ... مَن سرَّه زمن ساءته أزمان !
أين الملوك ذوو التيجان من يمن ... وأين عاد وشدَّاد وقحطان؟
وأين ما حازه قارون من ذهب ... وأين ما ساسه في الفرس ساسان؟
أتى على الكلِّ أمر لا مردَّ له ... حتى قَضَوْا فكأنَّ القوم ما كانوا!

حذر الزاهدين من غرور الدنيا :

من أجل هذا ، حرص العقلاء على الحذر من غرور الدنيا ، وأن يتَّخذوها مزرعة الآخرة ، ولا يعيشوا فيها كأنهم مخلَّدون .

قال يحيى بن معاذ الرازي : العقلاء ثلاثة : مَن ترك الدنيا قبل أن تتركه ، وبنى قبره قبل أن يدخله ، وأرضى خالقه قبل أن يلقاه[2] .

وقال بكر بن عبد الله : مَن أراد أن يستغني عن الدنيا بالدنيا ، كان كمطفئ النار بالتبن[3]!

وقال يزيد بن مَيْسَرة : كان أصحابنا يُسمُّون الدنيا خنزيرة ، فيقولون : إليك عني يا خنزيرة! فلو وجدوا لها اسمًا أقبح من هذا لسمَّوها به[4].

وقال الحسن البصري : أدركتُ أقوامًا ، وصحبتُ طوائف ، ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل ، ولا يأسفون على شيء منها أدبر ، ولهي كانت في أعينهم

---

(١) تنسب إلى الواثق بالله .

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٠/٦٨) ، والبيهقي في الزهد الكبير صـ١٩٨ .

(٣) رواه الدينوري في المجالسة (٥٤٨) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (٣٤٧) ، والبيهقي في الزهد الكبير صـ١٣٩ .

أهون من التراب! فإذا كان الليل فقيامٌ على أقدامهم ، يفترشون وجوههم ، تجري دموعهم على خدودهم ، يناجون ربَّهم في فكاك رقابهم . وكانوا إذا عملوا الحسنة دأبوا في شكرها ، وسألوا الله أن يقبلها ، وإذا عملوا السيئة أحزنتهم ، وسألوا الله أن يغفرها لهم ، فلم يزالوا على ذلك ، ووالله ما سلموا من الذنوب ، ولا نجَوا إلا بالمغفرة[1].

الدنيا دار عناء ومتاعب :

د ـ وهي مع ذلك ، دار عناء ومتاعب . قال أحدهم لسيدنا علي رضي الله عنه : صِف لنا الدنيا . فقال : وماذا أصف لك من دار أولها بكاء ، وأوسطها عناء ، وآخرها فناء[2]؟!

أولها بكاء :

يريد بقوله : أولها بكاء : أنَّ الطفل أول ما ينزل من بطن أمه يبكي . وقد عبَّر عن ذلك أحد الشعراء فقال :

لما تؤذن الدنيا به من صروفها ... يكون بكاء الطفل ساعة يولد
وإلا فما يبكيه وإنها ... لأفسح مما كان فيه وأرغد[3]!

أوسطها عناء :

وأما أن أوسطها عناء : فلأنها مبنيَّة على الابتلاء الذي قام عليه أمر الإنسان ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ ﴾ (الإنسان:٢) ، وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ ﴾ (البلد:٤)، أي : في مكابدة للمشقَّات طوال حياته منذ وُلد ، وإلى أن يموت .

فهو يكابد منذ طفولته الآلام والأوجاع ، وبعد ذلك يكابد طلب الرزق ، ومزاحمة الخلق ، ومتاعب التعلُّم ، ومقاساته من أهل الدنيا ومكايدهم وعداواتهم ، حتى قال أحد الصالحين : زهَّدني في الدنيا : قلَّة غنائها ، وكثرة عنائها ، وسرعة

---

(١) رواه الإمام أحمد في الزهد صـ٢٨٥ .

(٢) رواه القالي في الأمالي في لغة العرب (١٢٢/٢) .

(٣) من شعر ابن الرومي .

فنائها ، وخسَّة شركائها! وكان الثوري يقول : الدنيا دار التواء ، لا دار استواء ، ودار تَرَح ، لا دار فرح ، مَن عرفها لم يفرح برجاء ، ولم يحزن على شقاء[1].

ولهذا شبَّهها الحكماء والأدباء بجيفة الميتة التي يتنافس على لحمها الكلاب .

قال القرطبي في تفسير قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ ﴾ (البلد:٤) : (قال علماؤنا : أول ما يكابد قطع سرَّته ، ثم إذا قمط قماطًا ، وشدّ رباطًا ، يكابد الضيق والتعب ، ثم يكابد الارتضاع ، ولو فاته لضاع ، ثم يكابد نبت أسنانه ، وتحرُّك لسانه ، ثم يكابد الفطام ، الذي هو أشد من اللطام ، ثم يكابد الختان ، والأوجاع والأحزان ، ثم يكابد المعلم وصَوْلته ، والمؤدِّب وسياسته ، والأستاذ وهَيْبته ، ثم يكابد شغل التزويج والتعجيل فيه ، ثم يكابد شغل الأولاد ، والخدم والأجناد ، ثم يكابد شغل الدور ، وبناء القصور ، ثم الكبر والهرم ، وضعف الركبة والقدم ، في مصائب يكثر تعدادها ، ونوائب يطول إيرادها ، من صداع الرأس ، ووجع الأضراس ، ورَمَد العين ، وغمّ الدَّيْن ، ووجع السن ، وألم الأذن .

ويكابد محنًا في المال والنفس ، مثل الضرب والحبس ، ولا يمضي عليه يوم إلا يقاسي فيه شدَّة ، ولا يكابد إلا مشقّة ، ثم الموت بعد ذلك كله ، ثم مسألة الملك ، وضَغْطة القبر وظلمته ، ثم البعث والعرض على الله ، إلى أن يستقر به القرار ، إما في الجنة وإما في النار ، قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ ﴾ فلو كان الأمر إليه لما اختار هذه الشدائد .

ودلَّ هذا على أنَّ له خالقًا دبَّره ، وقضى عليه بهذه الأحوال ، فلْيمتثل أمره [2] انتهى .

لذَّات الدنيا ممزوجة بالآلام :

هـ - ومن خصائص الدنيا : أن لذَّاتها ممزوجة بالآلام ، وخيراتها مخلوطة بالشرور ، وعافيتها محفوفة بالبلاء من كلِّ جانب ، لا تدوم على حال ، ولهذا وصفوها بالغدر . يقول الشاعر :

هي الدنيا تقول بملء فيها ... حَذَارِ حَذَارِ من بطشي وفتكي

---

(١) قوت القلوب لأبي طالب المكي (١/٤٤٢) .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ، للقرطبي (٢٢/٢٩٣) .

فـــلا يغْرركمـــو مـــني ابتســـام　　فقولي مُضْحك والفعلُ مبكـــي[1]

ولكثرة متاعب الدنيا وآلامها ، يقول العامة عنها : الدنيا أشغال شاقّة ، ونهايتها الإعدام!

وقال أبو حازم : ما في الدنيا شيء يسرُّك ، إلا وقد ألصق الله إليه شيئًا يسوءك[2]!

وقال الحسن : لا تخرج نفس ابن آدم من الدنيا إلا بحسرات ثلاث : أنه لم يشبع مما جمع ، وأنه لم يدرك ما أمَّل ، وأنه لم يحسن الزاد لما يُقْدم عليه[3].

بل تجد متاعب الدنيا تلاحق الإنسان حتى بعد موته . قيل لابن عمر : إن زيد ابن جارية مات وترك مائة ألف ، فقال : لكنها لا تتركه[4]! يعني أنه سيحاسب عليها .

نسبة الدنيا إلى الآخرة :

ومن المهم هنا لكي نعرف الدنيا على حقيقتها ، ولا يخدعنا سرابها ، ويغرُّنا ظاهر نضرتها : أن نقيسها إلى ضَرَّتها الآخرة ، فبضدِّها تتميَّز الأشياء . فكم تكون نسبة الدنيا إذا قارناها بالآخرة ؟

القرآن يقول : ﴿ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ (التوبة:٣٨).

---

(١) من شعر أبي الفرج الكاتب .

(٢) رواه الدينوري في المجالسة (١٣٩٩) ، وابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (٢٦٣) ، وأبو نعيم في الحلية (٣/٢٣٩) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (٢٧٥) ، وأبو نعيم في الحلية (٦/٢٧٢) .

(٤) رواه ابن أبي شيبة في الزهد (٣٥٧٩١)، وابن الأعرابي في الزهد (١١٨)، والطبراني (٥/٢٢٤)، وأبو نعيم في الحلية (١/٣٠٦)، والبيهقي في الشعب باب الزهد (١٠٦٧٨)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣١/١٧٢)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد : رواه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح (٣/٢٠٥)، وعند ابن أبي شيبة وابن الأعرابي وأبي نعيم والبيهقي والهيثمي : زيد ابن حارثة . وهو تصحيف ، والصواب زيد بن جارية كما في المعجم الكبير والإصابة (٢/٥٩٥).

متاع الدنيا قليل بالنسبة للزمان :

هي قليل بالنسبة إلى الزمان ، إذ لا قيمة لمدَّة الدنيا ـ مهما طالت ـ بالنسبة إلى الخلود ، أو قُل : إلى الأبد .

ولهذا قال ﷺ : « ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه في اليمِّ ، فلينظر : بم يرجع؟»[1]. إذا أدخل الإنسان أصبعه في البحر أو في المحيط ثم أخرجه ، فما قيمة ما علق بأصبعه من ماء بالنسبة لما في البحر أو المحيط؟!

وروى أبو سعيد بن الأعرابي في كتابه (الزهد) بسنده ، عن عمر أنه قال : والله لكأن الدنيا في الآخرة كنَفْجَة أرنب[2]! أي : كوثبته من مَجْثَمه . يريد تقليل مدَّتها . وكأن المعنى : ما مقدار الدنيا بالنسبة إلى الآخرة ـ من ناحية الزمن ـ إلا كالزمن القليل الذي يأخذه الأرنب حين ينتفض من مكان لآخر !

متاع الدنيا قليل بالنسبة للمكان والمساحة :

هذا بالنسبة إلى الزمان . أما بالنسبة إلى المكان والمساحة ، فقد قال تعالى : ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (الحديد: ٢١) ، ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (آل عمران: ١٣٣)، فإذا كان هذا هو عرضها ، فكم يكون طولها؟

وقد وَرَدَ أنَّ آخر مَن يدخل الجنة يُعطى مثل أعظم ملوك الدنيا عدَّة مرات ، فما بالك مَن يدخلها من السابقين المُقرَّبين؟ ففي الحديث : « سأل موسى ربَّه فقال : يا ربِّ ، ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ قال : هو رجل يجيء بعد ما يدخل أهل الجنة الجنة ، فيقال له : ادخل الجنة . فيقول : أي ربِّ ، كيف وقد نَزَل الناس منازلهم ، وأخذوا أَخَذَاتهم ؟ فيقال له : ألا ترضى أن يكون لك مثل مَلِكٍ من ملوك الدنيا ؟ فيقول : رضيتُ ربِّ . فيقول : لك ذلك ومثله ومثله ومثله ومثله . فقال في الخامسة : رضيتُ ربِّ . فيقول : هذا لك وعشرة أمثاله ، ولك ما اشتهت نفسك ، ولذَّت عينك .

---

(١) سبق تخريجه صـ ٧٤ .

(٢) رواه ابن الأعرابي في الزهد (١١٩) ، وابن أبي شيبة في باب الزهد (٣٥٦١٦) .

فيقول : رضيتُ ربِّ . قال : ربِّ فأعلاهم منزلة ؟ قال : أولئك الذين أردتُ ، غرستُ كرامتهم بيدى ، وختمتُ عليها ، فلم ترَ عين ، ولم تسمع أذن ، ولم يخطر على قلب بشر »[1].

ولو قارنا نعيم الدنيا بنعيم الجنة ، لرأينا الدنيا وكأنها لا شيء ، وقد قال تعالى : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (الزخرف:٧١)، وفي الحديث الصحيح الذي يرويه الرسول ﷺ عن ربِّه عز وجل : « قال تعالى : أعددتُ لعبادي الصالحين في الجنة ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر ، اقرأوا إن شئتم : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (السجدة:١٧) »[2].

وإذا كانت هذه نسبة الدنيا إلى الآخرة ، فأي الدارين نُؤثر ، وأيهما نرجِّح؟ وقد قال سيدنا علي رضي الله عنه : مثل الدنيا والآخرة كمثل الضَّرَّتين ، إذا أرضيتَ إحداهما أسخطتَ الأخرى ، وكمثل المشرق والمغرب ، إذا اقتربتَ من أحدهما ابتعدتَ عن الآخر ، وككِفَّتي الميزان ، إذا رجَّحت إحداهما خفَّت الأخرى[3].

لا شكَّ أن الآخرة عند التعارض أولى بالإيثار والترجيح .

* * *

(١) رواه ومسلم في الإيمان (١٨٩) ، والترمذي في تفسير القرآن (٣١٩٨) ، عن المغيرة بن شعبة .

(٢) متفق عليه : رواه البخاري في بدء الوحي (٣٢٤٤) ، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٢٤) ، كما رواه أحمد (٩٦٤٩)، والترمذي في تفسير القرآن (٣١٩٧) ، وابن ماجه في الزهد (٤٣٢٨)، عن أبي هريرة .

(٣) إحياء علوم الدين (١/٦٠) .

obeikandl.com

الفصل التاسع

ليس من مُتَطلَّبات الزهد

يجب علينا هنا في هذا الفصل : أن نكشف عن أمور يعدُّها بعض الناس ـ أو بعض المتصوفة ـ من أساسيَّات الزهد ، ولكنها ـ في ميزان الإسلام ـ ليست من حقيقة الزهد الذي يحبه الله ، ولا من ضروراته .

وسنذكر هنا جملة أشياء ممَّا يُتصوَّر أنها تنافي الزهد ، وهي لا تنافيه ، مثل : الزواج وحب النساء والبنين ، والعزلة عن المجتمع ، والعمل للكسب وامتلاك المال ، والاستمتاع بزينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق . وسنخصُّ كلاً منها بحديث مختصر .

أولاً : ليس من الزهد الإعراض عن الزواج :

وليس ممَّا ينافي الزهد في الدنيا : أن يتزوَّج المسلم ، بل هو من الاستمتاع بطيبات الحياة الدنيا ، التي أباحها الله لعباده ، ومن أهمِّها (الزواج) ، الذي امتنَّ الله به في كتابه ، وجعله آية من آياته ، فقال تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الروم:٢١).

وفي سورة النحل ـ وهي التي تسمَّى سورة النعم ـ ذكره الله تعالى في معرض الامتنان على عباده ، فقال : ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ (النحل:٧٢) .

وخاطب رسوله ﷺ بقوله : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ (الرعد:٣٨).

وقال عن الزوجات : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ (البقرة:١٨٧) ، ثم قال : ﴿ فَٱلْـَٰٔنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ (البقرة:١٨٧).

obeikandl.com

وكان للرسول الكريم ﷺ ، تسع نساء تُوفي عنهنَّ ، ونزلت فيهنَّ آياتٌ من كتاب الله .

وحثَّ القرآن على الزواج ، فقال : ﴿ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾ (النساء:٣).

كما حثَّ المجتمع على التزويج ، فقال : ﴿ وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ (النور:٣٢).

ولم يعتبر الغريزة الجنسية رِجْسًا ولا نَزْغة من الشيطان ، بل ربما كان إشباعها بالحلال عبادة إذا صحَّت النية . وأباح الاستمتاع بالنساء إلا في حالة الحيض : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ﴾ (البقرة:٢٢٢).

﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ (البقرة:٢٢٣).

بل شرع الإفْضَاء إلى النساء ولو في ليالي الصيام ، كما قال تعالى : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ (البقرة:١٨٧) ، بما توحي به كلمة (اللباس) من اللصوق والستر والزينة والدفء .

وقال عليه الصلاة والسلام : « حُبِّب إليَّ من دنياكم : النساء والطيب ، وجعلت قرَّة عيني في الصلاة »[(١)].

وقال ﷺ : « يا معشر الشباب ، مَن استطاع منكم الباءة فَلْيتزوَّج ، فإنه أغضُّ للبصر ، وأحصن للفرج ، ومَن لم يستطع فعليه بالصوم ، فإنه له وجاء »[(٢)].

وقال : « الدنيا متاع ، وخير متاع الدنيا ، المرأة الصالحة »[(٣)].

---

(١) سبق تخريجه صـ ١٠٥ .

(٢) متفق عليه : رواه البخاري (٥٠٦٥) ، ومسلم (١٤٠٠) ، كلاهما في النكاح ، كما رواه أحمد (٣٥٩٢)، وأبو داود (٢٠٤٦)، والترمذي (١٠٨١)، والنسائي (٣٢٠٧)، وابن ماجه (١٨٤٥)، أربعتهم في النكاح ، عن ابن مسعود .

(٣) سبق تخريجه صـ ١٠٥ .

وقال : « تنكح المرأة لأربع : لحسبها ولجمالها ولمالها ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك »[1]، وقال : « أربع من السعادة : المرأة الصالحة ، والمسكن الواسع ، والجار الصالح ، والمركب الهنيء »[2].

ولما سأل بعض الصحابة الرسولَ عليه الصلاة والسلام ، أن يأذن لهم في التبتُّل (أي الترهُّب) أو الخصاء ، أبى عليهم ذلك[3].

وذهب ثلاثة من الصحابة يسألون عن عبادة النبي ﷺ ، زوجاته ، فكأنهم تقالُّوها قالوا : أين نحن من النبيِّ ﷺ ، قد غَفَر الله له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر ؟ قال أحدهم : أما أنا فإني أصلي الليل أبدًا . وقال الآخر : إني أصوم الدهر أبدًا ، ولا أُفطر . وقال الآخر : أنا أعتزل النساء فلا أتزوَّج أبدًا . فجاء رسول الله ﷺ فقال : « أنتم الذين قُلتم كذا وكذا ، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له ، لكني أصوم وأفطر ، وأصلِّي وأرقد ، وأتزوَّج النساء فمَن رغب عن سُنَّتي فليس مني »[4].

وجاءت أحاديث نبوية صحيحة تنصح الأزواج أن يحسنوا الاستمتاع بما أحلَّ الله لهم ، ولا يكون كلُّ همِّ الرجل أن يقضيَ شهوته ، ويريح نفسه ، دون نظر إلى شريكته ، وأنَّ عليه أن يبذل جهدًا في الاستمتاع بأهله ، وفي إمتاعهم أيضًا ، ولذا قال عليه الصلاة والسلام : « إذا غشي الرجل أهله فليصدقها ، فإن قضى حاجته ولم تَقْض حاجتها فلا يعجلها »[5].

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري في النكاح (٥٠٩٠) ، ومسلم في الرضاع (١٤٦٦) ، كما رواه أحمد (٩٥٢١) ، وأبو داود (٢٠٤٧) ، والنسائي (٣٢٣٠) ، وابن ماجه (١٨٥٨) ، ثلاثتهم في النكاح ، عن أبي هريرة .

(٢) رواه ابن حبان في النكاح (٤٠٣٢) عن سعد بن أبي وقاص ، وقال الأرناؤوط : إسناده صحيح على شرط البخاري ، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٥٧٦) .

(٣) عن سعد بن أبي وقاص ، رد رسول الله على عثمان بن مظعون التبتل ، ولو أذن له لاختصينا . متفق عليه : رواه البخاري (٥٠٧٣) ، ومسلم (١٤٠٢) ، كلاهما في النكاح ، كما رواه أحمد (١٥١٤) ، والترمذي (١٠٨٣) ، والنسائي (٣٢١٢) ، وابن ماجه (١٨٤٨) ، ثلاثتهم في النكاح .

(٤) متفق عليه : رواه البخاري (٥٠٦٣) ، ومسلم (١٤٠١) ، كلاهما في النكاح ، كما رواه أحمد (١٣٥٣٤) ، والنسائي في النكاح (٣٢١٧) ، عن أنس بن مالك .

(٥) رواه عبد الرزاق في النكاح (١٠٤٦٨) ، عن أنس .

وبهذا عُلم : أن لا رهبانية في الإسلام .

ولهذا لا تجد في الصحابة مَنْ أعرض عن الزواج وترهَّب ، وانقطع للعبادة ، بل نجد كثيراً منهم تزوَّج أكثر من واحدة ، مثل عمر بن الخطاب ، ومثل علي بن أبي طالب ، الذي كان عنده أربع نسوة ، غير الجواري ، وكان الحسن بن علي سبط رسول الله ﷺ ، أكثر الناس محبَّة للنساء ، وكان يتزوَّج ويُطلِّق . وخصوصًا أن المجتمع كان مجتمع جهاد وقتال في سبيل الله . وكان كثير الشهداء في سبيل الله ، وهؤلاء الشهداء تركوا أرامل من بعدهم ، تزوَّجها رفقاؤهم وإخوانهم من الصحابة ، ليرعونهنَّ ويرعوا أولادهنَّ ، ليكون لهم أجر كافل اليتيم .

خطر الانشغال بالزوجة والأولاد عن حقِّ الله تعالى :

فليس الخطر في الزواج ، بل الخطر في الانشغال بالمرأة والأولاد عن حقِّ الله تعالى وطاعته ، وعند ذلك يكونوا أعداء للمؤمن إذا شغلوه عن ربِّه ، كما قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ﴾ (التغابن:١٤) .

وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ (المنافقون:٩).

تخيير النبيِّ ﷺ نساءَهُ :

وكان للرسول الكريم هَدْيٌ في معاملة النساء ، أشار إليه القرآن حين اجتمع نساؤه وطالبنه بالمزيد من النفقة ، وقد أصبح سيد الجزيرة ، فلماذا هذه الحياة المتقشِّفة يحيينها ؟ فهجرهنَّ عليه الصلاة والسلام ، حتى نزلت آيات (التخيير) في سورة الأحزاب : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

(الأحزاب:٢٨،٢٩) .

وحين قرأ الرسول ﷺ عليهنَّ الآيات ـ بدءًا بعائشة ـ اخْتَرن جميعًا الله ورسوله والدار الآخرة[1] .

هديُهُ ﷺ في بيته ومع نسائه :

وذكر ابن القيم في (زاد المعاد) هديه عليه الصلاة والسلام ، في بيته ومع نسائه ، فقال : (وكانت سيرته مع أزواجه حُسْن المعاشرة ، وحسن الخلق .

وكان يُسرِّب إلى عائشة بنات الأنصار يلعبن معها[2] . وكان إذا هويت شيئًا لا محذور فيه تابعها عليه ، وكانت إذا شربت من الإناء أخذه ، فوضع فمه في موضع فمها وشرب ، وكان إذا تعرَّقت عِرْقا ـ وهو العظم الذي عليه لحم ـ أخذه فوضع فمه موضع فمها ، وكان يتَّكئ في حِجْرها ويقرأ القرآن ورأسه في حجرها ، وربما كانت حائضًا ، وكان يأمرها وهي حائض فتتَّزر ثم يباشرها ، وكان يُقبِّلها وهو صائم ، وكان من لطفه وحُسْن خُلقه مع أهله أنه يُمكِّنها من اللعب ، ويريها الحبشة وهم يلعبون في مسجده ، وهي متَّكئة على منكبيه تنظر ، وسابقها في السفر على الأقدام مرَّتين ، وتدافعا في خروجهما من المنزل مرَّة .

ولقد روت لنا كيف كان النبيُّ ﷺ يراعي صِغَر سنِّها ، وحضَّها على اللهو .

وقد استمع إليها وهي تحكي مواقف الاثنتي عشرة من أزواجهنّ ، وكل امرأة منها لها موقف ، ولها حديث عن زوجها ، وهو ما يعرف بـ(حديث أم زرع) [3].

وكان إذا أراد سفرا أقرع بين نسائه ، فأيَّتهن خرج سهمها خرج بها معه ، ولم يقضِ للبواقي شيئًا ، وإلى هذا ذهب الجمهور .

---

(١) حديث طويل متفق عليه : رواه البخاري في النكاح (٥١٩١) ، ومسلم في الطلاق (١٤٧٩) .

(٢) عن عائشة قالت : كنتُ ألعب بالبنات عند النبي ﷺ ، وكان لي صواحب يلعبن معي ، فكان رسول الله ﷺ إذا دخل يتقمَّعن منه ، فيسربهنَّ إليَّ فيلعبن معي . رواه البخاري في الأدب (٦١٣٠) .

(٣) متفق عليه : رواه البخاري في النكاح (٥١٨٩) ، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٤٨) ، عن عائشة . وأفرده بعض العلماء بالشرح مثل القاضي عياض ، في «بغية الرائد فيما في حديث أم زرع من الفوائد»، و«درة الضرع في شرح حديث أم زرع» للرافعي»، و «حُسْن الفرع على حديث أم زرع» للعلامة أحمد بن عبد الغني التميمي الحنبلي .

وكان يقول : « خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي »[1].

وربما مدَّ يده إلى بعض نسائه في حضرة باقيهن ، وكان إذا صلى العصر دار على نسائه ، فدنا منهنَّ واستقرأ أحوالهنَّ ، فإذا جاء الليل انقلب إلى بيت صاحبة النوبة ، فخصَّها بالليل . وقالت عائشة : كان لا يفضل بعضنا على بعض في مكثه عندهن في القَسْم ، وقلَّ يوم إلا كان يطوف علينا جميعا ، فيدنو من كلِّ امرأة من غير مسيس ، حتى يبلغ التي هو في نوبتها فيبيت عندها[2][3] .

موقف المسلم الزاهد من المرأة :

يتمِّم الأمر موقف الإسلام من المرأة ، وبالتالي موقف المسلم (الزاهد) من المرأة . ولا نتحدَّث هنا عن مكانة المرأة في الشريعة الإسلامية والمجتمع الإسلامي ، وحقوقها الأدبية والاجتماعية والسياسية ، وكيف رفع الإسلام شأنها ، وجعل لها مثل ما للرجل بالمعروف؟

وإنما نتحدَّث عنها باعتبارها نعمة من نعم هذه الدنيا ، وطيِّبة من طيِّبات هذه الحياة ، ماذا كان موقف الإسلام منها؟

قد يثِب إلى الذهن لأول وهلة هذه الأحاديث التي نسمعها من ألسن الوعاظ والخطباء ، ونطالعها في كتب المرشدين والمتصوفين ، مثل : « ما تركتُ بعدي فتنة أضرَّ على الرجال من النساء »[4] ، « اتقوا النساء ، فإنَّ فتنة بني إسرائيل كانت في النساء »[5].

ولكن مهلاً فقد شاءت حكمة الله أن يكون دينه العظيم ـ خاتم الأديان ـ وسطًا في كلِّ شيء ، وأن يكون المؤمنون به أمة وسطًا .

---

(١) رواه الترمذي في المناقب (٣٨٩٥) ، وقال : حسن صحيح ، والدارمي في النكاح (٢٢٦٠) ،

(٢) رواه أحمد (٢٤٧٦٥) ، وقال مخرجوه : إسناده ضعيف ابن أبي الزناد قد تفرد به وهو مما لا يحتمل تفرده ، وأبو داود في النكاح (٢١٣٥) ، وقال الألباني في صحيح أبي داود (١٨٥٢) : حسن صحيح ، والحاكم في الطهارة (١٨٦/٢) ، وصحح إسناده ، ووافقه الذهبي .

(٣) زاد المعاد لابن القيم (١٥٠/١-١٥٣) .

(٤) سبق تخريجه صـ ٧٠ .

(٥) سبق تخريجه صـ ٧٠ .

فتنة شعوب ومذاهب بجسد المرأة :

فهناك شعوب وأمم ، وفلسفات ومذاهب فُتنت بالمرأة ، وشُغفت بجسدها ، وجعلت أدبها وفنها ، ونثرها وشعرها ، وصحافتها ومسرحها وخيَّالتها تدور حول محور واحد ، هو جسد المرأة ، وخصرها النحيل ، وقدِّها الأسيل ، وطرفها الكحيل ، وشعرها الناعم ، ونهدَيْها البارزين ، وغير ذلك من تفاصيل جسدها ، وفي ذلك ما فيه من فتنة وإغراء ، يُنْبئ عن فساد وانحطاط وضياع .

لقد قام مزدك في فارس في أوائل القرن السادس الميلادي فدعا إلى إباحة النساء والأموال ، وكان من جرَّاء ذلك ما كان من انتشار الفساد ، وانحطاط البلاد ، واختلاط الأنساب . ولم يلبثوا إلا قليلاً حتى صاروا لا يعرف الرجل ولده ، ولا المولود أباه . وها هي المدنية الغربية قد جعلت المرأة معبودًا جديدًا ، فانحل عقد الأسرة ، واضْطرب نظام المجتمع ، وتوتَّرت الأعصاب ، وكثر الفساد ، وأصبح خلف كلِّ حادثة وكارثة امرأة مكشوفة أو وراء الستار ، حتى قالوا : (فتش عن المرأة) .

موقف رهبان المسيحيَّة من المرأة :

وعلى نقيض هؤلاء كان رهبان المسيحية وعُبَّادها في القرون الوسطى ، كانوا يفرُّون من ظلِّ النساء ، ويَتَأثَّمون من قُربهنَّ والاجتماع بهن ، وكانوا يعتقدون أن مصادفتهنَّ في الطريق ، والتحدُّث إليهن ـ ولو كُنَّ أمهات أو شقيقات ـ يحبط أعمالهم الصَّالحة ، وجهودهم الروحيَّة ، وقد روى (ليكى) في كتابه (تاريخ أخلاق أوروبا) من هذه المبكيات المضحكات شيئًا كثيرًا .

وسطيَّة الإسلام في موقفه من المرأة :

أما الإسلام فقرَّر أن المرأة آية من آيات الله ، جعلها الله للرجل أنس نفسه ، وسكن قلبه ، تُشيع في جوِّه المودَّة ، وتنشر الرحمة : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الروم: ٢١).

الترغيب في الزواج :

حظر على المسلم قصد العزوبة ، والتعبُّد بها ، إذ لا رهبانية في الإسلام . ورغَّب في الحياة الزوجية ؛ لما فيها من تكثير النسل ، وكَسْر شرَّة الشهوة ، وإحصان النفس بالمتعة الحلال ، وعمارة الكون ، وتدبير المنزل ، وتوسيع دائرة العشيرة . والآيات والأحاديث في ذلك شتَّى .

المرأة من نِعَم الله الكبرى :

وأعلن الرسول ﷺ : أنَّ المرأة من نِعَم الله الكبرى على عبده : « أربع من أُعطيهنَّ فقد أُعطي خير الدنيا والآخرة : قلب شاكر ، ولسان ذاكر ، وبدن على البلاء صابر ، وزوجة لا تبغيه خَوْنًا في نفسها ولا ماله »[1].

وقال : « الدنيا متاع ، وخير متاعها الزوجة الصالحة »[2] ، « ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيرًا له من زوجة صالحة ، إنْ أمرها أطاعته ، وإن نظر إليها سرَّته ، وإن أقسم عليها أبرَّته ، وإن غاب عنها نصحته في نفسها وماله »[3].

العناية بجانب الجمال في المرأة :

ولم يهمل الجمال إهمالاً كاملاً ، بل جعل له نصيبًا غير مجهول في ترجيح شريكة الحياة : « تنكح المرأة لأربع لمالها ولحسبها وجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك »[4] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سُئل النبي ﷺ : أيُّ النساء خير؟ فقال : « خير النساء مَن تسُرُّ إذا نظر ، وتطيع إذا أمر ، ولا تخالفه في نفسها ومالها »[5].

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (١٣٤/١١) ، وفي الأوسط (٧٢١٢) ، وأبو نعيم في الحلية (٦٥/٣) ، والبيهقي في الشعب باب تعديد نعم الله (٤٤٢٩) ، عن ابن عباس ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد : رواه الطبراني في الكبير والأوسط ، ورجال الأوسط رجال الصحيح (٥٠٢/٤) .

(٢) سبق تخريجه صـ ١٠٥ .

(٣) رواه ابن ماجه في النكاح (١٨٥٧) ، والطبراني (٢٢٢/٨) ، عن أبي أمامة ، وضعف سنده العجلوني في كشف الخفا وقال : له شواهد تدل على أن له أصلا (١٨١/٢) .

(٤) سبق تخريجه صـ ١٧٩ .

(٥) رواه النسائي في النكاح (٣٢٣١) ، والطيالسي (٢٤٤٤) ، والحاكم في النكاح (١٦١/٢) ، وصححه على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي ، عن أبي هريرة .

وكانت سيرة النبي عليه السلام في ذلك قدوة حسنة ، فقد كان يمزح معهنَّ ، ويطيِّب نفوسهنَّ ، ويستمع إليهنَّ ، ويُصْغي إلى قصصهنَّ وأحاديثهن وإن طالت ، كما تقدَّم في هديه في بيته ومع نسائه . وقد سابق عائشة فسبقته مرَّة ، ثم سبقها مرَّة ، فقال : « هذه بتلك »[1].

لقد بالغ الإسلام في الوصيَّة بالمرأة وحُسن برِّها أُمًّا ، وحُسن تربيتها بنتًا ، وحُسْن رعايتها زوجةً .

المحذور من جهة المرأة :

أما المحذور في الإسلام فهو أمران :

الاستمتاع الحرام بالمرأة :

الأول : أن يدع الرجل أبواب الحلال الطيِّب ، ويلج أبواب الحرام الخبيث ، ويبحث عن خدينة تخادنه ، فهذا ما حذَّر الله منه ، ونهى عباده عنه : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ (الإسراء:٣٢).

الحكمة من تحريم الزنى :

أجل ! حرَّم الله الزنى ، لا تضييقًا على الرجل والمرأة ، ولا كراهية للتمتُّع بالطيِّبات ، ولكن لما فيه من أضرار جسيمة على الفرد والأسرة والمجتمع ، من فقدان الغَيرة ، واختلاط الأنساب ، وتفكُّك الروابط ، وانهيار الأخلاق .

وإذا أُصيب القــومُ في أخلاقهــم فأقم عليهم مأتـــمًا وعــويلا[2]

---

(١) رواه أحمد (٢٤١١٨) ، وقال مخرجوه : إسناده صحيح على شرط الشيخين ، وأبو داود في الجهاد (٢٥٧٨) ، وابن أبي شيبة في السير (٣٤٢٧٤) ، وابن حبان في السير (٤٦٩١) ، وقال الأرناؤوط : إسناده صحيح ، والطبراني (٤٧/٢٣) ، والبيهقي في الكبرى كتاب السبق والرمي (١٧/١٠) ، عن عائشة ، صححه الألباني في الصحيحة (١٣١) .

(٢) من شعر أحمد شوقي .

obeikandl.com

وقد رسم رسول الله ﷺ ، الخطة لكلِّ شاب تائق إلى النساء :« يا معشر الشباب ، مَن استطاع منكم الباءة فليتزوَّج ، فإنه أغضُّ للبصر ، وأحصن للفرج ، ومَن لم يستطع فعليه بالصوم ، فإنه له وجاء»[1].

إغلاق أبواب الفتنة الجنسية :

ولكيلا تصعب الحياة على الشاب العزب ، الذي لا يجد القدرة على الزواج ، أمر أن تُغلق الأبواب التي تهبُّ منها رياح الفتنة الجنسية ، فحرَّم تبرُّج الجاهلية ، والخلْوة الشيطانيَّة ، والغزل المكشوف ، والغناء الماجن ، وزي الكاسيات العاريات ، وكلَّ ما يهيِّج الغريزة ، ويحرِّك الشهوة البهيمية .

تيسير سبل الزواج والاستمتاع الحلال :

ومن الناحية الإيجابية : أزال العوائق ، ويسَّر السبل للزواج المشروع ، والاستمتاع الحلال ، فلا ينبغي أن تقف العقبات المادية أو الاجتماعية في سبيل الزواج : « خير الصداق أيسره»[2]، « إذا جاءكم مَنْ ترضون دينه وخلقه فأنكحوه ، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد»[3].

كلُّ ذلك رحمة من الله بالإنسان ، كي يستمتع بما أحلَّ الله له ، ويبتعد عما حرَّم الله ، ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾

(النساء:٢٦-٢٨).

---

(١) سبق تخريجه صـ ١٧٨ .

(٢) رواه الحاكم في النكاح (١٨٢/٢) ، وصححه على شرطهما ، ووافقه الذهبي ، والبيهقي في الكبرى كتاب الصداق (٢٣٢/٧) ، عن عقبة بن عامر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٢٧٩) .

(٣) رواه الترمذي في النكاح (١٠٨٤) ، وقال : خولف عبد الحميد بن سليمان ، فرواه الليث بن سعد عن ابن عجلان عن أبي هريرة مرسلاً ، وابن ماجه في النكاح (١٩٦٧) ، والحاكم في النكاح (١٦٥/٢) ، وصحح إسناده ، وقال الذهبي : عبد الحميد قال أبو داود : غير ثقة ، ووثيمة لا يُعرف من هو ، عن أبي هريرة ، وحسَّنه الألباني في مشكاة المصابيح (٣٠٩٠) .

الانشغال بالمرأة عن واجب الدين والأمة :

الأمر الثاني : الذي يُحذِّر منه الإسلام أن تصبح المرأة ـ ولو كانت حلالاً طيبًا ـ شغل الرجل الشاغل ، ومعبوده المقدَّس ، في سبيل القرب منها والأنس بها يضحِّي بحقِّ الجماعة ، ويصمُّ سمعه عن نداء الأمة ، ويُشغل بها عن واجب دينه وربِّه ، وتصبح أحبَّ إليه من الله ورسوله وجهاد في سبيله ، وفي مثل هذه الحال يقول القرآن : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ﴾ (التغابن:١٤)، وأي عدوٍّ أدهى وأضر ممَّن يُلهيك عن عبادة الله ، وعن إعلاء كلمة الله؟!

المؤمن الحقُّ هو الذي يحبُّ المرأة ويأنس بها ، فإذا جدَّ الجدُّ ، ودقَّت ساعة الخطر ، ودعا داعي الجهاد ، طلَّق الفراش الوثير ، وفارق الوجه الجميل ، وركض إلى الله ، ورضي الله عن أبي خيثمة حين خرج وترك زوجتيه في غزوة تبوك .

في مثل هاتين الحالتين : الاستمتاع الحرام بالمرأة ، والانشغال بها عن واجب الدين والأمة ، يورد الإسلام نذره الصارخه ، وتحذيراته الصارمة من فتنة النساء .

الاستمتاع بالزوجة عبادة :

بل إنَّ الاستمتاع بمباشرة الزوجة يجعله الإسلام عبادة إذا صحبتها النية الصالحة ، التي تنقل المباحات دائمًا إلى طاعات وقُربات ، وكان يقصد كلٌّ منهما إحصان الآخر وإعفافه عن الحرام ، استجابةً لأمر الله في التمتُّع بما أحلَّ لهم ، فضلا عن طلب الولد وابتغاء النسل .

وقال عليه الصلاة والسلام ، وهو يعلِّم أصحابه : « وفي بُضْع أحدكم صدقة » . قالوا : يا رسول الله ، أيأتي أحدنا شهوته ، ويكون له فيها أجر؟! قال : « أرأيتم لو وضعها في الحرام ، أكان عليه وزر؟ » . قالوا : نعم . قال : « فكذلك إذا وضعها في الحلال ، كان له أجر » رواه مسلم[1].

وقد جعل النبي ﷺ مداعبة الرجل أهله ومطايبة امرأته ، طاعة تقتضي الأجر والمثوبة . قال لسعد : « إنك لتؤجر في كلِّ شيء ، حتى اللقمة تضعها في فم

---

(١) رواه مسلم في الزكاة (١٠٠٦) ، وأحمد (٢١٤٧٣) ، وابن حبان في النكاح (٤١٦٧) ، والبيهقي في الكبرى كتاب الزكاة (١٨٨/٤) ، عن أبي ذر .

امرأتك»[1]، وهل يضع الزوج اللقمة في في زوجته إلا من باب المداعبة والمطايبة والمزاح؟[2]

إنما ذمَّ القرآن مَن يجعل التمتُّع همّه ومبتغاه، فيتحوَّل من إنسان ذي عقل ورُوح إلى بهيمة ذات غريزة وشهوة فحسب، ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَـٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ (محمد:١٢).

وذمَّ الذين يُسقطون الآخرة من حسابهم، فلا يَدَعون شيئًا من طيبات الدنيا - مهما كان سحتًا أو حرامًا - إلا استمتعوا به، وهؤلاء هم الذين يُقال لهم يوم القيامة: ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَـٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ (الأحقاف:٢٠).

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الجنائز (١٢٩٥)، ومسلم في الوصية (١٦٢٨)، كما رواه أحمد (١٤٨٨)، وأبو داود (٢٨٦٤)، والترمذي (٢١١٦)، والنسائي (٣٦٢٦)، وابن ماجه (٢٧٠٨)، أربعتهم في الوصايا، عن سعد بن أبي وقاص.

(٢) وللقاضي عبد الوهاب بن علي البغدادي المالكي المتوفى بالقاهرة سنة ٣٩١ هـ أبيات يتغزل فيها بزوجته وهو الفقيه الزاهد، يصف فيه ما فعل حين دخل على زوجته فرآها تغطُّ في نوم عميق:

ونائمة قبَّلتها فتنبَّهت ... وقالت: تعالوا واطلبوا اللصَّ بالحدِّ

فقلت لها: إني فديتك غاصبٌ ... وما حكموا في غاصب بسوى الردِّ

خذيها وكفِّي عن أثيم ظلامة ... وإن أنت لم ترضَيْ فألفًا على العدِّ

فقالت: قصاص يشهد العقل أنه ... على كبد الجاني ألذُّ من الشهد

فباتت يميني وهي هميان خصرها ... وباتت يساري وهي واسطة العقد

فقالت: ألم تخبر بأنك زاهد ... فقلت: بلى ما زلت أزهد في الزهد

أبيات فيها ودّ بين الزوجين المحبين، يمازح الرجل زوجته ويتقرب إليها، فتجيبه بالأسلوب المرح نفسه. ولا ينسى الشاعر الفقيه في غمرة الوصال أن يفرق بين عقوبة اللص وعقوبة الغاصب. فاللصُّ يُحَدُّ والغاصب يردُّ ما اغتصبه، وهو الآن غاصب لا يرى حرجًا أن يردَّ ما أخذ من زوجته وهي غافلة! أضعاف حقها، وهما الرابحان في غصب الحق وإعادته.. وما أحلى تصوير الموقف الذي جمع الحبيبين بعد هذا الحكم العدل الذي أرضى الطرفين!! واقرأ البيت الأخير تجد الحوار القصير بينهما، سؤال وجواب.. أما السؤال فدلع وتحبُّب، وأما الجواب فتقرُّب وتزلُّف.. إنه الحب الرضي والألفة الزوجية الرحمية الرائعة التي لا تتنافى مع الزهد.

ثانيا : ليس من الزهد العزلة عن المجتمع :

وليس من ضرورة الزهد : العزلة عن المجتمع ، والبُعد عن المشاركة في أنشطته الفكرية والثقافية ، والاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، إذ لا رهبانية في الإسلام ، والأسوةُ للناس هنا هم أنبياء الله ورسله ، الذين حملوا رسالة الهداية إلى البشر ، فدعوهم إلى الله ، فآمن بهم مَن آمن ، وكفر بهم مَن كفر ، ولم يزالوا على دعوتهم حتى نصرهم الله ، وأخذ أعداءهم أخْذًا أليمًا شديدًا .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : مرَّ رجلٌ من أصحاب رسول الله ﷺ ، بشِعب في عُيينة من ماء عَذْبة ، فأعجبته لطيبها ، فقال : لو اعتزلتُ الناس فأقمتُ في هذا الشعب ، ولن أفعل حتى أستأذن رسول الله ﷺ ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال : « لا تفعل ، فإنَّ مُقام أحدكم في سبيل الله ، أفضل من صلاته في بيته سبعين عامًا ، ألا تحبُّون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة؟ اغزو في سبيل الله ، مَن قاتل في سبيل الله فُواق ناقة وجبت له الجنة »[1].

مشاركة عبد الله بن المبارك في أنشطة الحياة المتنوِّعة :

لذا رأينا من الأئمة الزهَّاد مَن يشارك في أنشطة الحياة المُتنوِّعة ، يروي الحديث ويُفقِّه الأمة في الدين ، ويعلِّم الجاهلين ، ويفتي المستفتين ، ويؤلِّف الكتب ، ويجود بماله على المحتاجين ، ويشارك في الجهاد والرباط مع المجاهدين والمرابطين .

وأوضح مثل لذلك : هو الإمام العَلَم عبد الله بن المبارك (ت١٨١هـ) ، صاحب الشخصية الرحبة ، التي جمعت الفضائل المتعدِّدة في رجل واحد ، على نحو ما قال الشاعر :

---

(١) رواه أحمد (١٠٧٨٦) ، وقال مخرِّجوه : إسناده حسن ، والترمذي (١٦٥٠) ، وقال : حديث حسن ، والحاكم (٦٨/٢) ، وصحَّحه على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي ، كلاهما في الجهاد ، والبيهقي في الكبرى كتاب السير (١٦٠/٩) ، عن أبي هريرة ، وحسَّنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٣٠١) . وقد ذكر هذه القصة شيخنا البهي الخولي وعلَّق عليها في كتابه (تذكرة الدعاة) .

لـــــيس علـــى الله بمُسْــــتَنْكَر أن يجمَـــعَ العـــالَمَ في واحـــد!

وقد كتب وهو في الرباط والجهاد ، إلى أخيه وصديقه الزاهد العابد الشهير الفضيل بن عياض ، الذي كان يتردَّد بين مكة والمدينة متنسِّكا بالطاعة والتقرُّب إلى الله جل جلاله ، كتب إليه أبياتا شهيرة ، قال له فيها :

يا عابد الحـــرمين لـــو أبصـــرتنا لعلمتَ أنـــك بالعبـــادة تلعـــب!
مَن كان يخضب خـــدَّه بدموعـــه فنحورنـــا بـــدمائنا تتخضَّـــب[1]

ثالثا : العمل لكسب الدنيا ليس مذمومًا ولا ينافي الزهد :

وليس من متطلَّبات الزهد أن يترك الإنسان المسلم عمله الدنيوي ، ويعيش عالةً على غيره ، بل العمل لكسب العيش مطلوب طلبًا شرعيًا ، وليس مذمومًا في ذاته . فإنَّ الله تعالى منذ خلق الأرض ، ﴿ وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا ﴾ (فصلت:١٠) ، وجعل فيها معايش للناس ، ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (الأعراف:١٠) ، وضمن لهم رزقهم فيها : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ (هود:٦) ، ولكن قَضَتْ سُنَّته في خلقه : أن لا يحصل الإنسان على رزقه إلا بالمشي في مناكب الأرض ، والتماسه في خباياها .

الأمر بالمشي في مناكب الأرض والتماس الرزق فيها :

لهذا أمر الله تعالى به في آيات كثيرة من القرآن . قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولاً فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ (الملك:١٥) ، حتى يوم الجمعة ـ وهو العيد الأسبوعي للمسلمين ـ لم يطلب فيه التفرُّغ للعبادة ، ولم يُحرِّم العمل الدنيوي فيه كما حَرَّمت اليهودية العمل في يوم السبت ، بل قال تعالى : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (الجمعة:١٠) ، أي : صلاة الجمعة .

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٣٢/٤٤٩) ، وفي أحد ملتقيات الفكر الإسلامي بالجزائر : أنكر أحد الدعاة الكبار نسبة هذا الشعر إلى ابن المبارك ، مستبعدًا أن يقول : (أنك بالعبادة تلعب) . والقصة ثابتة ومشهورة ، ذكرها ابن كثير في تفسيره في آخر سورة آل عمران (١/٤٤٧)، طبعة الحلبي ، نقلاً عن ابن عساكر ، وذكرها الذهبي في سير أعلام النبلاء (٨/٣٦٤،٣٦٥) ، وغيرهم .

سبب تخفيف صلاة الليل عن المسلمين :

وقال في سبب تخفيفه عن المسلمين في صلاة الليل ، وإنه لم يفرضها عليهم : ﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَـٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ (المزمل:٢٠) ، فانظر كيف قرن بين الضرب في الأرض لطلب المعيشة وبين القتال في سبيل الله . وانظر أيضا كيف أطلق على هذا العمل الدنيوي هذه العبارة الجميلة ، ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ (الفتح:٢٩).

وقد قال عمر بن الخطاب : ما جاءني أجلي في مكان ـ ما عدا في سبيل الله عزَّ وجل ـ أحبُّ إليَّ من أن يأتيني وأنا بين شعبتي رَحْلي ، أطلب من فضل الله[1].

وقد أثنى القرآن على التجَّار الذين يعمرون المساجد بالصلوات ، ولم تشغلهم تجارتهم ولا أموالهم ، فيقول تعالى : ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ ﴾(النور:٣٧).

ابتغاء فضل الله في الحج :

وحتى في الحجِّ لم يمنع التجارة فيه ، قال سبحانه : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ (البقرة:١٩٨).

تعليم داود صناعة الحديد :

وأثنى الله على نبيِّه داود بأن علَّمه صناعة الدروع من الحديد : ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝١٠ أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ ﴾ (سبأ:١٠،١١) .

صحاح الأحاديث تُنوِّه بالحِرَف والأعمال الدنيويَّة :

وجاءت جملة من صحاح الأحاديث تنوِّه بالحِرف والأعمال الدنيوية ، مثل الزراعة والصناعة والتجارة ، كما في قوله عليه الصلاة والسلام : « ما من مسلم يغرس غرسًا ، أو يزرع زرعًا ، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة »[2].

---

(١) رواه عبد الرزاق في الجامع (٢١٠١٨) ، والبيهقي في الشعب باب التوكل بالله (١٢٥٦) .

(٢) متفق عليه : رواه البخاري في الحرث والمزارعة (٢٣٢٠) ، ومسلم في المساقاة (١٥٥٣) ، كما رواه أحمد (١٣٣٨٩) ، والترمذي في الأحكام (١٣٨٢) ، عن أنس .

«ما أكل أحدٌ طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده ، وإنَّ نبيَّ الله داود كان يأكل من عمل يده»[1] .

«التاجر الصَّدوق مع النبيِّين والصِّدِّيقين والشُّهداء»[2].

الشروط التي تجعل العمل الاقتصادي عبادة لله وجهادًا في سبيله:

بل يُضفي الإسلام على هذا العمل الاقتصادي لونًا من القدسية ، بحيث يصبح ضربا من العبادة لله ، أو من الجهاد في سبيل الله . إذا تحقَّقت فيه جملة شروط :

النيَّة الصحيحة :

١- أن تكون وراءه نيَّة صحيحة : أن يعفَّ نفسه عن سؤال الناس ، وأن يقوم بأعباء أسرته وعياله ، ويُسهم في رُقيِّ أمَّته ، ويقوم بدوره في عمارة الأرض ، ومساعدة أهل العَوز والحاجة من حوله . وهذه كلُّها أهداف مشروعة ، يُثاب عليها مَن قصد إليها .

إحسان العمل وإتقانه :

٢- أن يؤدِّي عمله بإحسان وإتقان كما يحبُّ الله تعالى ، فقد قال رسوله : «إن الله كتب الإحسان على كلِّ شيء»[3]، والإحسان هو إحكام العمل وإتقانه ، ومعنى (كتبه) ، أي : فرضه فرضيَّة مؤقَّتة ، كما فرض الصيام بقوله : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾ (البقرة:١٨٣) . وفي الحديث الآخر : «إن الله يحبُّ إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه»[4].

---

(١) رواه البخاري في البيوع (٢٠٧٢)، وابن ماجه في التجارات (٢١٣٨)، عن المقدام بن معديكرب .

(٢) رواه الترمذي (١٢٠٩) ، وقال : حديث حسن ، والدارمي (٢٥٣٩) ، والحاكم (٦/٢) ، شاهدًا وحكم عليه بالإرسال ، والدارقطني في السنن (٧/٣)، أربعتهم في البيوع ، عن أبي سعيد الخدري، وصحَّحه الألباني لغيره في صحيح الترغيب (١٧٨٢) .

(٣) رواه مسلم في الصيد والذبائح (١٩٥٥) ، وأحمد (١٧١٣٩) ، وأبو داود في الضحايا (٢٨١٥) ، والترمذي في الديات (١٤٠٩) ، والنسائي في الضحايا (٤٤٠٥) ، وابن ماجه في الذبائح (٣١٧٠) ، عن شداد بن أوس .

(٤) رواه أبو يعلى (٤٣٨٦) ، والبيهقي في الشعب باب حفظ اللسان (٥٣١٤) ، عن عائشة ، وصححه الألباني في الصحيحة (١١١٣) .

مشروعية العمل وإباحته :

٣- أن يكون عمله مشروعا مباحًا ، فأما إذا كان محرَّمًا ، فإنَّ تعبه فيه لا يكسبه إلا إثمًا ووزرًا . كالذي يزرع التبغ أو النباتات المُخدِّرة ، أو يُصنِّعها لتتحوَّل إلى سموم تقتل الشعوب ، أو يتاجر فيها ليكسب الملايين من ورائها ، ولا يبالي بقتل الملايين من البشر ، وكذلك كل مَن يبيع ما حرَّم الله كالخمر والخنزير ، أو ينتج ما حرَّم الله ، أو يروِّج ما حرَّم الله ، كمنتجات الفنِّ الخليع ، وصحافة الإغراء والفضائح التي يسمُّونها الصحافة الصفراء وغيرها . فعمله هذا اتِّباع لخطوات الشيطان .

التزام حدود الله ورعاية حقوق الناس :

٤- أن يلتزم في عمله حدود الله ، ويرعى حقوق الناس ، فلا يظلم أحدا ، ولا يخون متعاملا ، ولا يجور على حقٍّ ، ولا يغشُّ ولا يخدع . وإن كان يبيع أو يشتري ، فلا يطفِّف في كيل أو وزن ، ولا يبخس الناس أشياءهم ، ولا يكون همّه ربح الدنيا وإن خسر الآخرة . وحسبه وعيد الله للمطففين : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (المطففين:١-٦). هذا فيمن طمع في حفنة أو بعض حفنة من حقِّ غيره ، فما بالك بمَن يأكل حقوق الآخرين كلِّها ولا يبالي ؟

الموازنة بين العمل للدين والدنيا :

٥- ألا يلهيه عمل دنياه عن عمل دينه ، ولا حظُّ نفسه عن حقِّ ربه ، بل يعمل لدنياه كأنه يعيش أبدًا ، ويعمل لآخرته كأنه يموت غدًا ، لا يُضيِّع صلاة ، ولا يبخل بزكاة ، ولا يفرِّط في جَنْب الله ، ولا ينسى ذكر الله ، ولا يكون من الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم . واضعًا نصْب عينيه قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ (المنافقون:٩)[1].

---

(١) انظر : كتابنا (العبادة في الإسلام) صـ٥٣- ٧٨ الطبعة التاسعة والعشرون ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م نشر مكتبة وهبة .

رابعًا : ليس من ضرورة الزهد أن يعيش المسلم فقيرًا :

وكذلك ليس من الزهد أو من ضرورة الزهد : أن يعيش المسلم فقيرًا لا يملك شيئًا ، فإذا كان العمل لكسب الدنيا من حِلِّها بشروط ليس مذمومًا ، فكذلك الحصول على الغنى وامتلاك الدنيا بشروطها ليس مذمومًا . المهم أن يملك الدنيا ولا تملكه ، وأن يستخدمها ولا تستخدمه ، وأن يضعها في يده ، ولا يُسكِنها في قلبه ، وألاَّ يتَّخذها له ربًّا ، فتتَّخذه لها عبدًا . فقد خلق الله الدنيا للإنسان ، ولم يخلق الإنسان للدنيا!

وليس في الإسلام ما في المسيحيَّة من ذمٍّ الغنى مطلقًا ، كما ورد في الإنجيل : لا يدخل الغني ملكوت السموات حتى يدخل الجمل في ثقب الإبرة[1].

وليس فيه ما قال المسيح لمَن أراد أن يؤمن بربِّه ويتَّبعه : اذهب فبِع مالك ثم اتَّبعني[2].

امتنان الله على رسوله والمؤمنين بالغنى :

بل في القرآن امتنان الله على رسوله بالغنى في قوله : ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلاً فَأَغْنَىٰ ﴾ (الضحى:٨) ، وقوله في شأن المؤمنين : ﴿ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (آل عمران:١٤٨)، فاعتبر إعطاء الدنيا من الثواب المُعجَّل للمؤمنين .

وقال تعالى على لسان نوح : ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴾ (نوح:١٠-١٢) ، فجعل إعطاء الأموال والجنات والأنهار من عاجل مثوبتهم على استغفارهم لربِّهم .

سَعَة الرزق من ثمرات التقوى :

وفي القرآن آيات كثيرة تجعل سَعة الرزق من ثمرات التقوى والعمل الصالح ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ

---

(١) إنجيل متى (١٩/٢٣) .
(٢) مرقص (١٠/٢١) .

ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (الأعراف:٩٦)، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ (الطلاق:٢،٣) ، ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ (النحل:٩٧) ، وغيرها من الآيات .

من أدعيته ﷺ في شأن المال والغنى :

وكان من دعائه ﷺ : «اللهم إني أسألك الهدى والتُّقى والعفاف والغنى»[١]، «اللهم إني أعوذ بك من فتنة النار وعذاب النار ، وفتنة القبر ، وعذاب القبر ، وشرِّ فتنة الغنى ، وشرِّ فتنة الفقر»[٢]، وأثنى على الله ثناءً طويلاً عظيمًا ثم سأل الغنى وقضاء الدَّيْن :«اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء ، اقْضِ عنا الدين وأغننا من الفقر»[٣].

ولو كان الفقر خيراً يُسعى إليه ، ويُحرص عليه ، ما استعاذ بالله من شرِّه ، وما فرض الزكاة على الأغنياء لتردَّ على الفقراء ، وما قال :«اليد العليا خير من اليد السفلى»[٤]، أي : اليد المعطية خير من اليد الآخذة .

ولا وضع المناهج وشرع الأنظمة لعلاج مشكلة الفقر ، وتحقيق الكفاية التامة للفقراء ، بالزكاة ، وبنفقات الأقارب الموسرين على المعسرين ، وبفرض حقوق في المال بعد الزكاة إذا لم تكفِ حاجات الفقراء ، وبموارد الدولة المختلفة .

---

(١) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٧٢١) ، وأحمد (٣٩٠٤) ، والترمذي (٣٤٨٩) ، وابن ماجه (٣٨٣٢) ، كلاهما في الدعوات ، عن عبد الله بن مسعود .

(٢) متفق عليه : رواه البخاري في الدعوات (٦٣٧٧) ، ومسلم في الذكر والدعاء (٥٨٩) ، كما رواه أحمد (٢٥٧٢٧) ، والترمذي في الدعوات (٣٤٩٥) ، عن عائشة .

(٣) رواه مسلم في الذكر (٢٧١٣) ، وأحمد (٥٩٦٠) ، وأبو داود في الأدب (٥٠٥١) ، والترمذي في الدعوات (٣٤٠٠) ، عن أبي هريرة .

(٤) متفق عليه : رواه البخاري (١٤٢٧) ، ومسلم (١٠٣٥) ، كلاهما في الزكاة ، كما رواه أحمد (١٥٣٢٦) ، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٦٣) ، والنسائي في الزكاة (٢٥٣١) ، عن حكيم ابن حزام .

وفي الحديث النبوي : « إنَّ من أمنِّ الناس عليَّ في صحبته وماله أبا بكر »[1]، « ما نفعني مال كمال أبي بكر »[2]، « إنَّ الله يحبُّ العبد التقى الغنى الخفى »[3]، ومعنى « الخفي » : البعيد عن الشُّهرة ، أي : الذي يعمل في صمت .

ليس الغنى مناقضًا للصلاح والتقوى :

فليس الغنى مناقضًا للصلاح والتقوى ، فقد ذكر القرآن بعض الأنبياء الذين آتاهم الله مالاً وملكًا ومكَّن لهم في الأرض ، كما أعطى يوسف : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (يوسف:٥٦) .

وكذلك أعطى داود وسليمان ملكًا عظيمًا ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (النمل:١٥).

وكذلك كان بعض أصحاب النبيِّ ﷺ من ذوي الثروة ، وقد بذلوا منها في سبيل الله ما بذلوا ، ولم يضنُّوا بها على نُصْرة الإسلام ، كما في تجهيز جيش العُسرة وغيرها .

من هؤلاء : عثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وهما من السابقين الأوَّلين من المهاجرين ، ومن العَشَرة المُبشَّرين بالجنَّة ، والذين تُوفِّيَ رسول الله ﷺ ، وهو عنهم راضٍ .

وجمع كثيرٌ من السَّلف الصالحين من هذه الأمة بين الغنى والتُّقى ، وهو الذي يسمِّيه المسلمون (الغني الشاكر) .

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري في الصلاة (٤٦٧) ، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٣٨٢) ، كما رواه أحمد (١١١٣٤) ، والترمذي في المناقب (٣٦٦٠) ، عن أبي سعيد الخدري .

(٢) رواه أحمد (٧٤٤٦) ، وقال مخرجوه : إسناده صحيح على شرط الشيخين ، والترمذي في المناقب (٣٦٦١) ، وقال : حسن غريب ، وابن ماجه في المقدمة (٩٤) ، عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٧١٨) .

(٣) رواه مسلم في الزهد (٢٩٦٥) ، وأحمد (١٤٤١) ، عن سعد بن أبي وقاص .

المفاضلة بين الغنيِّ الشاكر والفقير الصابر :

وقد اختلف العلماء فيهما : أيُّهما أفضل للمرء : أن يكون غنيًّا شاكرًا أم فقيرًا صابرًا ؟

والذي تدلُّ عليه الأحاديث : أنَّ الغنيَّ الشاكر هو الأفضل .

فعن أبي هريرة ﷺ قال : جاء الفقراء إلى رسول الله ﷺ ، وقالوا : ذهب أهل الدثور بالأجور ، يُصلُّون كما نصلِّي ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدَّقون بفضول أموالهم . قال : « أوليس قد جَعَل الله لكم ما تَصَدَّقون؟ إنَّ بكلِّ تسبيحة صدقة ، وكلِّ تكبيرة صدقة ، وكلِّ تحميدة صدقة ، وكلِّ تهليلة صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهي عن منكر صدقة ، وفي بُضْع أحدكم صدقة » . قالوا : يا رسول الله ، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال : « أرأيتم لو وضعها في حرام ، أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال ، كان له أجر » رواه مسلم[1].

والحديث الصحيح المتَّفق عليه يقول : « اليد العليا خير من اليد السفلى »[2]. واليد العليا هي اليد المعطية ، والسفلى هي الآخذة . ممَّا يدلُّ على على فضل الغني المُعطِي والمنفق في سبيل الله ، والمعين للفقراء وذوي الحاجة .

ردُّ ابن الجوزي على الذين ذمُّوا الغنى :

وقد ردَّ ابن الجوزي على الذين ذمُّوا الغنى واعتبروا المال شرًّا ، فقال : (أما شرف المال ، فإنَّ الله عزَّ وجلَّ عظَّم قدره ، وأمر بحفظه ، إذ جعله قوامًا للآدمي الشريف ، فهو شريفٌ ، فقال تعالى : ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا ﴾ (النساء:٥)، ونهى عزَّ وجلَّ أن يُسَلَّم المال إلى غير رشيد ، فقال : ﴿ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾ (النساء:٦).

وقد صحَّ عن رسول الله ﷺ : أنه نهى عن إضاعة المال[3].

---

(١) سبق تخريجه صـ ١٨٧ .

(٢) سبق تخريجه صـ ١٩٥ .

(٣) متفق عليه : رواه البخاري في الزكاة (١٤٧٧) ، ومسلم في الأقضية (٥٩٣) ، كما رواه أحمد (١٨١٤٧) ، عن المغيرة بن شعبة .

وقال ﷺ لسعد رضي الله عنه : «لأن تترك ورثتك أغنياء ، خيرٌ من أن تتركهم عالة يتكفَّفون الناس»[1].

الغنى أداة خير للأخيار :

قال ﷺ : «ما نفعني مال كمال أبي بكر»[2].

وعن عمرو بن العاص قال : بعث إليَّ رسول الله ﷺ فقال : «خذ عليك ثيابك وسلاحك ، ثم ائتني» . فأتيتُه فقال : «إني أريد أن أبعثك على جيش فيسلمك الله ويغنمك ، وأرغب لك من المال رغبة صالحة» . فقلتُ يا رسول الله : ما أسلمتُ من أجل المال ، ولكني أسلمتُ رغبةً في الإسلام!! فقال : «يا عمرو ، نِعْمَ المال الصالح للرجل الصالح»[3].

والحديث بإسناده ، عن أنس بن مالك ، أنَّ رسول الله ﷺ ، دعا له بكلِّ خير ، وكان في آخر دعائه أنه قال : «اللهم أكثر ماله وولده ، وبارك له»[4].

وبإسناده ، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك ، أن عبيد الله بن كعب بن مالك قال : سمعتُ كعب بن مالك يحدِّث بحديث توبته قال : فقلتُ : يا رسول الله ، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله عزَّ وجلَّ ، وإلى رسوله ﷺ . فقال : «أمسك عليك بعض مالك ، فهو خير لك»[5].

فهذه الأحاديث مخرَّجة في الصحاح ، وهي على خلاف ما تعتقده المتصوِّفة ، من أنَّ إكثار المال حجاب وعقوبة ، وأن حبَّه ينافي التوكُّل .

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري (٢٧٤٢) ، ومسلم (١٦٢٨) كلاهما في الوصايا .

(٢) سبق تخريجه صـ ١٩٦ .

(٣) سبق تخريجه صـ ٩٠ .

(٤) متفق عليه : رواه البخاري في الدعوات (٦٣٧٩) ، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٨٠) ، كما رواه أحمد (٢٧٤٢٦) ، والترمذي في المناقب (٣٨٢٩) ، عن أم سليم .

(٥) متفق عليه : رواه البخاري في الوصايا (٢٧٥٧) ، ومسلم في التوبة (٢٧٦٩) ، كما رواه أحمد (١٥٧٧٠) ، وأبو داود (٣٣١٧) ، والنسائي (٣٨٢٤) ، كلاهما في الأيمان والنذور ، عن كعب ابن مالك .

ولا يُنكر أنه يُخاف فتنته ، وأنَّ خلقًا كثيرًا اجتنبوه لخوف ذلك ، وأن جمعه من وجهه يعزُّ ، وسلامة القلب من الافتتان به يبعُد ، واشتغال القلب مع وجوده بذكر الآخرة يَنْدُر ، ولهذا خيفَ فتنته .

أثر المقصد في جمع المال :

فأما كسْب المال ، فإن مَن اقتصر على كسب البُلْغة من حِلِّها ، فذلك أمر لا بدَّ منه ، وأما مَن قصد جمعه والاستكثار منه من الحلال ، نظرنا في مقصوده ، فإن قصد نفس المفاخرة والمباهاة فبئس المقصود ، وإن قصد إعفاف نفسه وعائلته ، وادَّخر لحوادث زمانه وزمانهم ، وقصد التوسعة على الإخوان ، وإغناء الفقراء ، وفعل المصالح ، أُثيب على قصده ، وكان جمعه بهذه النيَّة أفضل من كثير من الطاعات .

مقاصدُ الصحابة في جَمْع المال والازدياد منه :

وقد كانت نيَّات خلق كثير من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، في جَمْع المال سليمة ، لحُسْن مقاصدهم لجمعه ، فحرصوا عليه ، وسألوا زيادته .

عن ابن عمر ، أن رسول الله ﷺ ، أقطع الزُّبير حُضْرَ فرسه ، بأرض يقال لها : ثُرَيْر . فأجرى فرسه حتى قام ، ثم رمى بسَوْطه ، فقال : « أعطوه حيث بلغ السوط »[1] .

وكان سعد بن عبادة يدعو ، فيقول : اللهم وسِّع عليَّ [2].

قال ابن الجوزي : وأبلغ من هذا أنَّ يعقوب عليه الصلاة والسلام ، لما قال له بنوه : ﴿ وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ﴾ (يوسف:٦٥)، مالَ إلى هذا ، وأرسل ابنه بنيامين معهم ،

---

(١) رواه أحمد (٦٤٥٨) ، وقال مخرجوه : إسناده ضعيف ، وأبو داود في الخراج والإمارة (٣٠٧٢) ، والطبراني في الأوسط (٤٢٧٣) ، والبيهقي في الكبرى كتاب إحياء الموات (٦/١٤٤) ، عن ابن عمر ، وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود (٦٧٣) . و « حُضْر فرسه » : الحُضْر : العَدْو والجري . و « أقطع الزبير » : أعطاه أرضًا ، وهي أعم من التمليك .

(٢) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٠/٢٦٤) .

وأنَّ شعيبًا[1] طمع في زيادة ما يناله فقال : ﴿ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ﴾ (القصص:٢٧) ، و« أن أيوب عليه السلام لما عُوفي نثر عليه رجل جراد من ذهب ، فأخذ يُحثو في ثوبه يستكثر منه ، فقيل له : أما شبعت؟ قال : يا ربِّ ، مَن يشبع من فضلك!»[2]. وهذا أمر مركوز في الطباع ، فإذا قصد به الخير كان خيرًا محضًا.

وأما الأنبياء فقد كان لإبراهيم عليه الصلاة والسلام ، زرع ومال ، ولشعيب ولغيره .

وكان سعيد بن المسيِّب رضي الله عنه يقول : لا خير فيمن لا يطلب المال ، يقضي به دَيْنه ، ويصون به عرضه ، ويصل به رَحِمَه ، فإن مات تركه ميراثًا لمَن بعده . وخلَّف ابن المسيب أربعمائة دينار ، وقد ذكرنا ما خلَّفت الصحابة ، وقد خلَّف سفيان الثوري رضي الله عنه مائتين ، وكان يقول : المال في هذا الزمان سلاح[3] .

سبب مجافاة بعض السلف للاستكثار من المال :

وما زال السلف يمدحون المال ويجمعونه للنوائب وإعانة الفقراء ، وإنما تجافاه قوم منهم إيثارًا للتشاغل بالعبادات ، وجمع الهمم ، فقنعوا باليسير ، ولو قال هذا القائل : إنَّ التقلُّل منه أولى ، قَرُب الأمر ، ولكنه زاحم به مرتبة الإثم .

الصبر على الفقر والشكر على الغنى :

واعلم أنَّ الفقر مرض ، فمَن ابتُلي به فَصَبر أُثيب على صبره ، ولهذا « يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام»[4] ، لمكان صبرهم على البلاء ، والمال

---

(١) لم يثبت أن الشيخ الكبير هو شعيب عليه السلام

(٢) رواه البخاري في الغسل (٢٧٩) ، وأحمد (٨٠٣٨) ، والنسائي في الغسل والتيمم (٤٠٩) ، عن أبي هريرة .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في إصلاح المال (٧٨) ، وروى أبو نعيم في الحلية (٣٨١/٦) عنه : أن المال فيما مضى يكره ، فأما اليوم فهو ترس المؤمن .

(٤) رواه أحمد (٧٩٤٦) ، وقال مخرجوه : إسناده صحيح على شرط البخاري ، والترمذي في الزهد (٢٣٥٣) ، وقال : حسن صحيح ، وابن ماجه في الزهد (٤١٢٢) ، عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (١٩١٨) .

نعمة ، والنعمة تحتاج إلى شكر ، والغني وإن تعب وخاطر ، كالمفتي والمجاهد ، والفقير كالمعتزل في زاوية .

الردُّ على من كره أن يخلف الفقير شيئًا :

وقد ذكر أبو عبد الرحمن السلمي في كتاب (سنن الصوفية) ، باب كراهية أن يُخلِّف الفقير شيئًا ، فذكر حديث الذي مات من أهل الصفة وخلف دينارين ، فقال رسول الله ﷺ : « كيَّتان »[1] .

قال ابن الجوزي : وهذا احتجاج مَن لا يفهم الحال ، فإن ذلك الفقير كان يزاحم الفقراء في أخذ الصدقة ، وحَبْس ما معه ، فلذلك قال : « كيَّتان » .

ولو كان المكروه نفس ترك المال ، لما قال رسول الله ﷺ لسعد : « إنك إن تَذَر ورثتك أغنياء ، خير من أن تَذَرهم عالة يتكفَّفون الناس »[2] . ولَمَا كان أحد من الصحابة يُخلِّف شيئًا .

الردُّ على مَنْ زعم أن ليس للإنسان ادِّخار شيء لغده :

وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : حثَّ رسول الله ﷺ ، على الصدقة ، فجئتُ بنصف مالي ، فقال رسول الله ﷺ : « وما أبقيتَ لأهلك » . فقلتُ : مثله[3] . فلم ينكر عليه رسول الله ﷺ . قال ابن جرير الطبري : وفي هذا الحديث دليلٌ على بطلان ما يقوله جهلة المُتصوِّفة : أنْ ليس للإنسان ادِّخار شيء في يومه لغده ، وأن فاعل ذلك قد أساء الظنَّ بربِّه ، ولم يتوكَّل عليه حقَّ توكُّله .

---

(١) رواه أحمد (٢٢١٨٠) ، وقال مخرجوه : حديث صحيح وهذا إسناد جيد ، والطبراني في الكبير (١٠٥/٨) ، والبيهقي في الشعب باب الزكاة (٣٥١٤) ، عن أبي أمامة ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد : رواه الطبراني في الكبير ورجاله ثقات (١٥٤/٣) .

(٢) سبق تخريجه صـ ١٩٨ .

(٣) رواه أبو داود في الزكاة (١٦٧٨) ، والترمذي في المناقب (٣٦٧٥) ، وقال : حسن صحيح ، والدارمي في الزكاة (١٦٦٠) ، والبزار (٢٦٣/١) ، والحاكم (٤١٤/١) ، وصححه على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي ، والبيهقي في الكبرى (١٨٠/٤) ، كلاهما في الزكاة ، عن عمر ، وحسنه الألباني في الترمذي (٢٩٠٢) .

قال ابن جرير : وكذلك قوله عليه الصلاة والسلام : «اتَّخذوا الغنم فإنها بركة»[1] . فيه دلالة على فساد قول مَن زعم من المُتصوِّفة ، أنه لا يصحُّ لعبد التوكُّل على ربِّه ، إلا بأن يصبح ولا شيء عنده من عين ولا عَرَض ، ويمسي كذلك ، ألا ترى كيف ادَّخر رسول الله ﷺ لأزواجه قُوتَ سنة[2].

الرد على من خرج من ماله وتعرَّض للأوساخ والطلب من الناس :

وقد خرج أقوام من أموالهم الطيبة ، ثم عادوا يتعرَّضون للأوساخ ويطلبون ، وهذا لأن حاجة الإنسان لا تنقطع ، والعاقل يعدُّ للمستقبل ، وهؤلاء مثلهم في إخراج المال عند بداية تزهُّدهم ، مثل مَن رؤي في طريق مكة ، فبدَّد الماء الذي معه . والحديث بإسناد عن جابر بن عبد الله قال : قدم أبو الحصين السلمي بذهب من معدنهم ، فقضى دينًا كان عليه ، وفَضَل معه مثل بيضة الحمامة ، فأتى بها رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، ضع هذه حيث أراك الله ، أو حيث رأيت . قال : فجاءه عن يمينه فأعرض عنه ، ثم جاءه عن يساره فأعرض عنه ، ثم جاءه من بين يديه فنكس رسول الله ﷺ رأسه ، فلما أكثر عليه أخذها من يديه ، فحذفه بها لو أصابته لعقرته ، ثم أقبل عليه رسول الله ﷺ فقال : «يعمدُ أحدكم إلى ماله فَيَتصدَّق به ، ثم يقعد فيتكفَّف الناس ، وإنما الصدقة عن ظهر غنى ، وابدأ بمَن تعول»[3])[4].

---

(١) رواه أحمد (٢٧٣٨١) ، وقال مخرجوه : إسناده صحيح ، والطبراني (٤٢٦/٢٤) ، عن أم هانئ ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٨٢) .

(٢) عن عمر : كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله . . . وكان ينفق على أهله نفقة سنته . متفق عليه : رواه البخاري (٢٩٠٤) ، ومسلم (١٧٥٧) ، كلاهما في الجهاد والسير ، كما رواه أحمد (١٧١) ، وأبو داود في الخراج والإمارة (٢٩٦٥) ، والترمذي في الجهاد (١٧١٩) ، والنسائي في قسم الفيء (٤١٤٠) ، عن عمر .

(٣) رواه أبو داود (١٦٧٣) ، والدارمي (١٦٥٩) ، وابن حبان (٣٣٧٢) ، والحاكم (٤١٣/١) ، وصححه على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي ، أربعتهم في الزكاة ، عن جابر ، وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود (٣٦٩) .

(٤) تلبيس إبليس لابن الجوزي صـ٢٢٠-٢٢٦ ، نشر مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م .

قال ذو النون المصري : أقرب الناس إلى الكفر ، ذو فاقة لا صبر له . وقلَّ في الناس الصابرون على الفقر .

عَقْدُ الغزالي كتابًا في ذمِّ حُبِّ المال :

ولم يستطع الغزالي الذي عقد لذمِّ المال فصلاً ، من كتاب (ذمِّ البخل وذمِّ حبِّ المال) من (الإحياء) ، أن يجحد النصوص التي تمدح المال وتثني عليه ، وتذمُّ الفقر وتُنفِّر منه ، فقال : (اعلم أنَّ الله تعالى قد سمَّى المال خيرًا في مواضع من كتابه العزيز ، فقال جلَّ وعزَّ : ﴿ إِن تَرَكَ خَيْرًا ﴾(البقرة:١٨٠)، وقال رسول الله ﷺ : « نعم المال الصالح للرجل الصالح »[(١)].

وكلُّ ما جاء في ثواب الصدقة والحجِّ ، فهو ثناء على المال ، إذ لا يمكن الوصول إليهما إلا به ، وقال تعالى : ﴿ وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ (الكهف:٨٢) ، وقال تعالى ممتنًّا على عباده : ﴿ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَرًا ﴾ (نوح:١٢) ، وقال ﷺ : « كاد الفقر أن يكون كفرًا »[(٢)]. وهو ثناء على المال)[(٣)].

استدلال الغزالي على فضيلة الفقر بآيتين :

والعجيب أن الغزالي رحمه الله ، حين عرض لبيان فضيلة الفقر في كتاب (الزهد) ، لم يجد في القرآن ما يدلُّ على فضله ، إلا آيتين في ظنِّه :

قوله تعالى : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾(الحشر:٨).

وقوله تعالى : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ (البقرة:٢٧٣).

---

(١) سبق تخريجه صـ ٩٠ .

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٥٣/٣) ، والبيهقي في الشعب باب الحث على ترك الغل (٦٦١٢) ، عن أنس ، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٤١٤٨) .

(٣) إحياء علوم الدين (١٩٣/٤) .

قال : (ساق الكلام في معرض المدح ، ثم قدَّم وصفهم بالفقر ، على وصفهم بالهجرة والإحصار ، وفيه دلالة ظاهرة على مدح الفقر)[1].

بُعْدُ الإمام الغزاليِّ عن فهم المعنى الدقيق للآيتين :

ورحم الله أبا حامد ، فقد بَعُد عن الفَهم الدقيق للآيتين ، فالآية الأولى جاءت بعد قسمة الفيء تبيِّن المستحقِّين له ، وقد أفاء الله على رسوله من أموال يهود بني النضير ، ولم يخمِّسها الرسول ﷺ كغنائم بدر ، وإنما عوَّض بها رسول الله المهاجرين عما فقدوه في وطنهم القديم ، من ديار وأموال ، فقال تعالى : ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ (الحشر:٧) .

فليست الآية إلا بيانًا لموضع الفيء من الناس ، وبيان الصفة التي استحقوا بها هذا ، وهي الفقر ، مع بيان العلة التي أدت إلى هذا الفقر ، وهي هجرتهم ، وإخراجهم من ديارهم وأموالهم بغير حقٍّ إلا أن يقولوا : ربنا الله ، فهل في الآية مدح للفقر ذاته ، أو حثٌّ على الاتصاف به ؟ لا ثم لا .

والآية الثانية بيان لأحقِّ الناس بالصدقة والإنفاق الذي يحبه الله ، وهم الفقراء الذين أحصروا ، وقبلها : ﴿ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ (البقرة:٢٧٢،٢٧٣)، فذكر صفاتهم في الآية وهي خمس صفات :

١- ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ .

٢- ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ .

٣- ﴿ تَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ ﴾ .

---

(١) إحياء علوم الدين (٤/١٩٣) .

٤- ﴿ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ ﴾ .

٥- ﴿ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ .

ثم ختم الآية بقوله : ﴿ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة:٢٧٣).

وقد رُوي عن سعيد بن جبير : أنها نزلت في قوم أصابتهم الجراحات في سبيل الله تعالى ، فصاروا زَمْنى ، فجعل لهم في أموال المسلمين حقا[1].

ورُوي عن ابن عباس : أنها نزلت في أهل الصفَّة . وهم جماعة من فقراء المهاجرين لم يكن لأكثرهم مأوى ، فكانوا يقيمون في المسجد ـ موضع مظلَّل منه ـ قد حبسوا أنفسهم لحفظ القرآن ، وبه تحفظ أصول الدين ، والخروج مع السرايا للجهاد ، وبه يحفظ كيان الأمة .

فهل في الآية دلالة واضحة ـ كما يقول الغزالي ـ على مدح الفقر؟ كلا ثم كلا .

متى يكون المال شرًّا ؟

إنما يكون المال شرًّا إذا أصبح حُبُّ جمعه وتنميته هو الشغل الشاغل لصاحبه ، فيصير غايةً لا وسيلة ، ولا يبالي من أين جاء أمن خبيث أم من طيِّب؟ من حلال أم من حرام؟ وحينئذ يرتكب الموبقات في سبيل جمعه وتكثيره ، ويستحلُّ الرشاوى والسرقة الظاهرة أو الخفيَّة ، ويأكل الربا ، ويأكل مال اليتيم ، وهذا ما حذَّر الله منه أشدَّ الحذر : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة:١٨٨) ، ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾ (النساء:٢)، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾(النساء: ١٠)، ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾ (البقرة:٢٧٥).

---

(١) انظر : الدر المنثور (٨٩/٢) .

الغرور بالمال والبغي والطغيان به :

ويكون المال شرًّا إذا أدى بمالكه إلى الغرور به ، والطغيان والبغي على غيره ، ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ (العلق:٦،٧)، ﴿ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴾ (القصص:٧٦)، ﴿ فَقَالَ لِصَـٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ (الكهف:٣٤).

نسيان الآخرة :

ويكون المال شرًّا إذا أنسى صاحبه الآخرة ، وظنَّ أنه مخلَّد في ماله ، ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴾ (الهمزة:١-٣) ، ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَـٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴾ (الكهف:٣٥) ، ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ۝٣٤ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝٣٥ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٦ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَـٰتِ ءَامِنُونَ ﴾ (سبأ:٣٤-٣٧).

إنفاق المال في غير محله والبخل به عن حقِّه وموضعه :

ويكون المال شرًّا إذا أنفقه صاحبه في غير محلِّه، أو بخل به عن حقِّه وموضعه: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣٤ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ (التوبة:٣٤،٣٥) ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ۝٣٦ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ (النساء:٣٦،٣٧) ، ﴿ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَـٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴾ (النساء:٣٨).

هؤلاء الذين يكنزون ويختالون ويبخلون ويُبخِّلون في آن واحد ، يبخلون ويأمرون غيرهم بالبخل عما أوجب الله .

وينفقون رئاء الناس في المظاهر الفارغة والأبَّهة الكاذبة ، ﴿ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ ﴾ ، إرضاءً لنزعة المباهاة والتفاخر فيهم .

شُغْل المال صاحبَه عن واجب دينه :

ويكون المال شراً إذا شغَل صاحبه عن واجب دينه ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ (المنافقون:٩).

المال مقياس عظمة الناس وتقديرهم في الدنيا :

ويكون المال شراً إذا أصبح مقياس عظمة الناس وتقديرهم في الدنيا ، دون النظر إلى ما يحملونه في قلوبهم من إيمان ، وفي عقولهم من علم ، وفي نفوسهم من أخلاق . كما قال القائل :

فقيمة ربِّ الألف ألف وزد تزد   وقيمة ربِّ الدرهم الدرهم

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ (الزخرف:٣١) ، فالعظمة عندهم بكثرة المال وقوَّة النفوذ .

ميزان التفاضل عند الله :

وقد بيَّن القرآن أنَّ ميزان التفاضل عند الله : الإيمان والعمل الصالح والتقوى ، لا المال ولا البنون ولا ما يملكه الإنسان من الدنيا : ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾ (سبأ:٣٧).

ماذا يُطلب من الغنيِّ ذي الثروة ؟

لم يطلب القرآن من الغني أن يتخلَّى عن ماله ، ولم يُحرِّم عليه طيِّبات الدنيا وإنما طلب منه واجبات مُعيَّنة تُحدِّد عَلاقتَه بالله ، وعلاقتَه بالآخرة ، وعلاقته بحياته ، وعلاقته بالناس ، وعلاقته بالحياة عامة .

ذكر الله هذه الواجبات على لسان المؤمنين من قوم موسى عليه السلام ، وهو يقصُّ علينا قصة قارون الذي آتاه الله من الكنوز ما إن مفاتحة لَتَنُوء بالعُصبة أُولي القوة ، والقرآن حين يقصُّ علينا هذه القصص ، لا يهمُّه أن نضيف إلى معلوماتنا التاريخية جديدًا ، وإنما يقصُّها لنا لأجل الهداية والعبرة : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (يوسف:١١١).

الوصايا الخمس على لسان المؤمنين من قوم موسى لقارون :

هذه الواجبات هي أوامر ونواهٍ خالدة ، تتَّصل بمهمَّة الإنسان وغاية وجوده في الحياة ، قيلت لقارون ، وتقال لكلِّ ذي مال وغنى من بعده ، وهذه هي[1]:

﴿ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ۝٧٦ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ﴾ (القصص:٧٦،٧٧).

الوصية الأولى : ﴿ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ :

فالوصيَّة الأولى تتضمَّن ألاَّ يفرح بماله وغناه فرح البطر المغرور ، وينسى ربَّه وواجبه نحوه ، فينساه الله ، ويعرض عنه ولا يحبه ، ﴿ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ .

ولا يظنَّن ظانٌّ أن الفرح هنا بمعناه المألوف ـ من السرور والانشراح ، فهذا أمر مرغوب محبوب ، وقد كان النبيُّ ﷺ يستعيذ بالله من الهمِّ والحَزَن[2]، ويبشِّر مَن أدخل السرور على قلوب الناس بأعظم المثوبة[3] ـ وإنما هو الأَشَر والبَطَر والغرور ، الذي يُعمي عين البصيرة عن رؤية يد الله في جلب النعمة وتيسيرها ، فيقول ما قال قارون في غرور واستعلاء : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ﴾ (القصص:٧٨).

---

(١) تقدَّم ذكرها بإيجاز في الاعتبار بمصاير أهل الدنيا في الفصل الثامن : بواعث الزهد .

(٢) إشارة إلى حديث : «اللهم إني أعوذ بك من الهمِّ والحزن ، والعجز والكسل ، والبخل والجبن ، وضلع الدين وغلبة الرجال». رواه البخاري في الدعوات (٢٨٩٣) ، وأبو داود في الصلاة (١٥٤١) ، والترمذي في الدعوات (٣٤٨٤) ، والنسائي في الاستعاذة (٥٤٥٠) ، عن أنس .

(٣) رواه الطبراني في الكبير (٤٥٣/١٢) ، والأوسط (٦٠٢٦) ، والصغير (٨٦١) ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد : رواه الطبراني في الثلاثة وفيه سكين بن سراج وهو ضعيف (٣٤٩/٨) .

ولو فكَّر وأنصف لقال ما قال يوسف عليه السلام ، وقد صارت له خزائن مصر : ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

(يوسف:١٠١).

ولقال ما قال سليمان عليه السلام ، وقد حشر له جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون ، قال : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

(النمل:١٩).

فرح قارون وأمثاله بغير الحقِّ الذي ذمَّه القرآن ، وعذَّب الله أصحابه في نار السعير : ﴿ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ (غافر:٧٥). فرح هؤلاء فرح بالمادة لا بالرُّوح ، وبالصورة لا بالمعنى ، وبالأعراض المتغيِّرة لا بالقيم الثابتة ، فأولى أن يقال لهم : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (يونس:٥٨) .

الوصية الثانية : ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴾ (القصص:٧٧) :

والوصية الثانية تطلب منه أن تكون وجهته في ماله وثروته الدار الآخرة ، يبتغيها ويقصدها في إنفاقه إذا أنفق ، واستثماره إذا استثمر ، وتنميته إذا نمَّى .

فالدار الآخرة هي الغاية المطلوبة والمقصد المُبْتغى ، والمال الذي ملَّكه الله بإيتائه إياه ، واستخلافه فيه ، هو الوسيلة والأداة ، فإذا انقلبت الغاية وسيلة ، والوسيلة غاية ، وصار المال هو القصد الذي يوضع نصب العين ، والآخرة هي التي تُطرح وراء الظهر ، فذلك هو الضلال البعيد ، والبلاء المبين .

كلام الغزالي في قَصْد سعادة الآخرة :

قال الإمام الغزالي في كتاب الشكر : (إنَّ مقصد الأكياس وأرباب البصائر : سعادة الآخرة ، التي هي النعيم الدائم والملك المقيم . والقصد إلى هذا دأب الكرام

والأكياس ، إذ قيل لرسول الله ﷺ : مَن أكرم الناس وأكيسهم؟ فقال : « أكثرهم للموت ذكرا ، وأشدُّهم له استعدادا »[1].

وهذه السعادة لا تُنال إلا بثلاث وسائل في الدنيا ، وهي :

الفضائل النفسية ، كالعلم ، وحسن الخلق . **والفضائل البدنية** ، كالصحة ، والسلامة . **والفضائل الخارجة عن البدن** ، كالمال ، وسائر الأسباب . وأعلاها : النفسية ، ثم البدنية ، ثم الخارجة .

فالخارجة : أخسُّها ، والمال من جملة الخارجات ، وأدناها : الدراهم والدنانير ، فإنهما خادمان ولا خادم لهما ، ومُرادان لغيرهما ولا يُرادان لذاتهما . إذ النفس هي الجوهر النفيس المطلوب سعادتها ، وأنها تخدم العلم والمعرفة ومكارم الأخلاق ، لِتحصِّلها صفة في ذاتها ، والبدنُ يخدم النفس بواسطة الحواسِّ والأعضاء ، والمطاعم والملابس تخدم البدن ، وقد سبق أن المقصود من المطاعم إبقاء البدن ، ومن المناكح إبقاء النسل ، ومن البدن تكميل النفس وتزكيتها وتزيينها بالعلم والخُلق .

ومَن عرَف هذا الترتيب ، فقد عرَف قَدْر المال ، ووجه شرفه ، وأنه من حيث هو ضرورة المطاعم والملابس ، التي هي ضرورة بقاء البدن ، الذي هو ضرورة كمال النفس ، الذي هو خير . ومَن عرف فائدة الشيء وغايته ومقصده ، واستعمله لتلك الغاية ، ملتفتًا إليها غير ناسٍ لها ، فقد أحسن وانتفع ، وكان ما حصل له الغرض محمودًا في حقِّه ، فإذا المال آلة ووسيلة إلى مقصود صحيح ، ويصلح أن يتَّخذ آلة ووسيلة إلى مقاصد فاسدة ، وهي المقاصِّد الصَّادَّة عن سعادة الآخرة ، وتسدُّ سبيل العلم والعمل ، فهو إذن محمود مذموم ، محمود بالإضافة إلى المقصد المحمود ، ومذموم بالإضافة إلى المقصد المذموم)[2].

---

(١) رواه ابن ماجه في الزهد (٤٢٥٩) ، والطبراني في الأوسط (٤٦٧١) ، والحاكم في الفتن والملاحم (٥٤٠/٤) ، وصحح إسناده ، ووافقه الذهبي ، والبيهقي في الشعب باب حسن الخلق (٧٩٩٣) ، عن ابن عمر ، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٤٣٥) .

(٢) إحياء علوم الدين (٢٣٣/٣ ، ٢٣٤) .

فهذا كلام الغزالي هنا ، وهو كلام فقيه أصولي ، مستمد من مصادر الشريعة ، على خلاف كلامه إذا ترك نهج الفقه وأصوله ، واتبع نهج المتصوفة بإطلاق ، حتى فيما غلوا فيه ، وشطوا عن السبيل[1] .

الوصيَّة الثالثة : ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾ (القصص:٧٧) :

وهذه الوصية توضح نقطة مهمة ، وهي أن الغني الذي وسَّع الله عليه ، حين يتجنَّب البطر والأشر ، ويبتغي من ماله الدار الآخرة ، لا يعني هذا أن يحرم نفسه من طيبات الدنيا ، بل له حقٌّ في أن يأخذ نصيبه من هذه الدنيا ، بل هو مأمور أن لا ينسى نصيبه منها بالمعروف ، في غير إسراف ولا تقتير .

الوصية الرابعة : ﴿ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ (القصص:٧٧) :

وهذه وصيَّة توجب على الغني أن يشكر نعمة الله عليه ، الذي أحسن إليه فأغناه من فضله ، وذلك بأن يُحسن إلى خَلْق الله من أهل الفقر والحاجة ، كما أحسن الله إليه ، وهذا تذكير بحقيقة مهمة ، وهي أن المال مال الله تعالى ، والإنسان مستخلف فيه ، بمثابة أمين الخزانة ، فهو يتصرَّف فيه ، بحسب أوامر مالكه . ومن ذلك الحقوق الواجبة في المال .

الوصية الخامسة : ﴿ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ (القصص:٧٧) :

وهذه الوصية الخامسة والأخيرة ، وهي ألا يبغي الغنيُّ بماله نشر الفساد في الأرض ، مثل الظلم والغش والاحتكار والربا والتطفيف والغبن الفاحش وغيرها ، ممَّا يجري في معاملات الرأسماليين الجشعين ، ولا إشاعة الترف والميوعة وشرب المسكرات وتناول المخدِّرات في حياة الناس ، أو الترويج لسلع مغشوشة أو مسرطنة ، أو ملوثة بالإشعاع ، أو انتهى أمد صلاحيتها ، ابتغاء الربح من ورائها ، وإن أضرَّ بجماهير الخلق . فهذا من الإفساد في الأرض ، والله لا يحب المفسدين ، لأنهم أعداء الله ، وأعداء الناس ، وأعداء الحياة .

---

(١) تقدم مناقشة كلام الإمام الغزالي في ذمِّ حب المال وفضيلة الفقر صـ ٢٠٣ ، ٢٠٤ .

خامسًا : ليس من الزهد الإعراض عن الحياة الطيبة :

وإذا كان العمل للدنيا ـ بشروط ـ ليس مذمومًا ، وامتلاك الدنيا ـ بشروط ـ ليس مذمومًا أيضًا ، فإن الاستمتاع بطيِّبات الدنيا ليس مذمومًا كذلك .

ذلك أن الله خلق هذه الطيِّبات ، ليستمتع بها الناس ، ويشكروا الله عليها ، بل جعلها ممَّا كرَّم به جنس الإنسان وميَّزه ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ (الإسراء:٧٠)، وقال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (غافر:٦٤).

وما كان الله ليخلق هذه الطيبات ويمتنُّ بها على الناس ، ثم يحرِّمها عليهم!

الإنكار على الذين حَرَّموا على أنفسهم الطيِّبات :

بل نجد القرآن ينكر على المشركين وأهل الكتاب الذين حرَّموا على أنفسهم طيِّبات المآكل والمشارب والملابس وغيرها ، مما يتزيَّن به الإنسان ، فقال تعالى مخاطبًا الجنس البشري كلَّه : ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ (الأعراف:٣١،٣٢).

فانظر إلى هذ الأسلوب من الاستفهام الإنكاري : ﴿ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ﴾ ؟ (الأعراف:٣٢)

وانظر إلى هذه الإضافة : إضافة الزينة إلى الله ، وهي إضافة تشريف وتكريم .

وانظر إلى قوله : ﴿ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ ﴾ (الأعراف:٣٢) ، فهو تبارك وتعالى يخرجها لهم ، ويأتي مَن يحرِّمها عليهم !

من أوصاف الرسول ﷺ الأساسيَّة عند أهل الكتاب :

بل إنَّ القرآن ليجعل من أوصاف الرسول الأساسية عند أهل الكتاب في التوراة

والإنجيل : أنه يُحلُّ الطيبات ، ويُحرِّم الخبائث ، كما قال سبحانه : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾(الأعراف:١٥٧).

والطيبات : كلُّ ما تستطيبه الفطر السليمة وتستحسنه ، ولا تجد فيه خبثًا ولا قذرًا ، وقد كان الله عاقب اليهود بتحريم بعض الطيبات عليهم جزاء ما صنعوا ، كما قال تعالى : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ (النساء:١٦٠،١٦١)، فلما جاء محمد ﷺ ، بالرسالة العامة الخالدة ، ألغى هذا الحَظْر الذي كانت له أسبابه ، وليس معقولاً أن يُعاقَب البشر جميعًا بما اقترفه اليهود في مرحلة من الزمن .

امتنان القرآن بالطيِّبات على المؤمنين :

بل تجد القرآن يَمْتَنُّ بالطيِّبات على المؤمنين ، فيقول تعالى مخاطبًا المسلمين بعد الهجرة في معرض الامتنان والإنعام : ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (الأنفال:٢٦) .

موقف القرآن من المسلمين الذين أرادوا تحريم الطيِّبات :

وحين أراد بعض المسلمين أن ينزعوا نزعةً رهبانية ، فحرَّم مَن حرَّم منهم اللحم ، وامتنع مَن امتنع منهم عن قُرب النساء ، نزل قول الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾

(المائدة:٨٧،٨٨) .

المعاني التي وجَّه إليها القرآن :

فكان توجيه القرآن لهم يتضمَّن المعاني التالية :

١- النهي عن تحريم الطيبات التي أحلَّها الله ، فليس من حقِّ أحد أن يحرِّم ما أحلَّ الله ، فإنَّ تحريم الحلال قرين الشرك .

٢- النهي عن الاعتداء والتجاوز في تناول الطيبات ، والاعتداء هنا يكون بالجَور على حقِّ الغير ، أو تجاوز حدِّ الاعتدال في الاستهلاك ، كما قال تعالى : ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ﴾ (الأعراف:٣١)، أو الاعتداء على حقِّ الله بتحريم ما أحلَّه .

٣- رفع أيِّ حرج في الاستمتاع بالطيبات ، حيث أمر بالأكل ، وهو هنا يفيد الإذن والإطلاق ، لأنه مع الأمر يقول : ﴿ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ (المائدة:٨٨) ، فهو إغراء بالأكل ، ثم يقول : ﴿ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾ ، إغراء آخر . ومعنى ﴿ طَيِّبًا ﴾ هنا : أي : لذيذًا تستطيبه أنفسكم ، وتميل إليه طباعكم .

٤- رعاية تقوى الله أبدا ، في كلِّ ما تأتون وما تذرون ، فهي ملاك الأمر كلِّه .

قيود الاستمتاع بالطيِّبات :

لا جناح على المسلم السائر في طريق الله أن يستمتع بما رزقه الله من الطيبات بقيود :

١- أن يتحرَّى حِلَّها ، فإذا شابها حرام أو شبهة حرام اتَّقاه استبراءً لدينه وعرضه[1].

٢- أن يتجنَّب الإسراف ، فإن تناول المباحات جميعا مقيَّد بعدم الإسراف ، كما قرأنا قوله تعالى : ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ﴾ (الأعراف:٣١) ، وكلَّما كان من مريدي الزهد كان التقلُّل أولى به .

٣- ألا ينسى شكر نعمة الله عليه بهذه الطيبات ، كما قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ (البقرة:١٧٢) ، وشكر الله على نعمه واجب ، بالقلب واللسان والجوارح .

---

(١) كما تقدم في الحديث : «فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه» وسبق تخريجه صـ٣٤.

٤- أن يراعيَ آدابَ الشرع في تناول الطيبات ، فإذا أكل سمَّى الله ، وأكل بيمينه ، وأكل مما يليه[١]، وإذا فرغ من طعامه حمد الله[٢]. وكذلك يُسمِّي الله عند الشرب ويحمده عند الانتهاء[٣].

وإذا لبس ثوبًا جديدًا قال : «اللهمَّ لك الحمد ؛ أنت كسوتنيه ، أسألك من خيره وخير ما صنع له ، وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له»[٤]. كذلك إذا استعمل أيَّ آلة جديدة .

وإذا ركب سيارته قال ما ذكره القرآن : ﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ (الزخرف:١٢-١٤).

موقف خصوم الإسلام من الحديث عن الحياة الطيبة :

الحديث عن (الحياة الطيبة) في الإسلام حديثٌ دقيقٌ ، ذلك أنَّ خصوم الإسلام يقفون بالمرصاد لكلِّ ما يُقال في هذه الناحية ، فإذا تحدَّثنا عن عناية الإسلام بـ(الجانب الرُّوحي) وقيمته بالنسبة للحياة والإنسان ، اتَّخذوا من هذا أداةً للطعن ، ونقطة للهجوم على الإسلام ، أنه دين يدير ظهره للحياة ، ويُغفل واقع الإنسان والوجود ، ويدعو إلى الضعف والسلبيَّة والحرمان والتقشُّف ، فهو لهذا لا يصلح للحياة ، ولا تصلح له الحياة .

---

(١) إشارة إلى حديث : «ياغلام ، سم الله ، وكل بيمينك ، وكل مما يليك» . متفق عليه : رواه البخاري في الأطعمة (٥٣٧٦) ، ومسلم في الأشربة (٢٠٢٢) ، كما رواه أحمد (١٦٣٣١) ، وابن ماجه في الأطعمة (٣٢٦٧) ، عن عمر بن أبي سلمة .

(٢) عن أبي أمامة ، أنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا رفع مائدته قال : «الحمد لله حمدا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه ، غير مكفيٍّ ولا مودع ولا مستغنًى عنه ربنا» . رواه البخاري في الأطعمة (٥٤٥٨) ، وأحمد (٢٢٢٠٠) ، وأبو داود في الأطعمة (٣٨٤٩) ، والترمذي في الدعوات (٣٤٥٦) .

(٣) إشارة إلى حديث : «إنَّ الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها ، أو يشرب الشربة فيحمده عليها» . رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٧٣٤) ، وأحمد (١١٩٧٤) ، والترمذي في الأطعمة (١٨١٦) ، عن أنس .

(٤) رواه أحمد (١١٤٧٠)، وقال مخرجوه : حسن ، وأبو داود (٤٠٢٠)، والترمذي (١٧٦٧)، وقال : حسن ، كلاهما في اللباس ، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٣٣٩٣) .

وإذا تحدَّثنا عن (الجانب المادي) واهتمام الإسلام بـه ، اهتمامـه بجسـم الإنسـان وغرائزه وعواطفه ، إلى جـوار عقلـه ورُوحـه . واهتمامـه بالحيـاة الـدنيا إلى جانـب الحياة الباقية ، سرعان ما يقولون : دين ماديٌّ لا رُوحانية فيه ، يـدعو إلى الحيوانيـة والاستغراق في الملذَّات .

على أنَّ هذا لا يجعلنا نُحْجـم عـن بيـان الحـقِّ المُجـرَّد ، خشـيةَ أن يتَّخـذ منـه المغرضون المحرِّفون ذريعة للتقوُّل والافتراء والتضليل :

وهبني قلتُ : هذا الصُّـبح ليـل أيعمى العـالمون عـن الضـياء

تخوُّف بعض المسلمين من الدعوة إلى الحياة الإسلامية الحقَّة :

إنَّ كثيرًا من الناس ـ من المسلمين أنفسهم ـ يتوجَّسون خيفةً ، ويمسكون قلوبهم بأيديهم خوفًا وفزعًا ، كلما دعاهم داع إلى الحياة الإسلاميـة الحقَّة ، ومـا أسـرع ما تلوح لمخيّلاتهم صور شائهة مخيفة عن تلك الحيـاة ، الحيـاة القاسيـة التـي لا تعرف الرحمة ، الضيِّقة التي لا تسمح بالسَّعة ، البدويَّة التي لا تعـرف التمـدُّن ، المحرومة التي لا تذوق طعم النعيم ، الحزينة التي لا تعرف المرح ، الصـارمة التـي لا ترخِّص في لهو ، الجامدة التي لا يقربها تطوُّر .

وربما حلا لبعضهم ـ عن جهل أو عن سُوء قَصْد ـ أن يتندَّروا بتلك الحياة ، وقد استبدل الناس الجمال فيها بركوب القطارات والسيارات ، وقناديـل الزيـت بمصـابيح الكهرباء ، والزوايا والتكايا بالحدائق والمتنزهات ، وأغلقت محلات الزينة والعطور بسبب الزهد والتقشف المفروض ، وهكذا .

سبب هذا الوهم العريض :

وعلة هذا الوهم العريض ما أشاعته الفكرة الصوفية المتطرفة ، من نظرة خاطئـة عن الحياة والتمتُّع بطيِّباتها ، وما تناقله بعض المتعلِّمين من موقف أديان أخرى من الحياة ، ثم قاسوا الإسلام عليها ظلمًا وجهلاً ، غافلين عن الفـرق ، جـاهلين أنَّ أول ما يضاف إليه الإسلام بحقٍّ ، أنه (دين الحياة) .

الحياة الإسلامية كما رسمها القُرآن والسُّنة :

ونحن هنا نتحدَّث عن الحياة الإسلامية كما رسمها صريحُ القرآن ، وصحيح السنة ، وعمل الجيل الفاضل الذي ربَّاه رسول الله ﷺ ، ومن اتَّبعهم بإحسان ، مُتجنِّبين الفَهم السقيم للنصوص الثابتة ، والانخداع الأبله بالأحاديث الواهية الأساس.

طبيعة الإنسان المادِّيَّة والروحيَّة :

اقتضت مشيئة الله أن يجعل في الأرض خليفة ، وأن يكون هذا الخليفة بطبيعته قادرًا على تسخير الأرض والانتفاع بها وعمرانها ، وإظهار حكمة الله فيها ، بجوار قدرته على السجود والتحليق والاتصال بالملأ الأعلى ، فلا غرو أن كانت طبيعة هذا الخليفة الإنسان مركّبة من المادية الروحية معًا ، فله جسمه الكثيف ، وله روحه الشفافة ، له غرائزه التي تهبط به إلى الأرض ، وله أشواقه التي تُحلِّق به إلى السماء ، له شهوته التي تلحُّ عليه في الطعام والشراب ، وله قلبه الذي يتطلَّع إلى نور الهداية .

لاتنافي بين الحكم والحكمة :

ولم يكن من الحكمة أن يخلق الله الإنسان هكذا ، جسمًا من طبيعته أن يأكل ويشرب وينكح ، ثم يقول للإنسان : لا تأكل ولا تشرب ولا تنكح . إن هذا ينافى الحكمة في خلق الإنسان على هذا الوجه ، وتعالى الله أن ينافي حكمُه حكمتَه ، ويصادم تشريعُه تكوينَه ، ويناقض أمرُه خلقَه ، وهو صاحب الخلق والأمر ، تبارك الله ربُّ العالمين .

الإنكار على المتعجِّبين من بشريَّة الرسول :

وقد أنكر الله في قرآنه على الذين عجبوا أن يأكل النبيُّ الطعام ، وما كان لهم أن يعجبوا ما دام النبي بشرًا كسائر بني آدم ، ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴾ (الفرقان:٧) ، ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾ (الفرقان:٢٠)، ﴿ وَمَا جَعَلْنَـٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَـٰلِدِينَ ﴾ (الأنبياء:٨) .

التمتُّع بالطيِّبات من مُقتضى الفطرة :

ولولا أن الناس أفسدوا دين الله ، وأدخلوا فيه ما ليس منه ، وشوَّهوا فيه ما كان منه ، ماكان لذكر هذه القضية ومثلها في الدين من وجه ، فإنها من مقتضى الفطرة ، وموجب الطبيعة الإنسانية ، وما كانت تحتاج إلى وحي سماوي ، أو نداء تشريعى ، فإنَّ الدين لا يدعو الإنسان الى ما ينساق إليه بطبيعته ، ويندفع إليه بحكم غريزته ، وكفى بالطبع سائقا ، وبالغريزة دافعا!!

التمتُّع بطيِّبات الملبس :

وقد كان السلف يلبسون الثياب المتوسطة ، لا المرتفعة ولا الدون ، فيتخيَّرون أجودها للجمعة والعيدين ، ولقاء الإخوان ، ولم يكن غير الأجود عندهم قبيحًا .

وقد أخرج مسلم في صحيحه ، من حديث عمر بن الخطاب أنه رأى حلة سيراء تباع عند باب المسجد ، فقال لرسول ﷺ : لو اشتريتَها ليوم الجمعة ، وللوفود إذا قدموا عليك؟ فقال رسول الله ﷺ : « إنما يلبس هذه مَنْ لا خلاق له في الآخرة »[1].

فما أنكر عليه ذكر التجمُّل بها ، وإنما أنكر عليه لكونها حريرًا .

وقد رُوي عن أبي العالية : كان المسلمون إذا تزاوروا تجمَّلوا[2].

وبسنده قال : كان المهاجرون والأنصار يلبسون لباسًا مرتفعًا .

وقد اشترى تميم الداري حُلَّة بألف درهم ، وكان يصلِّي بأصحابه فيها ، بل كان يقوم فيها بالليل إلى صلاته .

وقد كان ابن مسعود من أجود الناس ثوبًا ، وأطيبهم ريحًا .

وكان الحسن البصرى يلبس الثياب الجياد ، وقد خرج الحسن وعليه جُبَّة يمنية ورداء يمني ، فنظر إليه فَرْقَد ، فقال يا أستاذ ، لا ينبغى لمثلك أن يكون هكذا .

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري في الجمعة (٨٨٦) ، ومسلم في اللباس والزينة (٢٠٦٨) ، كما رواه أحمد (٤٧١٣) ، وأبو داود في الصلاة (١٠٧٦) ، والنسائي في الجمعة (١٣٨٢) ، وابن ماجه في اللباس (٣٥٩١) ، عن ابن عمر .

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد كتاب حسن الخلق (٣٤٨) ، وابن سعد في الطبقات (١١٥/٧) ، وأبو نعيم في الحلية (٢١٧/٢) .

فقال الحسن : يا ابن أم فرقد ، أما علمتَ أنَّ أصحاب النار أصحاب الأكسية [1].
أي : الأكسية الغليظة .

وكان مالك بن أنس يلبس الثياب العدنية الجياد .

وكان ثوب أحمد بن حنبل يُشْترى بنحو الدينار .

وقد كانوا يؤثرون البذاذة إلى حدٍّ ، وربما لبسوا خلقان الثياب في بيوتهم ، فإذا خرجوا تجمَّلوا ولبسوا ما لا يشتهرون به من الدون ، ولا من الأعلى .

قال عيسى بن حازم : كان لباس إبراهيم بن أدهم كتانًا ، قطنًا ، فروة . لم أرَ (عليه) ثياب صوف ولا ثياب شهرة .

قال أبو جعفر الطبري : ولقد أخطأ مَن آثر لباس الشعر والصوف على لباس القطن والكتَّان ، مع وجود السبيل إليه من حِلِّه ، ومَن أكل البقول والعدس واختاره على خبز البُرِّ ، ومَن ترك أكل اللحم خوفًا من عارض شهوة النساء .

وجاء رجل إلى الحسن البصرى يلبس الصوف ، وعليه جُبَّة صوف ، وعمامة صوف ، ورداء صوف ، فجلس فوضع بصره في الأرض ، فجعل لا يرفع رأسه مُظْهرًا للخشوع ، وكأنَّ الحسن خال فيه العُجْب! فقال فيه الحسن : ها إنَّ قومًا جعلوا كبرهم في صدورهم ، شنَّعوا ـ والله ـ دينهم بهذا الصوف . ثم قال : إن رسول الله ﷺ ، كان يتعوَّذ من زيِّ المنافقين . قالوا : يا أبا سعيد ، وما زي المنافقين؟ قال : خشوع اللباس ، بغير خشوع القلب[2].

النهي عن ثياب الشهرة :

ورأى ابن عمر على ولده ثوبًا قبيحًا دونًا ، فقال : لا تلبس هذا ، فإنَّ هذا ثوب شُهرة[3]!

---

(١) رواه ابن سعد في الطبقات (١٦٩/٧) .

(٢) لم أجده ، وروى البيهقي في الشعب باب إخلاص العمل لله (٦٩٦٧) ، عن أبي بكر قال : قال رسول الله ﷺ : « تعوَّذوا بالله من خشوع النفاق » . قالوا : يا رسول الله ، وما خشوع النفاق؟ قال : « خشوع البدن ونفاق القلب » . وقال العراقي في تخريج الإحياء : فيه الحارث بن عبيد الأيادي ضعفه أحمد وابن معين (٣٣١/٣) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول (٦٧) .

وعن ابن عمر ، عن رسول الله ﷺ : « مَن لبس ثوب شهرة من الثياب ألبسه الله ثوب ذلّة »[1].

عن أبي هريرة وزيد بن ثابت رضي الله عنهما ، أن النبي ﷺ ، نهى عن الشهرتين . فقيل : يا رسول الله ، وما الشهرتان؟ قال : « رقة الثياب وغلظها ، ولينها وخشونتها ، وطولها وقصرها ، ولكن سدادٌ بين ذلك واقتصاد »[2].

وعن سفيان : البس من الثياب ما لا يزدريك فيه السفهاء ، ولا يعيبك عليه الحكماء[3].

اللباس المنهي عنه :

واعلم أن اللباس الذي يُزْري بصاحبه ، يتضمَّن إظهار الزهد ، وإظهار الفقر ، وكأنه لسان شكوى من الله عزَّ وجلَّ ، ويوجب احتقار اللابس ، وكلُّ ذلك مكروه ومنهيٌّ عنه .

عن الأحوص ، عن أبيه قال : أتيتُ النبي ﷺ ، وأنا قشف الهيئة ، فقال : « هل لك من مال؟ » . قلتُ : نعم . قال : « من أي المال؟ » . قلتُ : من كلِّ المال قد آتانا الله عزَّ وجلَّ ؛ من الإبل والرقيق والخيل والغنم . قال : « فإذا آتاك الله عزَّ وجلَّ مالا ، فَلْيُرَ عليك »[4].

---

(١) رواه أحمد (٥٦٦٤) ، وقال مخرجوه : حسن وهذا إسناد ضعيف لضعف شريك وبقية رجاله ثقات ، وأبو داود في اللباس (٤٠٣٠) ، وابن ماجه في اللباس (٣٦٠٦) ، وأبو يعلى (٥٦٩٨) ، عن ابن عمر ، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (٣٣٩٩) .

(٢) رواه البيهقي في الشعب باب الملابس والزي (٦٢٣١) ، وقال : أبو نعيم ـ أحد الرواة ـ هذا لا نعرفه ، وقال الألباني في الضعيفة : موضوع (٢٣٢٦).

(٣) روي مثله عن ابن عمر ، رواه الطبراني (٢٦٢/١٢) ، وأبو نعيم في الحلية (٣٠٢/١) ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح (٢٣٨/٥) ، وحسنه الألباني في غاية المرام (٩٢) .

(٤) رواه أحمد (١٥٨٩١) ، وقال مخرجوه : إسناده صحيح على شرط مسلم ، وأبو داود في اللباس (٤٠٦٣) ، والترمذي في البر والصلة (٢٠٠٦) ، وقال : حسن صحيح ، والنسائي في الزينة (٥٢٢٣) ، عن مالك بن نضلة .

وعن جابر قال : أتانا رسول الله زائرًا في منزلي ، فرأى رجلاً شعثًا ، فقال : « أما يجد هذا ما يسكن به رأسه ؟ » ، ورأى رجلاً عليه ثياب وسخة ، فقال : « أما كان يجد هذا ما يغسل به ثيابه؟! »[1] .

عن عبد الله بن سلام قال : خطب رسول الله ﷺ في يوم جمعة فقال : « ما على أحدكم لو اشترى ثوبين ليوم جمعة ، سوى ثوب مهنته؟! »[2].

وكان لرسول الله ﷺ ، بُرد يمنية ، وإزار من نسج عُمَان ، فكان يلبسهما في يوم الجمعة ، ويوم العيدين ، ثم يُطويان .

ردُّ ابن الجوزي على شُبهة المتزمِّتين من المتصوِّفة :

وقد رد ابن الجوزي على شبهة المتزمِّتين من المتصوِّفين الذين يقولون : إن تجويد اللباس والعناية به هوًى للنفس ، وقد أمرنا بمجاهدتها ، وتزيُّن للخلق ، وقد أُمرنا أن تكون أفعالنا لله لا للخلق .

قال : (ليس كل ما تهواه النفس يُذَمُّ ، ولا كلُّ التزيُّن للناس يكره ، وإنما يُنهى عن ذلك إذا كان الشرع قد نهى عنه ، أو كان على وجه الرياء في باب الدين . فإن الإنسان يجب أن يُرى جميلاً ، وذلك حظُّ النفس ولا يُلام فيه ، ولهذا يُسرِّح شعره ، وينظر في المرآة ، ويسوِّي عمامته ، ويلبس بطانة الثوب الخشن إلى داخل ، وظهارته الحسنة إلى خارج ، وليس في شيء من هذا ما يُكره ولا يُذمُّ .

---

(١) رواه أحمد (١٤٨٥٠) ، وقال مخرجوه : إسناده جيد ، مسكين بن بكير صدوق ، وباقي رجال الإسناد ثقات رجال الشيخين ، وأبو نعيم في الحلية (١٥٦/٣) ، والبيهقي في الشعب باب الملابس والزي (٦٢٢٤) ، عن جابر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٣٣٣) .

(٢) رواه أبو داود في الصلاة (١٠٧٨) ، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٠٩٥) ، وعبد بن حميد (٤٩٩) ، والطبراني (٢٨٧/٢٢) ، والبيهقي في الكبرى كتاب الجمعة (٢٤٢/٣) ، عن عبد الله ابن سلام ، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٩٥٣) .

روى مكحول ، عن عائشة قالت : كان نفرٌ من أصحاب رسول الله ﷺ ، ينتظرونه على الباب فخرج يُريدهم ، وفي الدار رِكوة فيها ماء ، فجعل ينظر في الماء ويسوِّي شعره ولحيته ، فقلت : يارسول الله : وأنت تفعل هذا؟

قال : « نعم ، إذا خرج الرجل إلى إخوانه فلْيهيِّئ من نفسه ، فإنَّ الله جميل يحب الجمال »[1].

وفي رواية : خرج رسول الله ﷺ ، فمرَّ بركوة لنا فيها ماء ، فنظر إلى ظلِّه فيها ، ثم سوَّى لحيته ورأسه ، ثم مضى فلما رجع قلت : يارسول الله ، تفعل هذا ؟ قال : « وأي شيء فعلتُ ؟ نظرتُ في ظلِّ الماء ، فهيَّأتُ من لحيتي ورأسي ، إنه لا بأس أن يفعله الرجل المسلم ، إذا خرج إلى إخوانه أن يُهيِّئ من نفسه)[2].

* * *

(١) رواه ابن السني في عمل اليوم والليلة صـ٤٨ ، عن عائشة .

(٢) تلبيس إبليس صـ٢٤٨ ، ٢٤٩ .

obeikandl.com

الفصل العاشر

حدود الزهد في ضروريات الحياة في نظر الإمام الغزالي

نذكر في هذا الفصل حدود الزهد المطلوب ـ في نظر الإمام الغزالي ـ من أرباب السلوك ، ممن يريد أن يدخل في زمرة الزاهدين في الدنيا ، الراغبين في الآخرة . وذلك فيما يتعلّق بأساسيات الحياة أو ضرورياتها ، من المأكل ، والمشرب ، والملبس ، والمسكن والأثاث ، والمنكح (أي الزواج) ، والجاه .

وقد عرض الغزالي لهذا الأمر في (الإحياء) وفصّله ، وقد ضيّق فيه بحيث لا يتّسع إلا لأناس مُتفرّغين للتعبُّد ، أو لأناس أُوتوا من العزائم والقوّة ما لم يُؤْتَ غيرهم . أما جمهور المسلمين الكادحين في الأرض ، الساعين في طلب الرزق ، فيصعب عليهم تنفيذ ما قاله الغزالي . كما أنَّ (برنامج) الغزالي الذي وضعه لم يُراعِ فيه أنه لا يليق بأمةٍ لها رسالة تقود الأمم ، وتصنع الحضارة ، وتمتلك القوة ، وتعمر الأرض بالحقِّ والخير . وسنناقش ذلك فيما بعد .

بيان تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة :

قال الإمام الغزالي : (اعلم أنَّ ما الناس منهمكون فيه ينقسم إلى فضول ، وإلى مهم ، فالفضول كالخيل المسوَّمة مثلا ، إذ غالب الناس إنما يقتنيها للترفُّه بركوبها ، وهو قادر على المشى . والمهم ، كالأكل والشرب .

ولسنا نقدر على تفصيل أصناف الفضول ، فإنَّ ذلك لا ينحصر ، وإنما ينحصر المهم الضرورى ، والمهم أيضا يتطرَّق إليه فضول ، في مقداره وجنسه وأوقاته ، فلا بدَّ من بيان وجه الزهد فيه .

ضروريات الحياة الستة :

والمهمات ستة أمور : المطعم ، والملبس ، والمسكن وأثاثه ، والمنكح ، والمال ، والجاه يطلب لأغراض ، وهذه الستة من جملتها ، وقد ذكرنا معنى الجاه وسبب

حبِّ الخلق له ، وكيفية الاحتراز منه ، في كتاب الرياء من ربع المهلكات ، ونحن الآن نقتصر على بيان هذه المهمات الستة .

١- مهمُّ المطعم :

الأول : المطعم ، ولا بد للإنسان من قوت حلال يقيم صُلبه ، ولكن له طول وعَرْض ، فلا بد من قبض طوله وعَرْضه حتى يتمَّ به الزهد ، فأما طوله فبالإضافة إلى جملة العمر ، فإنَّ مَن يملك طعام يومه فلا يقنع به .

وأما عَرْضه ففي مقدار الطعام وجنسه ووقت تناوله ، أما طوله فلا يقصر إلا بقصر الأمل .

وأقل درجات الزهد فيه : الاقتصار على قدر دفع الجوع عند شدَّة الجوع وخوف المرض .

ومَن هذا حاله فإذا استقلَّ بما تناوله ، لم يدَّخر من غدائه لعشائه ، وهذه هي الدرجة العليا .

الدرجة الثانية : أن يدَّخر لشهر أو أربعين يومًا .

الدرجة الثالثة : أن يدَّخر لسنة فقط ، وهذه رتبة ضعفاء الزهاد .

ومن ادَّخر لأكثر من ذلك ، فتسميته زاهدًا محال ؛ لأن من أمَّل بقاء أكثر من سنة فهو طويلُ الأمل جدًّا ، فلا يتمُّ منه الزهد ، إلا إذا لم يكن له كسب ، ولم يرضَ لنفسه الأخذ من أيدي الناس ، كداود الطائي ، فإنه ورث عشرين دينارًا فأمسكها وأنفقها في عشرين سنة ، فهذا لا يضادُّ أصل الزهد ، إلا عند مَن جعل التوكُّل شرط الزهد .

وأما عَرْضه فبالإضافة إلى المقدار ، وأقل درجاته في اليوم والليلة : نصف رطل ، وأوسطه : رطل ، وأعلاه : مد واحد . وهو ما قدَّره الله تعالى في إطعام المسكين في الكفارة ، وما وراء ذلك فهو من اتِّساع البطن والاشتغال به . ومَن لم يقدر على الاقتصار على مدٍّ لم يكن له من الزهد في البطن نصيب .

وأما بالإضافة إلى الجنس ، فأقلُّه : كلُّ ما يقوت ولو الخبز من النخالة ، وأوسطه : خبز الشعير والذرة ، وأعلاه : خبز البر غير منخول ، فإذا ميِّز من النخالة

وصار حواري فقد دخل في التنعُّم ، وخرج عن آخر أبواب الزهد ، فضلاً عن أوائله .

وأما الأُدْم ، فأقلُّه : الملح أو البقل والخل ، وأوسطه : الزيت أو يسير من الأدهان ، أيُّ دهن كان ، وأعلاه : اللحم ، أيُّ لحم كان ، وذلك في الأسبوع مرَّة أو مرَّتين . فإن صار دائمًا أو أكثر من مرتين في الأسبوع ، خَرَج عن آخر أبواب الزهد ، فلم يكن صاحبه زاهدًا في البطن أصلاً .

وأما بالإضافة إلى الوقت ، فأقلُّه في اليوم والليلة : مرَّة ، وهو أن يكون صائمًا ، وأوسطه : أن يصوم ويشرب ليلة ، ولا يأكل ، ويأكل ليلة ولا يشرب ، وأعلاه : أن ينتهي إلى أن يطوى ثلاثة أيام أو أسبوعًا وما زاد عليه .

أحوال الرسول والصحابة في زهدهم في المطاعم :

ولينظر إلى أحوال رسول الله ﷺ ، والصحابة رضوان الله عليهم ، في كيفية زهدهم في المطاعم وتركهم الأدم .

قالت عائشة رضي الله تعالى عنها : كانت تأتي علينا أربعون ليلة ، وما يُوقَد في بيت رسول الله ﷺ مصباح ولا نار . قيل لها : فبم كنتم تعيشون ؟ قالت : بالأسودين التمر والماء[1] . وهذا ترك اللحم والمرقة والأدم .

وقال الحسن : كان رسول الله ﷺ يركب الحمار ، ويلبس الصوف ، وينتعل المخصوف ، ويلعق أصابعه ، ويأكل على الأرض ، ويقول : « إنما أنا عبد ، آكل كما تأكل العبيد ، وأجلس كما تجلس العبيد »[2] .

وقال المسيح عليه السلام : بحقٍّ أقول لكم : إنه مَن طلب الفردوس ، فخبز الشعير له ، والنوم على المزابل مع الكلاب كثير[3] .

---

(١) رواه ابن المبارك في الزهد (٩٦٩) ، والطيالسي (١٥٧٥) ، والحاكم في الأطعمة (١٠٦/٤) ، وصحَّح إسناده ، ووافقه الذهبي ، عن عائشة .

(٢) رواه هناد في الزهد (٧٩٩) ، عن الحسن البصري .

(٣) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٤٣/٤٧) .

وقال الفضيل : ما شبع رسول الله ﷺ ، منذ قدم المدينة ثلاثة أيام من خبز البرّ[1].

وكان المسيح ﷺ يقول : يا بني إسرائيل ، عليكم بالماء القراح ، والبقل البري ، وخبز الشعير ، وإياكم وخبز البُر ، فإنكم لن تقوموا بشكره[2].

٢- مهمُّ الملْبَس :

المهم الثانى : الملبس ، **وأقل درجته** : ما يدفع الحرَّ والبرد ، ويستر العورة ، وهو كساء يتغطَّى به ، **وأوسطه** : قميص وقلنسوة ونعلان ، **وأعلاه** : أن يكون معه منديل وسراويل ، وما جاوز هذا من حيث المقدار فهو مجاوز حدَّ الزهد .

وشرط الزاهد : أن لا يكون له ثوب يلبسه إذا غسل ثوبه ، بل يلزمه القعود في البيت ، فإذا صار صاحب قميصين وسروالين ومنديلين ، فقد خرج من جميع ألوان الزهد من حيث المقدار .

أما الجنس ، فأقله : المسوح الخشنة ، وأوسطه : الصوف الخشن ، وأعلاه : القطن الغليظ .

وأما من حيث الوقت ، **فأقصاه** : ما يستر سنة ، وأقله : ما يبقى يومًا ، حتى رقع بعضهم ثوبه بورق الشجر وإن كان يتسارع الجفاف إليه ، وأوسطه : ما يتماسك عليه شهرًا وما يقاربه ، فطلب ما يبقى أكثر من سنة خروج إلى طول الأمل ، وهو مُضَادٌّ للزهد ، وإلا إذا كان المطلوب خشونته ، ثم قد يتبع ذلك قوَّته ودوامه ، فمَن وجد زيادةً من ذلك فينبغى أن يَتَصدَّق به ، فإن أمسكه لم يكن زاهدًا ، بل كان محبًّا للدنيا .

---

(١) روى مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٧٦) ، وأحمد (٩٦١١) ، والترمذي في الزهد (٢٣٥٨) ، وابن ماجه في الأطعمة (٣٣٤٣) ، عن أبي هريرة قال : والذي نفس أبي هريرة بيده ، ما شبع نبي الله ﷺ ، وأهله ثلاثة أيام تباعا من خبز حنطة ، حتى فارق الدنيا .

(٢) رواه مالك في صفة النبي (١٦٦٥) ، وأبو نعيم في الحلية (٣٢٨/٦) ، والبيهقي في الشعب باب تعديد نعم الله (٤٥٨٤) ، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٢٥/٤٧) ، عن مالك بلاغًا .

أحوال النبي والصحابة في زهدهم في الملبس :

ولينظر فيه إلى أحوال الأنبياء والصحابة ، كيف تركوا الملابس . قال أبو بُردة : أخرجت لنا عائشة رضي الله تعالى عنها ، كساءً ملبَّدا ، وإزارًا غليظًا ، فقالت : قبض رسول الله ﷺ في هذين[1].

ولبس خاتمًا من ذهب ، ونظر إليه على المنبر نظرةً ، فرمى به ، فقال : « شغلني هذا عنكم ، نظرة إليه ، ونظرة إليكم »[2].

وعُدَّ على قميص عمر رضي الله عنه ، اثنتا عشرة رقعة بعضها من أُدم[3].

واشترى علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ثوبًا بثلاثة دراهم ولبسه وهو في الخلافة ، وقطع كميه من الرسغين ، وقال : الحمد لله الذي كساني هذا من رياشه[4].

وقال الثوري وغيره : البس من الثياب ما لا يشهرك عند العلماء ، ولا يحقرك عند الجهَّال .

وكان يقول : إنَّ الفقير ليمرُّ بي وأنا أُصلِّي فأدعه يجوز ، ويمرُّ بي واحد من أبناء الدنيا وعليه هذه البزَّة فأمقته ولا أدعه يجوز! وقال بعضهم : قوَّمت ثوبي سفيان ونعليه بدرهم وأربعة دوانق . وقال ابن شُبرمة : خير ثيابي ما خدمني ، وشرُّها ما خدمته .

وقال بعض السلف : البس من الثياب ما يخلطك بالسوقة ، ولا تلبس منها ما يشهرك ، فينظر إليك .

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري (٥٨١٨) ، ومسلم (٢٠٨٠) ، كلاهما في اللباس ، كما رواه أحمد (٢٤٠٣٧)، وأبو داود (٤٠٣٦)، والترمذي (١٧٣٣)، وابن ماجه (٣٥٥١)، ثلاثتهم في اللباس ، عن عائشة .

(٢) رواه أحمد (٢٩٦٠) ، وقال مخرجوه : إسناده صحيح على شرط الشيخين ، والنسائي (٥٢٨٩) ، وابن حبان (٤٥٩٣) ، والطبراني (٤٠/١٢) ، عن ابن عباس ، وصححه الألباني في صحيح النسائي (٤٨٨٣) .

(٣) رواه ابن المبارك في الزهد (٩٦٤) ، وابن سعد في الطبقات (٣٢٨/٣) ، عن الحسن البصري .

(٤) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٨٣/٤٢) ، عن ابن عباس .

وقال أبو سليمان الداراني : الثياب ثلاثة : ثوب لله ، وهو ما يستر العورة ، وثوب للنفس ، وهو ما يطلب لينه ، وثوب للناس ، وهو ما يطلب جوهره وحسنه[1].

وقال بعضهم : مَن رقَّ ثوبه رقَّ دينه .

وكان جمهور العلماء من التابعين قيمة ثيابهم ما بين العشرين إلى الثلاثين درهمًا ، وكان الخوَّاص لا يلبس أكثر من قطعتين ؛ قميص ومئزر تحته ، وربما يعطف ذيل قميصه على رأسه .

ونظر رافع بن خديج إلى بشْر بن مروان على منبر الكوفة ، وهو يعظ فقال : انظروا إلى أميركم ، يعظ الناس وعليه ثياب الفسَّاق! وكان عليه ثياب رقاق .

وجاء عبد الله بن عامر بن ربيعة إلى أبي ذر في بزَّته فجعل يتكلَّم في الزهد ، فوضع أبو ذر راحته على فيه ، وجعل يضرط به ، فغضب ابن عامر ، فشكاه إلى عمر ، فقال : أنت صنعتَ بنفسك ، تتكلَّم في الزهد بين يديه بهذه البزَّة[2].

وقال علي رضي الله عنه : إنَّ الله تعالى أخذ على أئمة الهدى أن يكونوا في مثل أدنى أحوال الناس ، ليقتديَ بهم الغني ، ولا يُزْريَ بالفقير فقرُه[3].

ولما عُوتب في خشونةِ لباسه قال : هو أقرب إلى التواضع ، وأجدر أن يقتدي به المسلم[4].

ونهى ﷺ عن التنعُّم ، وقال « إنَّ لله تعالى عبادًا ليسوا بالمتنعِّمين »[5].

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٩/٢٧٤) .

(٢) انظر : قوت القلوب (١/٢٨٩) .

(٣) انظر : قوت القلوب (١/٤٢٧) .

(٤) رواه ابن الجعد في مسنده (٢١٤٧) ، وابن أبي الدنيا في التواضع والخمول (١٤١) ، والحاكم في معرفة الصحابة (٣/١٤٣) ، ، وسكت عنه هو والذهبي ، وأبو نعيم في الحلية (١/٨٣) ، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٢/٤٨٥) ، عن زيد بن وهب .

(٥) رواه أحمد (٢٢١٠٥) ، وقال مخرجوه : إسناده ضعيف لضعف بقية بن الوليد ، وهو مدلس تدليس التسوية ، وقد عنعن ، وأبو نعيم في الحلية (٥/١٥٥) ، والبيهقي في الشعب باب الملابس والزي (٦١٧٨) ، عن معاذ ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد : رواه أحمد ورواته ثقات (١٠/٤٣٨) ، وصححه الألباني في الصحيحة (٣٥٣) .

وقال علي لعمر رضي الله عنهما : إن أردتَ أن تلحق بصاحبيك ، فارفع القميص ، ونكِّس الإزار ، واخصف النعل ، وكُل دون الشبع[1].

وقال عمر : اخْشَوْشنوا ، وإيَّاكم وزِيَّ العجم كسرى وقيصر[2].

وقال علي رضي الله عنه : مَن تزيَّا بزي قوم فهو منهم .

وقيل لسلمان الفارسي رضي الله عنه : ما لك لا تلبس الجيد من الثياب ؟ فقال : وما للعبد والثوب الحسن؟ فإذا عتق فله والله ثيابٌ لا تبلى أبدًا .

ويروى عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله ، أنه كان له جبَّة شعر وكساء يلبسهما من الليل إذا قام يصلِّي[3].

٣- مُهِم المسكن :

المهم الثالث : المسكن . وللزهد فيه أيضا ثلاث درجات :

أعلاها : أن لا يطلب موضعًا خاصًّا لنفسه ، فيقنع بزوايا المساجد كأصحاب الصفة .

وأوسطها : أن يطلب موضعًا خاصًّا لنفسه ، مثل كوخ مبنيٍّ من سعف أو جص أو ما يشبهه .

وأدناها : أن يطلب حجرة مبنيَّة إما بشراء أو إجارة ، فإن كان قدر سَعَة المسكن على قدر حاجته من غير زيادة ، ولم يكن فيه زينة ، لم يخرجه هذا القدر عن آخر درجات الزهد ، فإن طلب التشييد والتجصيص والسَّعَة وارتفاع السقف أكثر من ستة أذرع ، فقد جاوز بالكلية حدَّ الزهد في المسكن .

فاختلاف جنس البناء ، بأن يكون من الجصِّ أو القصب أو بالطين أو بالآجر ، واختلاف قدره بالسَّعة والضيق ، واختلاف طوله بالإضافة إلى الأوقات ، بأن يكون مملوكًا أو مستأجرًا أو مستعارًا ، وللزهد مدخل في جميع ذلك .

---

(١) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٤/٢٨٨) .

(٢) رواه الطحاوى في شرح معانى الآثار (٤/٢٧٥) البيهقي (١٠/١٤) .

(٣) انظر : إحياء علوم الدين (٤/٢٣٤،٢٣٥) .

وبالجملة : كلُّ ما يراد للضرورة ، فلا ينبغي أن يجاوز حدَّ الضرورة ، وقدر الضرورة من الدنيا آلة الدين ووسيلته ، وما جاوز ذلك فهو مُضَادٌّ للدين .

والغرض من المسكن : دفع المطر والبرد ، ودفع الأعين والأذى ، وأقل الدرجات فيه معلوم ، وما زاد عليه فهو الفضول ، والفضول كلُّه من الدنيا ، وطالب الفضول والساعي له بعيد من الزهد جدًّا .

وقال النبي ﷺ : « إذا أراد الله بعبد شرًّا ، أهلك ماله في الماء والطين »[1] .

وقال عبد الله بن عمرو : مرَّ علينا رسول الله ﷺ ، ونحن نعالج خُصًّا ، فقال : « ما هذا؟ » . قلنا : خُصٌّ لنا قد وَهَى . فقال : « أرى الأمر أعجل من ذلك »[2] .

وقال الحسن : دخلنا على صفوان بن مُحيريز ، وهو في بيت من قصب قد مال عليه ، فقيل له : لو أصْلَحْتَه . فقال : كم من رجل قد مات ، وهذا قائمٌ على حاله .

وفي الخبر : « كلُّ نفقةٍ في الأرض يُؤْجَرُ عليها ، إلا ما أنفقه في التراب » ، أوقال : « في البناء »[3] .

وكان من السلف مَن يبني داره مرارًا في مدَّة عمره لضعف بنائه ، وقصر أمله ، وزهده في إحكام البنيان . وكان منهم مَن إذا حجَّ أو غزا نزع بيته ، أو وهبه لجيرانه ، فإذا رجع أعاده . وكانت بيوتهم من الحشيش والجلود ، وهي عادة العرب الآن ببلاد اليمن ، وكان ارتفاع بناء السقف قامة وبسطة .

قال الحسن : كنتُ إذا دخلتُ بيوت رسول الله ﷺ ، ضربتُ بيدي إلى السقف .

وقال عمرو بن دينار : إذا أعلى العبد البناء فوق ستة أذرع ، ناداه ملك : إلى أين يا أفسق الفاسقين ؟

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (١٨٥/٢) ، والأوسط (٩٣٦٩) ، وفي الصغير (١١٢٧) ، عن جابر ، وضعفه الألباني في الضعيفة (٢٢٩٤) ، وعزاه العراقي لأبي داود عن عائشة ، وليس فيه .

(٢) رواه أحمد (٦٥٠٢) ، وقال مخرجوه : إسناده صحيح على شرط الشيخين ، وأبو داود في الأدب (٥٢٣٦)، والترمذي في الزهد (٢٣٣٥)، وقال : حسن صحيح ، وابن ماجه في الزهد (٤١٦٠)، عن عبد الله بن عمرو ، وفي الإحياء ابن عمر ، والمثبت الصواب .

(٣) رواه البخاري في المرضى (٥٦٧٢) ، وأحمد (٢١٠٦٩) ، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٨٣) ، وابن ماجه في الزهد (٤١٦٣) ، عن خباب موقوفا .

وقد نهى سفيان عن النظر إلى بناء مُشيَّد ، وقال : لولا نَظَرُ الناسِ لما شيَّدوا ، فالنظر إليه مُعينٌ عليه .

وقال الفضيل : إني لا أعجب ممَّن بنى وترك ، ولكن أعجب ممَّن نظر إليه ولم يعتبر .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : يأتي قوم يرفعون الطين ، ويضعون الدين ، ويستعملون البرازين ، يُصَلُّون إلى قبلتكم ، ويموتون على غير دينكم[1] .

٤- مهمُّ الأثاث .

وللزهد فيه أيضا درجات : أعلاها : حال عيسى المسيح صلوات الله عليه وسلامه ، وعلى كل عبد مُصْطفى ، إذ كان لا يصحبه إلا مشط وكوز ، فرأى إنسانًا يمشط لحيته بأصابعه فرمى بالمشط ، ورأى آخر يشرب من النهر بكفيه فرمى بالكوز ، وهذا حكم كلِّ أثاث ، فإنه إنما يُراد لمقصود ، فإذا استغنى عنه فهو وبال في الدنيا والآخرة ، وما لا يُسْتغنى عنه فيقتصر فيه على أقلِّ الدرجات ، وهو الخزف في كلِّ ما يكفي فيه الخزف ، ولا يبالي بأن يكون مكسور الطرف ، إذا كان المقصود يحصل به .

وأوسطها : أن يكون له أثاث بقدر الحاجة ، صحيح في نفسه ، ولكن يستعمل الآلة الواحدة في مقاصد ، كالذي معه قصعة يأكل فيها ، ويشرب فيها ، ويحفظ المتاع فيها ، وكان السلف يستحبُّون استعمال آلة واحدة في أشياء للتخفيف .

وأدناها : أن يكون له بعدد كلِّ حاجة آلة ، من الجنس النازل الخسيس ، فإن زاد في العدد أو في نفاسة الجنس خرج عن جميع أبواب الزهد ، وركن إلى طلب الفضول .

أثاث منزل الرسول ﷺ وأصحابه :

ولينظر إلى سيرة رسول الله ﷺ ، وسيرة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، فقد قالت عائشة رضي الله عنها :

---

(١) انظر : إحياء علوم الدين (٤/٢٣٦).

كان ضجاع رسول الله ﷺ ، الذي ينام عليه ، وسادة من أدم حشوها ليف[1].

ورُوي أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، دخل على رسول الله ﷺ ، وهو نائم على سرير مرمول بشريط ، فجلس فرأى أثر الشريط في جَنْبه عليه السلام ، فدمعت عينا عمر ، فقال له النبيُّ ﷺ : « ما الذي أبكاك يا ابن الخطاب؟ » . قال : ذكرتُ كسرى وقَيْصَر ، وما هما فيه من الملك ، وذكرتك وأنت حبيب الله وصفيُّه ورسوله نائم على سرير مرمول بالشريط . فقال ﷺ : « أما ترضى يا عمر ، أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟ » . قال : بلى ، يا رسول الله . قال : « فذلك كذلك »[2].

ودخل رجل على أبي ذر ، فجعل يُقلِّب بصره في بيته ، فقال : يا أبا ذر ، ما أرى في بيتك متاعًا ، ولا غير ذلك من الأثاث ؟ فقال : إنَّ لنا بيتًا نوجِّه إليه صالح متاعنا . فقال : إنه لا بدَّ لك من متاع ، ما دمت ههنا . فقال : إنَّ صاحب المنزل لا يدعنا فيه[3]!

وقال الحسن : أدركتُ سبعين من الأخيار ، ما لأحدهم إلا ثوبه ، وما وضع أحدهم بينه وبين الأرض ثوبًا قط ، كان إذا أراد النوم باشر الأرض بجسمه ، وجعل ثوبه فوقه .

٥- مهم المنكح (الزواج) :

المهم الخامس : المنكح ، وقد قال قائلون : لا معنى للزهد في أصل النكاح ، ولا في كثرته ، وإليه ذهب سهل بن عبد الله ، وقال : قد حُبِّب إلى سيد الزاهدين النساء ، فكيف نزهد فيهنّ ؟ ووافقه على هذا القول ابن عُيينة ، وقال : كان أزهد الصحابة علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وكان له أربع نسوة ، وبضع عشرة سُرِّيَّة .

والصحيح ما قاله أبو سليمان الداراني رحمه الله ، إذ قال : كلُّ ما شغلك عن الله من أهل ومال وولد ، فهو عليك مشئوم[4]. والمرأة قد تكون شاغلاً عن الله .

---

(١) رواه مسلم في اللباس والزينة (٢٠٨٢) ، وأحمد (٢٤٢٠٩) ، وأبو داود في اللباس (٤١٤٧) ، والترمذي في اللباس (١٧٦١) ، وابن ماجه في الزهد (٤١٥١) ، عن عائشة .

(٢) سبق تخريجه صـ ٧٨ .

(٣) رواه البيهقي في الشعب باب الزهد (١٠٦٥١) ، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٢١١/٦٦) .

(٤) رواه أبو نعيم في الحلية (٢٦٤/٩) ، والخطيب في تاريخ بغداد (٢٤٨/١٠) ، وابن عساكر في تاريخ دمشق (١٢٩/٣٤) .

فلا يجوز أن يترك النكاح زهدًا في لذَّته من غير خوف آفة أخرى ، وهذا ما عناه سهل لا محالة ، ولأجله نكح رسول الله ﷺ .

وإذا ثبت هذا ، فمَن حاله حال رسول الله ﷺ ، في أنه لا يشغله كثرة النسوة ، ولا اشتغال القلب بإصلاحهنَّ ، والإنفاق عليهنَّ ، فلا معنى لزهده فيهن ، حذرًا من مُجرَّد لذَّة الوقاع والنظر ، ولكن أنَّى يُتصوَّر ذلك لغير الأنبياء والأولياء ، فأكثر الناس يشغلهم كثرة النسوان ، فينبغى أن يترك الأصل إن كان يشغله ، وإن لم يشغله وكان يخاف من أن تشغله الكثرة منهنّ ، أو جمال المرأة ، فلينكح واحدة غير جميلة ، وليراعِ قلبه في ذلك .

قال أبو سليمان : الزهد في النساء : أن يختار المرأة الدون أو اليتيمة ، على المرأة الجميلة والشريفة .

وقال الجُنيد رحمه الله : أحبُّ للمريد المبتدي أن لا يشغل قلبه بثلاث ، وإلا تغيَّر حاله : التكسُّب ، وطلب الحديث ، والتزوُّج ! وقال : أحبُّ للصوفي أن لا يكتب ولا يقرأ! لأنه أجمع لهمِّه ، فإذا ظهر أنَّ لذَّة النكاح كلذَّة الأكل ، فما شغل عن الله فهو محذور فيهما جميعا .

٦- مهمُّ المال والجاه :

المهم السادس : ما يكون وسيلة إلى هذه الخمسة ، وهو المال والجاه .

وأما المال فهو ضروريٌّ في المعيشة ، أعني القليل منه ، فإن كان كسوبًا فإذا اكتسب حاجة يومه فينبغى أن يترك الكسب ، كان بعضهم إذا اكتسب حبَّتين رفع سِفْطه وقام ، هذا شرط الزهد ، فإن جاوز ذلك إلى ما يكفيه أكثر من سنة ، فقد خرج عن حدِّ ضعفاء الزهاد وأقويائهم جميعًا ، وإن كانت له ضيعة ولم يكن له قوَّة يقين في التوكُّل ، فأمسك منها مقدار ما يكفي ريعه لسنة واحدة ، فلا يخرج بهذا القدر عن الزهد ، بشرط أن يَتَصدَّق بكلِّ ما يفضل عن كفاية سنته ، ولكن يكون من ضُعَفاء الزهاد ، فإن شرط التوكُّل في الزهد كما شرطه أُويس القرني رحمه الله ، فلا يكون هذا من الزهاد ، وقولنا : إنه خرج من حدِّ الزهاد . نعني به :

أنَّ ما وعد للزاهدين في الدار الآخرة من المقامات المحمودة لا يناله ، وإلا فاسم الزهد قد لا يفارقه بالإضافة إلى ما زهد فيه من الفضول والكثرة .

فإذًا ما يضطر الإنسان إليه من جاهٍ ومال ليس بمحذور ، بل الزائد على الحاجة سُمٌّ قاتل ، والمقتصر على الضرورة دواء نافع . وما بينهما درجات متشابهة ، فما يقرب من الزيادة وإن لم يكن سمًّا قاتلاً فهو مُضرٌّ ، وما يَقْرب من الضرورة فهو وإن لم يكن دواء نافعا ، لكنه قليل الضرر ، والسمُّ محظور شربه ، والدواء فرض تناوله ، وما بينهما مشتبه أمره ، فمَن احتاط فإنما يحتاط لنفسه ، ومَن تساهل فإنما يتساهل على نفسه ، ومَن استبرأ لدينه وترك ما يُريبه إلى ما لا يريبه ، ورد نفسه إلى مضيق الضرورة ، فهو الآخذ بالحزم ، وهو من الفرق الناجية لا محالة)[1] . انتهى .

وسأتكلم في الفصل الحادي عشر والأخير من هذا الباب عن تجاوزات الإمام الغزالي للمنهج الوسطي في الزهد ، وأقف معه ـ على حُبِّي وتقديري وشّدة إعجابي به ـ وقفات نقدية ، جنح فيها ـ وهو من كبار أئمة الوسطِّية ـ عن الوسط في هذه القضية إلى بعض أطراف الغلو .

* * *

(١) إحياء علوم الدين (٤/٢٣٠-٢٤١) .

الفصل الحادي عشر

وقفات نقديَّة أمام الغلاة في الزهد

اجتهاد الصوفية المخلصين في طاعة الله :

المخلصون من الصوفية قوم مجتهدون في طاعة الله ، ولكنهم ليسوا أنبياء معصومين ، ولا ملائكة مُطهَّرين ، بل هم بشرٌ يُصيبون ويُخطئون ، ومَن كان من أهل العلم منهم ، فهو معذور في خطئه ، بل مأجور عليه أجرًا واحدًا . وقد نقلنا عن كثير منهم أقوالاً حسنة مقبولة في بيان حقيقة الزهد ، والتعريف به ، كلٌّ منهم يعبِّر فيه عن حاله ووجدانه ، ومجموعها يُعطي صورة طيبة عن الزهد والزاهدين ، الذين يعيشون في الدنيا بقلوب أهل الآخرة ، ويمشون على الأرض وأعينهم ترنو إلى السماء ، ويتعاملون بظاهرهم مع الخلق وبواطنهم معلَّقة بالخالق .

ولكن منهم مَن بالغ في تصوير الزهد ، بحيث يحرم الناس من طيبات الدنيا ، ويُشعِر المسلم المتدِّين في عصرنا بأنه قليل الدين ، وأنه لا أمل له أن يصبح من أهل الآخرة ، أو يَقْرُب من أهل التقوى ، الذين قال الله فيهم : ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾

(آل عمران:١٣٣).

ومن هؤلاء الإمام أبو حامد الغزالي الذي أُحبُّه وأُقدِّره لأمانته وإخلاصه لله ، وخدمته للعلم والدين ، ومقاومة أعداء الإسلام والمسلمين ، حتى سُمِّي بحقٍّ (حُجَّة الإسلام) .

فقد بالغ في تقدير ما ينبغي للزاهدين من مأكل ومشرب وملبس ومسكن وأثاث ، بحيث يظنُّ المسلم المعاصر أنه بَعُد جدًّا عن حقيقة التديُّن المنشود .

وهؤلاء هم الذين نقف معهم في هذا المبحث وقفةً نقدية ، فليس في العلم كبير ، وليس بعد محمد ﷺ معصوم .

أولاً : مصطلح الزهد والزهَّاد ليس مصطلحًا قرآنيًّا ولا نبويًّا :

ويهمُّني أن أؤكِّد هنا ما ذكرتُه من قبل ، وهو ما لا ينبغي أن يغيب عنا ، وهو أنَّ مصطلح (الزهد) أو (الزهَّاد) أو (الزاهدين) ليس من (المصطلحات القرآنية) أو (النبوية) التي يعرفها العلماء والدارسون .

إنما يعرف العلماء والدارسون المسلمون مفاهيم ومصطلحات (الإيمان) و(الصلاح) ، و(البر) ، و(التقوى) ، و(الإحسان) ، و(العبادة) ، و(العبودية للرحمن) ونحوها ، وهي التي رُتِّبت عليها خيرات الدنيا والآخرة ، ويعرف العلماء المسلمون المشتقَّات منها ، التي تكرَّرت في القرآن الكريم ، تنويهًا بها ، وثناء على أصحابها ، ووعداً لهم بأحسن الجزاء في الآخرة والأولى ، وبيانًا لخصالهم وأوصافهم التي تميَّزوا بها ، واستحقُّوا هذا العطاء ، وذاك الجزاء من قبل الله تعالى عليهم .

من أوصاف المؤمنين في القرآن :

فنجد في القرآن بيانًا ناصعًا جليًّا لأوصاف (المؤمنين) ، كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾

(الأنفال: ٢ - ٤).

وقوله في أول سورة المؤمنين : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (المؤمنون: ١ - ١١).

وقوله في سورة الحجرات : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾

(الحجرات: ١٥).

وقوله في سورة النور : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (النور: ٥١).

وفي سورة الأحزاب : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ (الأحزاب: ٣٦).

كما بيَّن القرآن صفات الكافرين الصُّرحاء ، والمنافقين المُتلوِّنين ، ليميِّز المؤمنين غاية التمييز .

من صفات المتَّقين في القُرآن :

وكذلك ميَّز القرآن صفات (المتَّقين) بجلاء ، كما في أول سورة البقرة : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (البقرة: ٢-٥).

وفي نفس السُّورة بيَّن القرآن حقيقة البرِّ ، الذي يُعبِّر عن حقيقة التديُّن ، وليس عن مُجرَّد شكله ، ويردُّ على اليهود الذين حاولوا أن يجعلوه مُجرَّد الاتجاه إلى قبلة في المشرق أو المغرب ، فيقول تعالى : ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ (البقرة: ١٧٧) .

وفي سورة آل عمران بيَّن القرآن خصال (المتَّقين) ، الذين يستحقُّون جنَّة الله فقال : ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۝١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ

وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ (آل عمران:١٣٣-١٣٦).

وفي سورة الأعراف : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ (الأعراف:٢٠١) ، فبيَّن القرآن أن الشيطان يمكن أن يمسَّ المتقين ، فليسوا ملائكة مطهَّرين ، ولا أنبياء معصومين ، ولكن سرعان ما يتذكَّرون جلال الله تعالى ورقابته وحسابه وجزاءه ، فإذا هم مُبْصرون الحقيقة ، ومُبْصرون الغاية ، ومبصرون الطريق .

بل إنَّ المتقين قد يرتكبون الكبيرة بفعل الفاحشة ، أو الصغيرة بظلم النفس ، ولكنهم سرعان ما يذكرون الله فيستغفرون لذنوبهم ، ويتوبون إلى ربهم : ﴿ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾(آل عمران:١٣٥).

صفات الأبرار والمحسنين :

كما بيَّن القرآن وَصْفَ الأبرار من عباد الله ، الذين يسأل الكثيرون أن يتوفَّاهم الله معهم : ﴿ وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴾ (آل عمران:١٩٣) .

فيُجلِّيهم ربنا في سورة الإنسان ، فيقول : ﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ (الإنسان:٧-١٢) .

وبيَّن القرآن كذلك صفات المحسنين ، فقال في سورة الذاريات : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ (الذاريات:١٦-١٩).

صفات عباد الرحمن :

وبيَّن القرآن صفات عباد الرحمن ، فقال : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ

لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَـٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَـٰمًا ﴿٧٥﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ (الفرقان:٦٣-٧٦).

صفات أُولي الألباب :

ويبيِّن القرآن صفات أولي الألباب ، فيقول في سورة الرعد : ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَـٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ (الرعد:١٩-٢٤).

كما يقول تعالى في سورة الزمر : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾

(الزمر:١٧،١٨).

كما حدَّثتنا سورة آل عمران عن بعض أوصافهم : ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا

بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾

(آل عمران: ١٩١-١٩٤).

فمَن أراد أن يكون واحدًا من هذه الأصناف ، فهذه أوصافهم ، وهذه مميزاتهم مبيَّنة مُفصَّلة ، مُشْرقة ناصعة ، وفي السنَّة بيانٌ أوفى وتفصيلٌ أكثر ، حتى إنَّ (شعب الإيمان) قد صنَّف لها الإمام البيهقي مصنفًا كبيرًا ، ظهر مُحقَّقًا في سبعة عشر جزءًا .

ليس كل ما يُروى عن الزُّهَّاد مقبولاً شرعًا :

أما (الزهَّاد) أو (الزاهدون) فلا نجد لهم ذكرًا في القرآن ولا في السنة ، وإنما نجد مَن يتحدَّث عنهم ، كلام أناس من أهل التجربة الروحية ، ممَّن يصيبون ويخطئون ، ويَغْلُون أو يقصِّرون ، إذ لا عصمة لهم ، ولا وحي يُسدِّدهم إذا أخطأوا ، فلا غَرْوَ أن تجد في سلوكيَّاتهم وفي أقوالهم كثيرًا من التجاوزات ، التي قد توصف بالتشدُّد ، أو تتَّهم بالقسوة على النفس ، أو بالبعد عن سُنن الله تعالى في الكون والمجتمع .

مثل دخولهم البادية المقفرة بغير زاد ولا رُفقة ، ومثل عيشهم على خبز الشعير الجاف بغير ملح ، واعتبار الملح ترفًا يفسد عليهم طريقتهم ، وتحريمهم شرب الماء البارد على أنفسهم ، وتحريم بعضهم على أنفسهم أن يناموا على فراش ، أو يَضْطجعوا على جنوبهم ، واستمرارهم شهورا طويلة ، بل سنين عديدة بلا نوم لين ، حتى روى بعضهم : أنه عاشر واحدًا منهم أربع سنوات ، فلم يره نام في ليل ولا نهار! فأين هذا من قول الله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ (النبأ: ١٠،١١)، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ

﴿يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٧٢ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (القصص: ٧١-٧٣) .

ومثل أن يعيش أحدهم بثوب واحد ، إذا أراد أن يغسله لم يخرج من بيته ، ومثل أن يُحرِّموا على أنفسهم بناء بيت يسكنون فيه ، فهذا من طول الأمل الذي يتنافى مع الزهد ، كما ألزموا أنفسهم لبس الصوف الخشن ، وحرَّموا على أنفسهم التجمُّل وزينة الله التي أخرج لعباده ، والطيبات من الرزق .

تحذيره ﷺ من الغُلوّ في الدين :

عن أبي قِلابة : أراد أناسٌ من أصحاب رسول الله ﷺ ، أن يرفضوا الدنيا ، ويتركوا النساء ، ويترهَّبوا . فقام رسول الله ﷺ ، فغلَّظ فيهم المقالة ، ثم قال : « إنما هلك مَن كان قبلكم بالتشديد ، شدَّدوا على أنفسهم فشدَّد الله عليهم ، فأولئك بقاياهم في الديار والصوامع ، فاعبدوا الله ولا تشركوا به ، وحجُّوا واعتمروا ، واستقيموا يستقم بكم »[1] .

قال : ونزلت فيهم :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾[2] (المائدة: ٨٧).

وفي الحديث : « إيَّاكم والغُلوَّ في الدين ، فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين »[3] .

بهذه الصيحات الهادرة ، والتوجيهات الجليَّة ، وقف النبيُّ بأصحابه عند حدود الله ، وأرادهم أن يكونوا أمة وسطًا ، وشَهَر سلاحه في وجه كلِّ نزعة تدعو إلى الغلو والانحراف ، وقد فَهم أصحابه رُوح الإسلام ، واهتدوا بهديه ، وقوَّم بعضهم بعضًا إذا رأى مبالغة أو زيفًا .

---

(١) رواه ابن المبارك في الزهد (١٠٣١) .

(٢) انظر : الدر المنثور للسيوطي (٣/١٤٠) ، دار الفكر ، بيروت .

(٣) رواه أحمد (١٧٥٤) ، والنسائي (٣٠٠٧) ، وابن ماجه (٣٠٢٠) ، كلاهما في المناسك ، عن ابن عباس .

بين أبي الدرداء وسلمان الفارسي :

كان أبو الدرداء رجلاً نزَّاعًا إلى كثرة العبادة ، زاهدًا في الحياة الدنيا ، وكان سلمان الفارسي أخًا له في الله ، استطاع أن يتمثَّل تعاليم الإسلام حقًّا ، ويتحرَّر من آثار الديانات التي مارسها قبل إسلامه ، من وثنيَّة فارسية ، أو كتابيَّة (رهبانية) نصرانية .

أخرج البخاري ، عن أبي جُحَيْفة قال : آخى النبيُّ بين سلمان وأبي الدرداء ، فزار سلمان أبا الدرداء يومًا ، فرأى أم الدرداء متَبَذِّلة . ليس عليها لباس الزينة كما تفعل الزوجات لأزواجهنَّ ، لابسة ثياب البِذْلة أي : المهنة .

فقال لها : ماشأنك؟ قالت : أخوك أبو الدرداء ، ليس له حاجة في الدنيا .

فجاء أبو الدرداء ، فصنع له طعامًا ، فقال : كُلْ ، فإني صائم .

قال سلمان : ما أنا بآكل حتى تأكل . قال : فأكل .

فلمَّا كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم ، قال سلمان : نم . فنام ، ثم ذهب يقوم فقال : نم . فنام .

فلما كان من آخر الليل قال سلمان : قم الآن . فصَلَّيا ، فقال له سلمان : إنَّ لربك عليك حقًّا ، ولنفسك عليك حقًّا ، ولأهلك عليك حقًّا ، فأعطِ كلَّ ذي حقٍّ حقَّه .

فأتى أبو الدرداء للنبي ﷺ ، فذكر ذلك له ، فقال ﷺ : « صدق سلمان »[1] .

تَصدِّي ابن الجوزي للمنحرفين عن المنهج الوسط في كتابه (تلبيس إبليس) :

من أجل ذلك تصدَّى الإمام الموسوعي أبو الفرج بن الجوزي ، لهذه المبالغات في التقشُّف ، والحرمان من المأكل والمشرب ، والملبس والمسكن وغيرها ، وبيَّن مخالفتها للمنهج الشرعي المستمد من القرآن والسنة ، وذلك في كتابه النقدي القيم : (تلبيس إبليس) ، الذي نقد فيه فئات المجتمع المختلفة بميزان القرآن والسنة .

---

(١) رواه البخاري في الصوم (١٩٦٨) ، والترمذي في الزهد (٢٤١٣) ، عن أبي جحيفة .

(وقيل لعبد الرحمن بن مهدي : يا أبا سعيد ، إنَّ ببلدنا قومًا من هؤلاء الصوفية؟ قال : لا تقرب من هؤلاء ، فإنا قد رأينا من هؤلاء قومًا أخرجهم الأمر إلى الجنون ، وبعضهم أخرجهم إلى الزندقة . ثم قال : خرج سفيان الثوري في سفر فشيَّعتُه ، وكان معه سُفرة فيها فالوذج ، وكان فيها حَمَل ، ويقول : إنَّ الدابة إذا أُحسن إليها عملت .

وقال رجل لأحمد بن حنبل : إني منذ خمس عشرة سنة قد ولع بي إبليس ، وربما وجدتُ وسوسة ، أتفكر في الله عزَّ وجل ! فقال أحمد : لعلك كنتَ تدمن الصوم! أفطر وكُل دسمًا ، وجالس القُصَّاص .

قال ابن الجوزي : فإن قيل : كيف تمنعون من التقلُّل ، وقد رويتم أن عمر رضي الله عنه ، كان يأكل كلَّ يوم إحدى عشرة لقمة ، وأنَّ ابن الزبير كان يبقى أسبوعًا لا يأكل ، وإنَّ إبراهيم التَّيمي بقي شهرين .

قلنا : قد يجري للإنسان من هذا الفن في بعض الأوقات ، غير أنه لا يدوم عليه ، ولا يقصد الترقِّي إليه . وقد كان في السلف مَن يجوع عَوَزًا ، وفيهم مَن كان الصبر له عادة لا يضرُّ بدنه ، وفي العرب مَن يبقى أيامًا لا يزيد على شرب اللبن . ونحن لا نأمر بالشبع ، إنما ننهى عن جوع يُضعف القوَّة ، ويؤذي البدن ، وإذا ضعف البدن قلَّت العبادة ، فإن حملت البدن قوَّة الشباب ، جاء الشيب فأقذع بالراكب .

وعن أنس رضي الله عنه قال : كان يُطرح لعمر بن الخطاب رضي الله عنه ، الصاع من التمر فيأكله حتى حشفه .

وقد روينا عن إبراهيم بن أدهم ، أنه اشترى زبدًا وعسلاً وخبزًا حوارى. فقيل له: هذا كلُّه تأكله ؟ فقال : إذا وجدنا أكلنا أكل الرجال ، وإذا عدمنا صبرنا صبر الرجال)[1] .

روَوا عن الحسن البصري أنه دُعي إلى طعام ومعه فَرقَد السَّبَخِي ـ أحد الزاهدين ـ وأصحابه ، فقعدوا على المائدة وعليها الألوان من الدجاج المسمَّن

---

(١) تلبيس إبليس صـ٢٦٦،٢٦٧ .

والفالوذ ، وغير ذلك ، فاعتزل فرقد ناحية ، فسأل الحسن : أهو صائم؟ قالوا : لا ، ولكنه يكره هذه الألوان .

فأقبل الحسن عليه وقال : يا فُريقد ، أترى لعاب النحل ، بلباب البُرِّ بخالص السمن يعيبه مسلم؟!

وقيل له : إنَّ فلانًا لا يأكل الفالوذ . ويقول : لا أستطيع أن أؤدِّي شكره .

قال : أفيشرب الماء البارد؟ قالوا : نعم .

قال : إنه جاهل ؛ إنَّ نعمة الله عليه في الماء البارد أكثر عليه من نعمته في الفالوذ!!

ومن كلمات الحسن البصري : إنَّ الله أدَّب عباده فأحسن أدبهم ، قال تعالى : ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ﴾ (الطلاق:٧) ، ما عاب الله قومًا وسَّع عليهم الدنيا فتنعَّموا وأطاعوا ، ولا عذر قوما زواها عنهم فعصوه[١] .

النهي عن اتباع الشهوات والإسراف في الملذات :

إنما يكره الإسلام اتباع شهوة البطن ، والاستسلام لها ، كما يكره السَّرف والامتلاء إلى حدِّ التُّخَمَة .

قال تعالى : ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾(الأعراف: ٣١).

وقال ﷺ : « ما ملأ آدميٌّ وعاءً شرًّا من بطنه ، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صُلْبه ، فإن كان لا محالة ، فثلث لطعامه ، وثُلث لشرابه ، وثُلث لنفسه »[٢].

وقال : « كلوا واشربوا وتصدقوا ، ما لم يخالطه إسراف ولا مخيلة »[٣].

---

(١) انظر : الكشاف للزمخشري (١/٦٤٠) ، دار المعرفة ، بيروت .

(٢) رواه أحمد (١٧١٨٦) ، وقال مخرِّجوه : رجاله ثقات ، غير أن يحيى بن جابر الطائي تكلموا في سماعه من المقدام ، والترمذي في الزهد (٢٣٨٠) ، وقال : حسن صحيح ، وابن حبان في الرقائق (٦٧٤) ، وقال الأرناؤوط : إسناده صحيح على شرط مسلم ، والحاكم في الأطعمة (٤/١٢١) ، وسكت عنه ، وصحَّحه الذهبي ، والبيهقي في الشعب باب المطاعم والمشارب (٥٦٥٠) ، عن المقدام بن معديكرب ، وصحَّحه الألباني في الصحيحة ، ونقل تصحيح الحاكم (٢٢٦٥) .

(٣) رواه أحمد (٦٦٩٥) ، وقال مخرِّجوه : إسناده حسن ، والنسائي في الزكاة (٢٥٥٩) ، وابن ماجه في اللباس (٣٦٠٥)، وابن أبي شيبة في العقيقة (٢٥٣٧٤)، والحاكم في الأطعمة (٤/١٣٥)، وصححه على شرط مسلم ، وقال الذهبي : سويد بن عبد العزيز متروك ، عن عبد الله بن عمرو.

وعن ابن عمر : تجشَّأ رجل عند النبي ﷺ فقال : « كُفَّ عنا جُشَاءك ، فإن أكثرهم شِبَعًا في الدنيا ، أطولهم جوعًا يوم القيامة »[1]. والجشاء أو التجشُّؤ : تنفس المعدة من كثرة الأكل .

حاجة الأمة إلى التقشُّف من أجل الجهاد والأعمال الإنسانية الكبرى:

وما أحوج الأمم إلى هذا المبدأ ، حين تأخذ نفسها بالتقشُّف من أجل جهاد واجب ، أو أعمال إنسانية كبرى ، وقد ضاق عمر بن عبد العزيز بمَن يحبُّون أن يتناولوا كلَّ ما يشتهون ، فقال : أو كل ما اشتهيتم اشتريتم؟

وفي مثل هذا ما يرويه جابر بن عبد الله الأنصارى قال : لقينى عمر بن الخطاب وقد ابتعتُ لحمًا بدرهم ، فقال : ما هذا ، يا جابر؟ قلتُ : قرم أهلى ـ اشتدَّت شهوتهم للحم ـ فابتعتُ لحمًا بدرهم ، فَجَعل عمر يُردِّد : قرم أهلى . . . حتى تمنَّيتُ أن الدرهم سقط منى ، ولم ألقَ عمر[2].

إنَّ عمر لم يُرِد تحريم ما أحلَّ الله ، ولكن أراد أن يأخذ الأمة ، وبخاصة المكانة فيها كجابر ، بنوع من التربية النفسية ، يعلون فيه على الاستسلام للشهوات ، فلا يشترون كلَّ ما يشتهون .

ويكون اتباع هذا أوجب في البلاد التي تضيق مواردها الطبيعية ، ولا يستطيع الرجل العادي والفقير أن يأخذ حظَّه من طيبات الحياة ، إذا لم يَدَع له الموسرون والقادرون مكانًا باختيارهم ، قناعةً منهم وإيثارًا . وهذا يفسِّر لنا قول عائشة : ما شبع رسول الله ﷺ ، ثلاثة أيام من خبز الشعير[3].

---

(١) رواه الترمذي في صفة القيامة (٢٤٧٨) ، وقال : حسن غريب ، وابن ماجه في الأطعمة (٣٣٥٠) ، والطبراني في الأوسط (٤١٠٩) ، والبيهقي في الشعب باب المطاعم والمشارب (٥٦٤٦) ، عن ابن عمر ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد : رواه الطبراني في الأوسط والكبير بأسانيد وفي أحد أسانيد الكبير محمد بن خالد الكوفي ولم أعرفه وبقية رجاله ثقات (٣٤/٥) ، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٠١٥) .

(٢) رواه البيهقي في الشعب باب المطاعم والمشارب (٥٦٧٣) ، وحسنه الألباني لغيره في صحيح الترغيب (٢١٤٤) .

(٣) رواه مسلم (٢٩٧٠)، والترمذي (٢٣٥٧)، كلاهما في الزهد ، وابن ماجه في الأطعمة (٣٣٤٦)، عن عائشة .

وما رُوي أن عمر قال لجابر ومعه اللحم : أما يريد أحدكم أن يطوي بطنه لجاره وابن عمه ، فأين تذهب عنكم هذه الآية : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ﴾ (الأحقاف: ٢٠)[١] .

محاربة الإسلام للترف والنعومة والإفراط في الشِّبَع :

إنَّ الإسلام يبيح التمتُّع بالطيبات ، ولكنه يحارب الترف والنعومة ، عن معاذ ﷺ ، أن رسول الله ﷺ ، لما بعثه إلى اليمن ، قال له : « إياك والتنعُّم ، فإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين »[٢] .

إنَّ الإفراط في الشبع يؤدي إلى السِّمَن الذي كرهه رسول الله ﷺ ، وذمَّ أصحابه ، وقد أخبر أنَّ بعد القرون الأولى ، يأتي قوم « يخونون ولا يؤتمنون ، ويشهدون ولا يُستشهدون ، وينذرون ولا يَفُون ، ويظهر فيهم السِّمَن »[٣] ، فالسمنة حَمْلٌ ثقيل على صاحبه ، وقَيْدٌ معطِّل عن النشاط ، ومرضٌ تقصر به الأعمار .

رأى النبيُّ ﷺ رجلاً عظيم البطن ، فقال بأصبعه ، مشيراً إلى بطنه : « لو كان هذا في غير هذا لكان خيراً لك »[٤] .

وهذا معنى ما قيل : إنَّ أول بلاء حدث في هذه الأمة بعد نبيها الشِّبَع . يعني الإفراط فيه ، فإنَّ القوم لما شبعت بطونهم ، سمنت أبدانهم ، فضعفت قلوبهم ، وجمحت شهواتهم .

---

(١) رواه مالك في صفة النبي (١٦٧٤) ، والحاكم في التفسير (٤٥٥/٢) شاهداً ، وقال الذهبي : القاسم ـ أحد الرواة ـ واه ، والبيهقي في الشعب باب المطاعم والمشارب (٥٦٧٢) ، عن عمر .

(٢) سبق تخريجه صـ ٢٢٨ .

(٣) متفق عليه : رواه البخاري في الشهادات (٢٦٥١) ، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٥٣٥) ، كما رواه أحمد (١٩٨٣٥) ، والنسائي في الأيمان والنذور (٣٨٠٩) ، عن عمران بن حصين .

(٤) رواه أحمد (١٥٨٦٨) ، وقال مخرِّجوه : إسناده ضعيف ، والطبراني (٢٨٤/٢) ، والحاكم في الأطعمة (١٢٢/٤) ، وصحَّح إسناده ، ووافقه الذهبي ، والبيهقي في الشعب باب المطاعم والمشارب (٥٦٦٦) ، عن جعدة الجشمي ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد : رواه أحمد والطبراني باختصار ورجاله رجال الصحيح غير أبي إسرائيل الجشمي وهو ثقة (٤١٥/٨) .

ورحم الله الحافظ المنذري ، فحين أورد هذه الأحاديث في كتابه (الترهيب والترغيب) جعل عنوانها : (الترهيب من الإمعان في الشِّبَع ، والتوسُّع في المآكل والمشارب شَرَهًا وبَطَرًا) .

ونزيد على ذلك : إنَّ هذا المنهج (الرهباني) لا يتربَّى به مؤمن قوي ، ولا يصلُح به مجتمع متحضِّر ، ولا تُبنى عليه أمة ذات رسالة عالمية ، وهو أبعد ما يكون عن منهج (الأمة الوسط)، التي جمعت بين الدنيا والآخرة ، ومزجت بين الرُّوح والمادة ، ووصلت العقل بالقلب ، وواءمت بين الحقوق والواجبات ، وربطت بين العلم والإيمان .

يمكن أن تقوم عليه طائفة من الناس ، منعزلة عن الحياة ، منقطعة عن العالم وما يجري فيه ، بعيدة عن هموم الأمة وقضاياها وصراعاتها مع أعدائها الذين يكيدون لها ، ويتربصون بها الدوائر .

ثانيًا : زهد العصور الماضية لا يصلح لعصرنا :

ومن المهم هنا أن نؤكد أنَّ الصور التفصيلية لحياة الزهد والزهَّاد في الأزمنة الماضية ، لم تعد تصلح للتطبيق في عصرنا ، وإذا كنا نحن نقول في أحكام الفقه العام ، في شؤون الأفراد والأمة والمجتمع : إن الفتوى تتغيَّر بتغيُّر الزمان والمكان والحال والعُرْف وغيرها ، فنحن أيضًا نقول مثل هذا في (فقه السلوك) ، فالإنسان ابن زمانه ومكانه وبيئته ، شاء أم أبى .

ولا يمكن لإنسان مهما يكن مكانه في الصلاح والتقوى ، أو في الزهد والإعراض عن الدنيا ، أن يتخلَّى عن عصره وبيئته تخلِّيا مطلقًا ، ولذا وجدنا أيوب السختياني يطوِّل قميصه حتى يقع على قدميه ، ويقول : كانت الشهرة في التطويل واليوم الشهرة في التقصير[1] .

ومن هنا نجد بعض ما ذُكر عن الزهَّاد والصوفية في الأزمنة الماضية ـ ربما قبل منهم ، وربما مُدحوا به ـ لا يمكن أن يقبل بحذافيره اليوم ، فما ذكره الإمام الغزالي في كتابه (كسر الشهوتين) في ربع المهلكات من الإحياء ، أو كتاب (الفقر والزهد)

---

(١) صيد الخاطر لابن الجوزي صـ٢١٩، تحقيق الشيخ محمد الغزالي ، دار الكتب الإسلامية ، القاهرة، الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م .

من ربع المنجيات ، من تقليل المطاعم والمشارب ، أو التقشف في الملابس أو البيوت والمساكن ، لم يعد اليوم مُسْتساغا ولا مرضيًا بمنطق العصر ، وفي ضوء معارف العصر ، وتقنيات العصر ، وضروريات العصر .

وفي الحديث : « إنَّ الله عزَّ وجلَّ يحبُّ أن يرى أثر نعمته على عبده»[١] ، في مأكله ومشربه ، وملبسه ومسكنه . ولهذا كان بكر بن عبد الله يقول : مَن أُعطي خيرًا فرُئي عليه أثره ، سُمِّي حبيب الله ، مُحدِّثا بنعمة الله عزَّ وجلَّ ، ومَن أُعطي خيرًا فلم يُرَ عليه ، سُمِّي بغيض الله ، معاديًا لنعمة الله عزَّ وجلَّ[٢].

مواصفات الطعام الصحِّي اللازم للإنسان :

إنَّ (الطعام الصحي) الذي يمنح الإنسان الوقود اللازم لتشغيل الماكنة ، والقيام بالدور المطلوب منه ، والذي يقي الإنسان من الأمراض وسوء التغذية ، له مواصفات أصبحت معروفة لجماهير الناس ، فلا بد أن يتضمَّن عناصر متوازنة من البروتينات والدهنيات والكربوهيدرات (النشويات والسكريات) والأملاح والمعادن والفيتامينات ، وغياب عنصر من هذه العناصر بصفة دائمة أو غالبة ، يعرِّض صاحبه للآفات ، ويُلقي به إلى التهلكة ، ويوقعه في الضرر ، ومن المعروف أن الإسلام يحافظ على أبدان الناس وصحَّتهم وحياتهم ، وقد قال رسول الله ﷺ : « إن لجسدك عليك حقًّا »[٣].

وكان عليه السلام يتخيَّر الماء الصافي ، ويُسْتعذَب له الماء ، ويُحبُّ الحُلوَ البارد ، حتى إنه ليقول في دعائه لربِّه ومناجاته له : « اللهمَّ اجعل حُبَّك أحبُّ إليَّ من نفسي وأهلي ، ومن الماء البارد »[٤].

---

(١) رواه والترمذي في الأدب (٢٨١٩) ، وحسنه ، والطيالسي (٢٣٧٥) ، والحاكم في الأطعمة (١٣٥/٤)، وصحح إسناده ، ووافقه الذهبي ، والبيهقي في الشعب باب الملابس والزي (٦١٩٦) ، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (٢٢٦٠) ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في الشكر (٥٤) ، وفي العيال (٣٦٤) ، يرفعه ، وهو مرسل .

(٣) متفق عليه : رواه البخاري (١٩٧٥) ، ومسلم (١١٥٩) ، كلاهما في الصوم ، كما رواه أحمد (٦٨٦٧) ، والنسائي في الصيام (٢٣٩١) ، عن عبد الله بن عمرو .

(٤) رواه الترمذي في الدعوات (٣٤٩٠) ، وقال : حسن غريب ، والحاكم في التفسير (٤٣٣/٢) ، وصحح إسناده ، وقال الذهبي : بل عبد الله بن يزيد الدمشقي هذا قال أحمد : أحاديثه موضوعة ، عن أبي الدرداء .

روى البخاري ، عن جابر بن عبد الله ، أنَّ رسول الله ﷺ ، أتى قومًا من الأنصار يعود مريضًا فاستسقى ـ طلب أن يشرب ـ وجدول قريب منه ، فقال : « إن كان عندكم ماء بات في شنة وإلا كرعنا »[1] .

وروي عن عائشة ، أن النبيَّ ﷺ ، كان يُستقَى له الماء العذب من بئر السقيا[2] .

ضرورة المحافظة على النفس :

وقرَّر الفقهاء والأصوليون من علماء الإسلام : أنَّ المحافظة على النفس (أي : الحياة والصحَّة) من الضروريات الخمس ، التي اتَّفقت على حفظها كلُّ الشرائع السماوية ، ولا سيما الإسلام .

قاعدة : لا ضرر ولا ضرار :

كما أنَّ من القواعد الشرعيَّة القطعيَّة المُتَّفق عليها ، قاعدة :(لا ضَرَر ولا ضرار). أي : لا يجوز للإنسان أن يُضِرَّ نفسه ، ولا أن يُضَارَّ غيره ، ولا رَيْب أن تناول الطعام غير الصحِّي باستمرار ، سواء من ناحية جنسه ، أو من ناحية قدره وكميته ، ضارٌّ بالإنسان ، ويُسبِّب الأمراض ، بشهادة وإجماع علماء الطب ، وعلماء الصحَّة ، وعلماء التغذية ، وبشهادة الواقع الذي يلمسه جمهور الخلق .

إنَّ بدن الإنسان هو مطيَّته التي يستخدمها للوصول إلى مقاصده الدينية والدنيوية ، ولهذه المطيَّة عليه حقٌّ : أن يُطعمها إذا جاعت ، ويَسقيها إذا عطشت ، ويُنظِّفها إذا اتَّسخت ، ويُريحها إذا تعبت ، ويُداويها إذا مرضت ، حتى يمكنها الاستمرار في حمله وتوصيله إلى حيث يريد .

---

(١) رواه البخاري في الأشربة (٥٦١٣) ، وأحمد (١٤٥١٩) ، وأبو داود (٣٧٢٤) ، وابن ماجه (٣٤٣٢) ، كلاهما في الأشربة ، عن جابر .

(٢) رواه أبو داود في الأشربة (٣٧٣٥) ، وأبو يعلى (٤٦١٣) ، وابن حبان في الأشربة (٥٣٣٢) ، وقال الأرناؤوط : إسناده قوي ، والبيهقي في الشعب باب المطاعم والمشارب (٦٠٣٣) ، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٣١٧٨) .

اختلافات الأذواق والتَّوجُّهات :

على أن لكلِّ عصر ، ولكل بلد ذوقه وتوجُّهه في المآكل والمشارب والملابس ، والمساكن والأثاث وغيرها ، والناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم ، كما قال عليٌّ رضي الله عنه ، وكذلك يقال في البيئة .

فلا يستطيع أحد أن يلبس في عصرنا (المُرقَّعات) التي كان يلبسها الصوفية فيما مضى ، ولا يستطيع أحد أن يلبس الثياب الرديئة التي تُزْري بمكانته بين الناس ، ولا أن يخرج عن السائد في المجتمع ، وإذا خرج عن هذا كان ثوبه ثوب شهرة ، وهو مذموم شرعًا ، كما جاء في الحديث : «مَن لبس ثوب شهرة في الدنيا ، ألبسه الله ثوب مذلَّة»[1].

ارتقاء نوع اللباس في عصرنا :

وقد ارتقى نوع اللباس في عصرنا في العالم كلِّه بالنسبة للعصور الماضية ، بمناسبة ارتقاء صناعة الغزل والنسج والخياطة والتطريز ، بحيث أن ما كان ترفًا في الماضي ، أصبح شيئًا عاديًا اليوم ، وغدا يلبسه الفقراء والفئة الدنيا من الناس اليوم ، فهذه أحوال تتغيَّر وتتطوَّر بتغيُّر الزمان والمكان والحال ، ولاسيما في زمن (العَوْلَمة) ، حيث تقارب العالم وتداخل ، حتى أصبح كأنه قرية واحدة .

كل لباس فيه شهرة فهو مكروه :

قال العلامة ابن الجوزي : (وكان في الصوفية مَن يجعل على رأسه خرقة مكان العمامة ، وهو أيضًا شُهرة ، لأنه على خلاف لباس أهل البلد ، وكلُّ ما فيه شهرة فهو مكروه .

قال بشر بن الحارث : إنَّ ابن المبارك دخل المسجد يوم جمعة ، وعليه قلنسوة ، فنظر إلى الناس ليس عليهم قلانس ، فأخذها فوضعها في كمِّه)[2].

البيوت السكنية في عصرنا :

والبيوت السكنية ، أو ما يُسمُّونه (الشقق السكنية) لم يعد الإنسان حُرًّا في أن يبنيها من اللبن ، أو ينشئ له خصًّا في مدينة أو قرية ، فإنَّ للبناء قواعدَ وتراخيصَ

---

(١) سبق تخريجه صـ ٢٢٠ .

(٢) تلبيس إبليس صـ ٢٥٣ .

والتزاماتٍ لا بد من مراعاتها ، حتى لا يتشوَّه منظر المدينة أو القرية ، وحتى لا تتعرَّض الأبنية لخطر الانهيار ، فيتضرَّر ما حولها ومَن حولها .

العناية بالأسرة والأولاد في مسكنهم وتعليمهم :

على أنَّ الزاهد أو الصوفي إذا بنى فهو لا يبني لنفسه فقط ، بل يبني لأسرته وأولاده ، وهم ليسوا ملزمين بأن يعيشوا على طريقته في الزهد في الفضول والمباحات ، وقد قال أبو سليمان الداراني : لا ينبغي للرجل أن يرهق أهله إلى الزهد ، بل يدعوهم إليه ، فإن أجابوا وإلا تركهم ، وفعل بنفسه ماشاء .

قال الغزالي : (معناه : أن التضييق المشروط على الزاهد يخصُّه ، ولا يلزمه كلُّ ذلك في عياله ، ثم لا ينبغي أن يُجيبهم فيما يخرج عن حدِّ الاعتدال)[1] .

وإذا كان هؤلاء الأولاد في سنِّ التعليم ، فيجب عليه أن يُوفِّر لهم ما يحتاجون إليه في تعليمهم من التوصيل إلى المدارس ، ومن شراء الكتب والأدوات المدرسية ، ومن دفع الرسوم إن كانت مطلوبة ، وغير ذلك من كلِّ ما يُطلب لأمثالهم من البنين والبنات ، ولا يجوز له أن يُهملهم بدعوى الزهد ، ويحرمهم من حقِّهم في التعليم ، الذي يناله زملاؤهم ورفقاؤهم ، ويتأكَّد ذلك إذا كانوا نوابغ يمكن أن تستفيد الأمة من نبوغهم ونجابتهم ، في علوم الدين أو علوم الدنيا .

ومعلوم أنَّ المسكن الذي فيه أبناء وبنات يتعلَّمون لا بد أن تكون له مواصفات خاصَّة ، من حيث سَعَته ، ومن حيث الأثاث ، والحديث يقول في شأن الأولاد : « فرِّقوا بينهم في المضاجع »[2] ، إذا بلغوا عشر سنين ، وهنا ينبغي أن يكون للذكور حُجَرهم ، وللإناث حجرهم ، كما ينبغي أن تزوَّد حُجَرهم بالإضاءة الكافية ، والأثاث المعين على القراءة والكتابة ، وفي الحديث الصحيح : « فراش للرجل ،

---

(١) الإحياء (٤/٢٣٩) .

(٢) رواه أحمد (٦٧٥٦) ، وقال مخرجوه : إسناده حسن ، وأبو داود في الصلاة (٤٩٥) ، والحاكم في الصلاة (١/١٩٧)، والدارقطني في الصلاة (١/٢٣٠)، والبيهقي في الكبرى (٢/٢٢٨)، عن عبد الله ابن عمرو ، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٤٦٦) .

وفراش لامرأته ، والثالث للضيف ، والرابع للشيطان»[1] ، وهذا في حالة ما لم يكن له ولد ، وإلا احتاج إلى فُرُش أخرى بقدر ما عنده من أولاد .

ثالثًا : انتقاد منهج الإمام الغزالي :

ومنهج الإمام أبي حامد الغزالي في (الإحياء) منتقد من وجهين :

غلوُّ الصوفية وشطحاتهم :

١- من جهة غلوِّ الصوفيَّة وشطحاتهم وتجاوزاتهم في بعض الأحيان ، استغراقًا في التعبُّد لله تعالى ، وحُبِّ التقرُّب إليه ، من غير استناد إلى أصل شرعي ، وهذا هو أساس الابتداع في الدين ، وما دفعهم إلى أن يشرعوا في دينهم ما لم يأذن به الله تعالى ، من التقرُّب بالمُحْدَثات ، والغلو في التعبُّدات ، وهو أساس ابتداع النصارى للرهبانية ، وما صحبها ولازمها من القسوة على النفس والغير ، حينها كانوا يفرُّون من ظلِّ المرأة ، ولو كانت أما أو أختا ، وكانوا يتقرَّبون إلى الله بعدم الطهارة .

الاستدلال بالأحاديث الواهية :

٢- اعتماد الإمام الغزالي رحمه الله تعالى في كثير من استدلالاته على الأحاديث الضعيفة ، بل الضعيفة جدًّا ، والمنكرة والواهية ، بل الموضوعة المكذوبة على رسول الله ﷺ ، وكذلك ما لا أصل له ولا سند في دواوين الحديث .

وربما اعتذر بعضهم للغزالي : أنَّ الأحاديث الضعيفة هنا ، لا يُؤْخَذُ منها أحكام في الحلال والحرام ، بل في فضائل الأعمال ، والترغيب والترهيب ، ولذا تساهلوا فيه ، وأجازوا رواية الضعيف في خصوصه .

ونسَوا أن الضعيف في هذا المقام ، يؤسِّس موقف الإسلام من الدنيا ، أو من المال ، أو من المرأة ، أو من العزلة وعدمها ، وهذا لا يقلُّ عن أحكام الحلال والحرام ، بل هو أشدُّ خطرا منها .

---

(١) رواه مسلم في اللباس والزينة (٢٠٨٤) ، وأحمد (١٤١٢٤) ، وأبو داود في اللباس (٤١٤٢) ، والنسائي في النكاح (٣٣٨٥) ، عن جابر بن عبد الله .

شروط رواية الحديث الضعيف :

ثم إنَّ الضعيف ـ ولو كان في مجال الرقائق ـ لـه شـروط حـدَّدها العلمـاء حتـى تجوز روايته ، منها :

١- أن لا يشتدَّ ضعفه .

٢- وأن يكون الأمر الذي يُسْتَشْهد به فيه مندرجًا تحت أمر كُلِّيٍّ ثابت بأدلَّة الشـرع الأخرى .

٣- وأن لا يعتقد صحَّته ، بل يعتقد الاحتياط .

ولكن كثيراً من الأحاديث التي يوردها الغزالي لا تستوفي هذه الشروط ، فكـثيراً ما تكون ضعيفة جدًّا ، أو لا أصل لها بالمرَّة ، أو مكذوبة على رسول الله ﷺ ، كمـا بـيَّن ذلـك الإمـام الحـافظ زيـن الـدين العراقـي (ت٨٠٤) ، في تخريجـه لأحاديـث الإحياء .

كثرة ما أورده الغزالي من أحاديث باطلة :

لنأخذ مثلاً مما ذكره أبو حامد الغزالي رحمه الله ، في كتـاب (كسـر الشـهوتين) في بيان فضيلة الجوع وذمِّ الشبع ، وما ذكره فيه مـن أحاديـث ، فقـد ذكـر في هـذا الفصل ثلاثة وعشرين حـديثًا ، لـم يصحَّ منـهـا إلا ثـلاثـة أحاديـث ، والباقـي إمـا لا أصل له بالكلية ، مثل الأحاديث السبعة التي بدأ بها هذا الموضـوع ، فكلُّهـا قـال فيها الحافظ العراقي : لم أجد له أصلاً . وكذلك خمسة أحاديث أخرى لم يجد لهـا العراقـي أصـلاً ، والأحاديـث الأخـرى ، واحـد منهـا رواه ابـن الجـوزي في (الموضوعات) ، والأخرى بأسانيد ضعيفة ، فكيف يُبنى على ذلك حكم أو موقـف ديني؟!

وما كنا نحبُّ للإمام أبي حامد رحمه الله ، الـذي ردَّ علـى الفلاسـفة المنـاطحين للـدين فـأفحمهم ، وردَّ علـى الباطنيـة المنـافقين ففضـحهم ، وردَّ علـى المعتزلـة فأسكتهم ، وصنَّف في الفقه وأصوله : أن يقع فيما وقع فيـه ، ولكـن لـنعلم أنَّ كـلَّ عالم ـ وإن علا كعبه ـ يُؤْخَذُ من كلامه ويُتْرك إلا النبي ﷺ .

ومما انتُقد على الإمام الغزالي : أنه لم يلتفت كثيراً إلى السنة الثابتة ، والأحاديث الصحيحة التي تخالف ما دعا إليه ، من المبالغة في التقشُّف والتبذُّل والحرمان .

النظريَّة الوسطيَّة عند الإمام الغزالي :

على أننا نجد أبا حامد رحمه الله كثيراً ما يرجع إلى المنهج الوسط ، ويعلن في عدد من كتبه ، منها (الإحياء) نفسه : أن المقصود بالشريعة هو (الوسط) ، وكثيراً ما يشرح ذلك بعبارته البليغة فيُحسن الشرح ، ويردُّ على الغُلاة فيتقن الردَّ .

وقد نقلنا عنه في كتابنا (فقه الوسطية والتجديد) نقولاً جمَّة ، تدلُّ على أن انتصاره رحمة الله عليه كان للوسطيَّة المتوازنة التي جاء بها الإسلام في قرآنه وسنة نبيِّه ، ولهذا يجب أن يُضمَّ كلامه بعضه إلى بعض .

أكتفي من ذلك ببعض ما نقلناه عنه ـ رحمه الله تعالى ـ في كتابنا المذكور .

الوسطيَّة في رياضة الطبائع :

ومن ذلك : ما أورده في (الإحياء) في معرض مناقشته لمَن زعم أن الأخلاق لا تقبل التغيير بطريق الرياضة ، استناداً إلى أنَّ (الآدمي ما دام حيًّا فلا تنقطع عنه الشهوة والغضب وحبُّ الدنيا وسائر هذه الأخلاق)[1] .

ولكن الغزالي يُخطِّئ هذه النظرة ، ويردُّها بمنطق قويّ ، قائلاً : (فهذا غلط وقع لطائفة ظنُّوا أن المقصود من المجاهدة قمع هذه الصفات بالكليَّة ومحوها ، وهيهات ! فإنَّ الشهوة خُلقت لفائدة ، وهي ضرورية في الجبلَّة ، فلو انقطعت شهوة الطعام لهلك الإنسان ، ولو انقطعت شهوة الوقاع لانقطع النسل ، ولو انعدم الغضب بالكليَّة لم يدفع الإنسان عن نفسه ما يهلكه ولهلك . ومهما بقي أصل الشهوة فيبقى لا محالة حبُّ المال الذي يوصِّله إلى الشهوة ، حتى يحمله ذلك على إمساك المال . وليس المطلوب إماطة ذلك بالكلية ، بل المطلوب ردها إلى الاعتدال ، الذي هو وسط بين الإفراط والتفريط)[2] اهـ .

---

(١) الإحياء ، كتاب رياضة النفس (٣/٥٦) .

(٢) المصدر السابق (٣/٥٧) .

الوسطيَّة في الأخلاق :

وقد ظلَّ الإمام الغزالي على هذا النهج ، لا يحيد عنه ، ولا يفرِّط فيه ، حتى في كتبه الفلسفية ، وفي مقدِّمتها : (تهافت الفلاسفة) ، الذي قال فيه : (فقد ورد الشرع في الأخلاق بالتوسُّط بين كلِّ طرفين . . . فلا ينبغي أن يبالغ في إمساك المال فيستحكم فيه الحرص على المال ، ولا في الإنفاق فيكون مبذِّرًا ، ولا أن يكون ممتنعًا عن كلِّ الأمور فيكون جبانًا ، ولا منهمكًا في كلِّ أمر فيكون متهوِّرًا ، بل يطلب الجود ، فإنه الوسط بين البخل والتبذير ، والشجاعة ، فإنها الوسط بين الجبن والتهوُّر ، وكذا في جميع الأخلاق ، وعلم الأخلاق طويل ، والشريعة بالغت في تفصيلها)[1] .

ويشرح الغزالي ذلك شرحًا رائعًا في كتاب آخر من كتب الإحياء (كسر الشهوتين) شرح المُربِّي العالم بطبائع النفس البشريَّة ، فيقول : (اعلم أنَّ المطلوب الأقصى في جميع الأمور والأخلاق : الوسط ؛ إذ خير الأمور أوساطها ، وكلا طرفي قصد الأمور ذميم . وما أوردناه في فضائل الجوع ربما يُومئ إلى أن الإفراط فيه مطلوب ، وهيهات ، ولكن من أسرار حكمة الشريعة : أن كلَّ ما يطلب الطبع فيه الطرف الأقصى ، وكان فيه فساد ، جاء الشرع بالمبالغة في المنع منه ، على وجه يُومئ عند الجاهل إلى أنَّ المطلوب مضادَّة ما يقتضيه الطبع بغاية الإمكان ، والعالم يدرك أن المقصود الوسط ؛ لأن الطبع إذا طلب غاية الشبع ، فالشرع ينبغي أن يمدح غاية الجوع ، حتى يكون الطبع باعثًا والشرع مانعًا ، فيتقاومان ويحصل الاعتدال ، فإن مَن يقدر على قمع الطبع بالكليَّة بعيد ، فيعلم أنه لا ينتهي إلى الغاية ، فإنه إن أسرف مسْرف في مُضَادَّة الطبع كان في الشرع أيضًا ما يدلُّ على إساءته ، كما أن الشرع بالغ في الثناء على قيام الليل وصيام النهار ، ثم لما عَلِم النبي ﷺ من حال بعضهم أنه يصوم الدهر كلَّه ، ويقوم الليل كلَّه نهى عنه ...)[2] . يشير إلى موقفه من عبد الله بن عمرو[3] ، وغيره من الصحابة .

---

(١) تهافت الفلاسفة صـ٢٨٦ ، و(تهافت الفلاسفة) يعدُّ من الكتب الفلسفية ، وإن كان يردُّ على الفلاسفة ويبطل مقولاتهم ، ولكنه يردُّ عليهم بمنطق الفلسفة نفسه .

(٢) الإحياء (٣/٩٦) .

(٣) إشارة إلى حديث «يا عبدالله بن عمرو بلغني أنك تصوم النهار ..» وقد سبق تخريجه صـ٢٤٨.

أصناف الناس بالنسبة إلى الصِّراط المستقيم :

ومما يؤكِّد النظرية (الوسطية) عند الإمام الغزالي : ما بيَّنه من تصنيفه الناس بالنسبة للصراط المستقيم إلى ثلاثة أصناف :

صنفٌ منهمكون في الدنيا دون التفات إلى العُقْبى ، وهذا طريق قد ذمَّه الشرع ، وهو مُهلك .

وصنف تَجَرَّدوا للعبادة والإقبال على الآخرة ، (أي إهمال أمر الدنيا تمامًا) ، فهذا أيضًا قد ورد في الشرع ما يدلُّ على إساءته ، كما يشير إلى ذلك كلام الغزالي المذكور آنفًا .

وصنف ثالث : متوسِّطون وفَّوا الدارين حقَّهما ، وهم الأفضلون عند المحقِّقين ؛ لأن بهم قوام أسباب الدنيا والآخرة ، ومنهم عامة الأنبياء عليهم السلام ، إذ بعثهم الله لإقامة مصالح العباد في المعاش والمعاد)[1] .

وهؤلاء المتوسِّطون هم الذين ذكر القرآن دعاءهم في الحجِّ ، بقوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ (البقرة:٢٠١) ، فهم يدعون بالحَسَنتين ، وينشدون السعادتين في الدنيا والآخرة .

وقبلهم ذكر القرآن قومًا على سبيل الذمِّ ، فقال : ﴿ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴾ (البقرة:٢٠٠).

ولم يذكر القرآن الصنف الثالث ـ حسب القسمة العقلية ـ وهم الذين يقولون : ربنا آتنا في الآخرة حسنة ، وما لهم في الدنيا من خلاق! لأنه اعتبر هذا الصنف غير موجود ، أو لا ينبغي أن يكون موجودًا ؛ لأنه لا يوجد إنسان ليس له في الدنيا خلاق ولا نصيب ، وإلا كيف يعيش؟!

الاقتداء بالفرقة الناجية :

وتكملةً لمنهجه في الإصلاح والتربية والهداية إلى الصِّراط المستقيم ، حثَّ على الاقتداء بالفرقة الناجية ، وهم الصحابة ﷺ ، الذين (كانوا على النهج القصد ،

---

(١) ميزان العمل (١٥٨ ، ١٥٩) .

وعلى السبيل الواضح ؛ فإنهم ما كانوا يأخذون الدنيا للدنيا ، بل للدين ، وما كانوا يترهَّبون ويهجرون الدنيا بالكلية ، وما كان لهم في الأمور تفريط ولا إفراط ، بل كان أمرهم بين ذلك قوامًا ، وذلك هو العدل والوسط بين الطرفين ، وهو أحبُّ الأمور إلى الله تعالى)[1] .

التوازن بين الخوف والرجاء :

ومنها : استشعار التوازن بين الخوف والرجاء ، والرغبة والرهبة ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ (الأنبياء:٩٠) ، وقد فصَّل ذلك في كتاب (الخوف والرجاء) من الإحياء ، وفي عقبة (البواعث) في كتابه (منهاج العابدين)[2] .

رابعًا : الإسلام لا يعادي الحياة :

ومن المهم هنا كذلك : أن نعلن بكل جلاء : أنَّ الإسلام لا يعادي الحياة ، والقرآن ـ كتاب القرن ـ لا يعادي الحياة ، ومحمد ـ رسول الإسلام ـ لا يعادي الحياة ، بل معاداة الحياة هي النغمة السائدة في العالم قبل الإسلام ، كما يشهد بذلك تاريخ الأديان .

ماذا كان يسمع الناس من الأديان قبل الإسلام ورسول الإسلام ؟

العالم شرٌّ يجب التخلُّص منه ، فقلِّل من الطعام والشراب حتى نُسرع بفناء الفرد ، واطَّرح الزواج حتى نسرع بفناء النوع . هكذا كانت تقول المانوية الفارسية .

والجسد شرٌّ تجب مقاومته وتعذيبه حتى تنتصر الروح . هكذا تقول البرهمية الهندية .

لا يدخل الغنيُّ ملكوت السموات ، حتى يدخل الجمل في سَمِّ الخياط[3] . هكذا تقول المسيحية .

---

(١) الإحياء (٣/٢٣٠) .

(٢) منهاج العابدين (٦٢-٦٤)، وانظر : كتاب (الفكر المقاصدي عند الغزالي) للدكتور محمد عبده ، مبحث أن مصدر الشريعة الوسط (٨٩-٩٣) .

(٣) إنجيل متى (١٩/٢٣) .

الحياة قنطرة فاعبروها ولا تعمروها !

إذا رأيتَ الفقر مقبلاً ، فقُل : مرحبًا بشعار الصالحين ، وإذا رأيتَ الغنى مقبلاً ، فقُل : ذنب عُجِّلت عقوبته .

هكذا كان يسمع الناس من رجال الملل والنحل القديمة ، حتى رسخ في أذهان الكثيرين أن الدين دعوة إلى استدبار الحياة وتحريم طيباتها ، ونبذ مقوِّمات الغنى والقوَّة فيها .

دعوة الرسول ﷺ إلى الحياة :

وجاء رسول الإسلام فقلب هذه الموازين ، وغيَّر تلك الأفكار ، وكان دينه دعوة إلى الحياة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ (الأنفال: ٢٤).

أَفْهم المؤمنين أنَّ الحياة نعمة يجب أن تُغْتنم ، وليست عبئًا يجب أن يُلقى .

والعمل للحياة ليس رذيلة دينية ، ولا نقيصة رُوحية ، ولكنه عبادة في محراب كبير ، وجهاد مقدَّس في ميدانٍ حدودُه أرض الله الواسعة .

روى كعب بن عُجْرة رضي الله عنه قال : مرَّ على النبيِّ ﷺ رجلٌ ، فرأى أصحاب رسول الله من جَلَده ونشاطه ، فقالوا : يا رسول الله ، لو كان هذا في سبيل الله! (أي في الجهاد) فقال رسول الله ﷺ : « إن كان خرج يسعى على ولده صغارًا ، فهو في سبيل الله! وإن كان يسعى على أبوين شيخين كبيرين ، فهو في سبيل الله! وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفُّها ، فهو في سبيل الله! وإن كان خرج يسعى رياءً ومفاخرة ، فهو في سبيل الشيطان! »[1].

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (١٢٩/١٩) ، والأوسط (٦٨٣٤) ، والصغير (٩٤٠) ، عن كعب ابن عُجْرة ، وقال المنذري في الترغيب : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح (٣٣٥/٢) ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد : رواه الطبراني في الثلاثة (أي معاجمه الثلاثة) ، ورجال الكبير رجال الصحيح (٥٩٦/٤) .

ابتغاء فَضْل الله :

لقد خلع القرآن على طلب الرزق وصفًا عَذْبًا جميلاً ، هو (ابتغاء فضل الله) : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ (الجمعة:١٠) ، ﴿ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ (المزمل:٢٠)، ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ (البقرة:١٩٨) .

العالم دليل على خالقه :

والعالم ليس شرًّا يجب التخلُّص منه ، وإنما هو دليلٌ على خالقه ، وصورة ناطقة لعلمه وحكمته ، وكتابٌ مفتوح تقرأ فيه آثار عظمته ـ أو بعبارة أخرى : العالم كلماتُ الله الصامتة ، وكتابه المفتوح للقارئين والأميين ، يُتلى فيه آثار عظمته ، ونعمته ـ ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ (الطلاق:١٢)، ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الدخان:٣٨،٣٩)، ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (آل عمران:١٩٠).

هذا العالم علويه وسفليه ليس إلا ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾(النمل:٨٨)، ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾(السجدة:٧)، ﴿ ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾(طه:٥٠)، ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ (الفرقان:٢)، الله هو الذي أفرغ عليه وحدة جعلته ـ في أرضه وسمائه ، وجماده ونباته وحيوانه ـ كأجزاء الجسد الواحد ، تفاوتًا وتناسقًا وائتلافًا ، ﴿ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾ (الملك:٣) ، ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ﴾ (يس:٤٠) .

تسخير الكون لخدمة الإنسان :

ليس في الكون شيء خُلق جُزافًا ، ولا شيء خُلِقَ عبثًا ، وانما هُيِّئ كل شيء فيه ليؤدِّي دوره فيما أراد الله ، من عمارة الأرض ، واستمرار الحياة ، وخدمة هذا النوع

المُكرَّم من الخليقة (الإنسان) ، ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ (إبراهيم:٣٢-٣٤) . انظر كيف تكررت كلمة ﴿ لَّكُمْ ﴾ في هذا السياق خمس مرات ، ليبيِّن لهم أن منفعة المخاطبين المادية والمعنوية مقصودة من خالق السموات والأرض ، ومنزل الأمطار ، ومسخر الأنهار ، ومسخر الشمس والقمر والليل والنهار .

واقرأ قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ﴾ (الملك:١٥).

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ (يس:٣٣-٣٥).

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ (يونس:٥).

﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴾ (النبأ:٦-١٦).

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (القصص:٧١-٧٣) . هذا هو الكون كله ، علويه وسفليه مُسخَّر لخدمة الإنسان .

نظرة الإسلام إلى المال والغنى وطيب الحياة :

ولم يعد المال نقمة أو مصيبة من السماء لصاحبه ، ولكنه عدَّه خيرًا ، ﴿ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة:٢١٥)، ﴿ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى ﴾ (ص:٣٢) ، ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ (العاديات:٨) ، واعتبره قيام للناس وعصب الحياة : ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا ﴾ (النساء:٥) ، وجعل الغنى والنعمة وطيب الحياة من الأمور التي يمتنُّ الله بها على عباده ، ويذكرُه عبادُه بها شاكرين : ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ (الضحى:٨) ، ﴿ فَءَاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (الأنفال:٢٦) ، ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴾ (قريش:١-٤) ، رتَّب العبادة على الطعام والأمن ، فإن الجائع والخائف لا يستطيعان أن يعبدا الله حقًّا .

جعل الإسلام المال نعمة ، والحياة الطيبة نعمة يجزي الله بها عباده المؤمنين الحقيقيين المستقيمين : ﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴾ (الجن:١٦)، ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ (الأعراف:٩٦) ، ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ (المائدة:٦٦) ، ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴾ (نوح:١٠-١٢).

صحيح أنَّ العبادة مفروضة على المسلم لربِّه ، ولكن الغلو فيها ، وشغل الليل والنهار بها ، وهضم حقوق الحياة من أجلها : أمر يرفضه الإسلام ورسول الإسلام .

الحكمة من إخفاء وقت قيام الساعة :

صحيحٌ أنه أنذر بالساعة ، ونبَّه العقول والقلوب على الاستعداد لها ، وتهيئة الزاد للسفر إليها ، فقال تعالى : ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (المطففين:٤-٦)، ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ۝ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ﴾ (المزمل:١٧،١٨) ، ولكنه ـ لحكمة عالية ـ أخفى وقت قيام الساعة عن خلقه ، حتى لا يُعطِّلوا الحياة في انتظارها . وسئل الرسول ﷺ عنها ، فقال : «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»[1] . ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف:١٨٧).

عمارة الأرض حتى آخر لحظة في الحياة :

وهب أنَّ الساعة قامت فجأة وفي يد المسلم عمل من أعمال الحياة ، فهل يلقي ما في يده ، ويستقبل الآخرة ؟ يقول الرسول ﷺ : « إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة ، فإن استطاع ألا تقوم حتى يغرسها فَلْيغرسها»[2] . ولماذا يغرسها ، ولا أمل لأحد في الانتفاع بها؟ إنه إقرار سُنّة الله تعالى في عمارة الأرض ، والتعبد بالعمل فيها حتى آخر نَفَس تلفظه الحياة .

الصَّالحون لهم أموال وأولاد وتجارة :

وصحيح أنَّ القرآن قال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ (المنافقون:٩)، ووصف المؤمنين بأنهم : ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري (٥٠) ، ومسلم (٩) ، كلاهما في الإيمان ، كما رواه أحمد (٩٥٠١) ، وابن ماجه في المقدمة (٦٤) ، عن أبي هريرة .

(٢) رواه أحمد (١٢٩٨١) ، وقال مخرجوه : إسناده صحيح على شرط مسلم ، وعبد بن حميد (١٢١٦) ، والبخاري في الأدب المفرد كتاب البنيان (٤٧٩) ، عن أنس ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٤٢٤) .

وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ (النور:٣٧) ، ولكن افترض أن يكون عباده الصالحون لهم أموال وأولاد وتجارة وبيع ، بَيْد أنها لا تُلهيهم عن القيام بما أوجب الله .

فضيلة الطُّموح الموجَّه إلى الخير :

والطموح ليس شيئًا ممقوتًا ، ولكنه فضيلة إذا وُجِّه إلى الخير ، كطموح سليمان للملك : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ (ص:٣٥) .

وطلب يوسف لوزارة المالية والاقتصاد : ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ (يوسف:٥٥).

ودعاء عباد الرحمن بالإمامة في الدين : ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ (الفرقان:٧٤).

غلاة الصوفية لم يُراعُوا شأنَ الأمة :

كما أنَّ من عيوب النظرة الصوفية المتشدِّدة في الزهد : أنها أغفلت جانب (الأمة) التي يريد أن يؤسِّسها الإسلام ، وهي أمة ذات رسالة دينية وعمرانية وحضارية ، أمة تتميَّز عن الأمم بأنها تجمع بين الدين والدنيا ، وتمزج بين الروح والمادة ، فهي أمة وسط ، ومن شأنها أن تقيم حضارة أو مدنية تجمع بين العلم والإيمان ، وبين السموِّ الروحي والأخلاقي والإبداع المادي والعمراني . وهو ما حدثنا عنه التاريخ .

مقارنة (دريبر) الأمريكي بين مدنية أوروبا ومدنية العرب :

وهو ما اعترف به مؤرخو الغرب أنفسهم ، أمثال (غوستاف لوبون) الفرنسي ، و(دريبر) الأمريكي ، الأستاذ بجامعة هارفارد الأمريكية ، في كتابه (المنازعة بين العلم والدين) ، قال في المقارنة بين مدنيَّة أوربا في ذلك العهد ومدنيَّة العرب :

(إنَّ أوربا في ذلك العهد ـ عهد مَدَنيَّة العرب ـ كانت غاصَّة بالغابات الكثيفة من إهمال الناس للزراعة ، وكانت المستنقعات قد كثُرت حوالي المدائن ، فكانت تنتشر منها روائح قتَّالة اجتاحت الناس وأكلتهم ولا مغيث لهم .

وكانت البيوت في باريس ولوندرة تُبنى من الخشب والطين المعجون بالقشِّ والقصب ، ولم يكن بها نوافذ ولا أرضيات خشبية ، أما الأبسطة فكانت مجهولة لديهم ، وكان يقوم مقامها القش ، ينشرونه على الأرض ، ولم يكونوا يعرفون المداخن ، فكان الدخان يطوف البيوت ، ثم يتسرَّب من ثقب صنعوه له في السقف ، فكان الناس في هذه البيوت مُعرَّضين لكلِّ ضروب الإصابات الخطيرة ، وكان الناس لا يعرفون معنى النظافة ، فيلقون بأحشاء الحيوانات ، وأقذار المطابخ أمام بيوتهم أكوامًا وأكداسًا ، تتصاعد منها روائح قاتله ، ولا رقيب ولا حسيب ، وكانت الأسرة الواحدة تنام في حجرة واحدة ، من رجال ونساء وأطفال ، وكثيرًا ما كانوا يؤوون معهم الحيوانات المنزلية .

وكان السرير عندهم عبارة عن كيس من القشِّ فوقه كيس من الصوف كمخدَّة ، وكانت النظافة معدومة لديهم لا يعرفون لها رسمًا .

وكان الغنيُّ منهم لا يأكل اللحم إلا كل أسبوع مرَّة ، ولم يكن للشوارع بحار ولا بلاط ولا مصابيح .

وقال : لم تكن أوربا في مدنيَّتها العصرية بأعلى ذوقًا ، ولا أرفع مدنيَّةً ، ولا ألطف رونقًا ، من عواصم الأندلس على عهد حكم العرب ، فقد كانت شوارعهم مضاءة بالأنوار ، ومبلَّطة أجمل تبليط ، والبيوت مفروشة بالبُسُط ، وكانت تدفأ شتاء بالمواقد ، وتُهَوَّى صيفاً بالنسمات المعطَّرة ، بواسطة إمرار الهواء تحت الأرض ، من خلال أوعية مملوءة زهرًا ، وكانت لهم حمامات ، ومكتبات ، ومحلات للغذاء ، وينابيع مياه عَذْبة .

وكانت المدن والخلوات ملأى بالاحتفالات ، التي كانوا يرقصون فيها على آلات الطرب ، وكانوا بدل النهم وإدمان السكر في المآدب الليلية ـ كجيرانهم

الأوروبيين ـ يحملون مآدبهم بالقناعة ، وكانت الخمرُ مُحرَّمة عليهم ، وكانت غاية لذاتهم البدنية تنحصر في تمشِّيهم في الليالي المقمرة في حدائقهم البالغة منتهى الجمال ، أو جلوسهم حول أشجار البرتقال ، يسمعون قصة مسلية ، أو يتجادلون في موضوع فلسفي . متعزِّين عن مصائب الدنيا وآلامها بقولهم : إنها لو كانت منزَّهة عن الآلام ، وعن الإصابات لنسوا حياتهم الأخرويَّة ، وكانوا يوفقون بين وجودهم في هذه الحياة ، وبين آمالهم في النعيم المقيم في الآخرة)[1] اهـ .

* * *

(١) المنازعة بين العلم والدين (دريبر) .

obeikandl.com